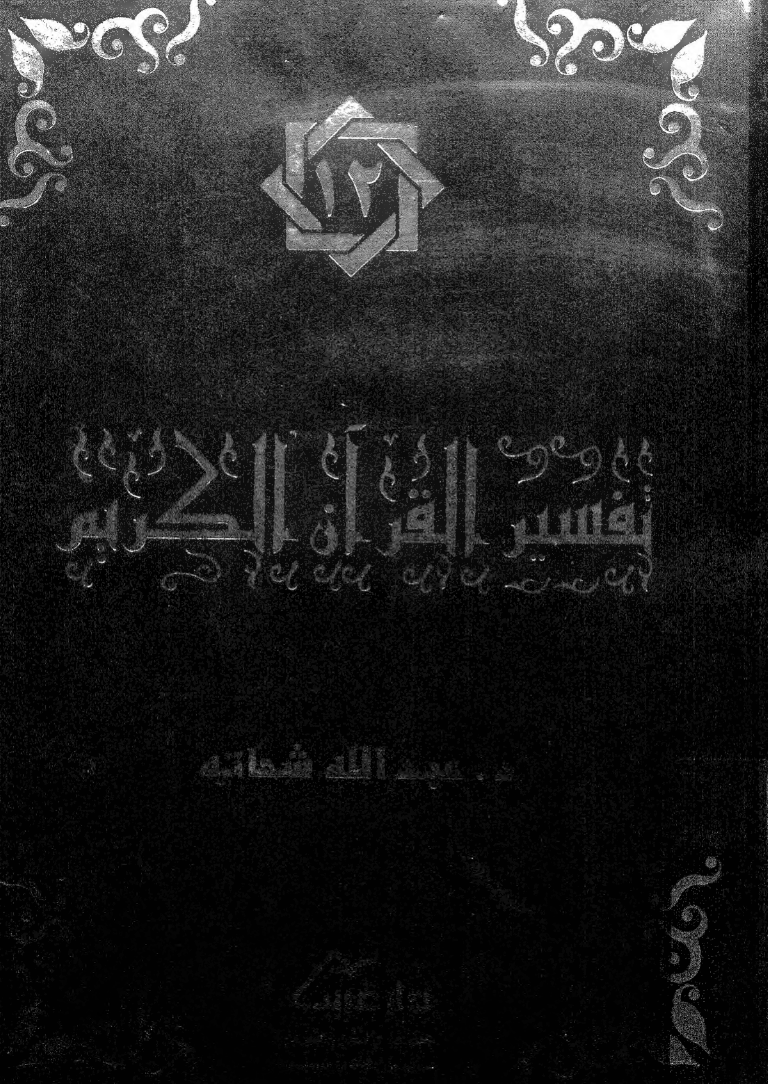

١٢
تفسير القرآن الكريم
د. عبد الله شحاته

إهـــــداء 2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



تعذيب مكذّبى الرسل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات :

صيحة : صوتًا قويًا .

خامدون : ميتون ، وخامدون كما تخمد النار .

يا حسرة : الحسرة : الغم والندم .

القرون : جمع قرن : والمراد بهم : القوم المقترنون فى زمن واحد .

التفسير :

٢٨ – وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ .

أفادت الآيات السابقة أن أصحاب القرية قد اعتدوا على هذا الرجل المؤمن ، الذى جاء يسعى من آخر المدينة لنصرة المرسلين ، وقدم لقومه أدلة عقلية ليؤمنوا بالله ، لكنهم كذبوا هذا الداعية وقتلوه ، فأدخله الله الجنة ، وتمنى لقومه الهداية والإيمان ، وهنا يخبر القرآن الكريم أن الله لم يعتب على قوم هذا المؤمن ، ولم ينزل عليهم وحيًا بعد ذلك ، فقد أرسل إليهم الرسل ، وأنزل الوحى على هؤلاء الرسل ، فكذّبهم أصحاب القرية ، وقتلوا الرجل المؤمن الذى أخلص لهم النصيحة ، وكان فى هذا ما يكفى من البلاغ والإنذار ، فلم ينزل عليهم من السماء وحى ولا عتاب ، بل نزل العذاب والهلاك .

ويفيد بعض المفسرين : أن الكفار كانوا يستغربون أن يكون الرسول بشرًا ، ويقولون : لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ... (الفرقان : ٧) .

فأفاد القرآن أنه لم ينزل ملك كما طلب المشركون ، وما ينبغى أن يكون الرسول ملكًا ، بل الحكمة تقتضى أن يكون الرسول إلى البشر بشرًا مثلهم .

وقال بعض المفسرين : ما أنزلنا لعذابهم جنودَ السماء ، كما حدث فى غزوتى بدر وحنين مع محمد ﷺ ، بل كانوا أهون من ذلك ، حيث أخذتهم صيحة ، خرجت معها أرواحهم ، فأصبحوا جثثًا هامدة ، والله تعالى له حكمة فى إهلاك بعض الناس بالصيحة ، أو الخسف ، أو الغرق ، أو غير ذلك .

قال تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٠) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ .

يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضبًا منه تعالى عليهم ، لأنهم كذّبوا رسله ، وقتلوا وليّه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم جندًا من السماء ، وما احتاج فى إهلاكهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك .

قال ابن مسعود : ما كاثرناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك .

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ .

فأهلك الله تعالى ذلك المَلِك ، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم باقية .

وقيل :

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...

أى : من رسالة أخرى إليهم ، قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله[1] .

٢٩ – إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ .

ما كان إهلاكهم وعقوبتهم إلا بصيحة واحدة أرسلناها عليهم ، فإذا هم ساكنون سكون الميّت ، كالنار الخامدة . وفى ذلك تحقير لهم وتقليل لشأنهم .

قال الآلوسى والنيسابورى وغيرهما :

بعث الله عليهم جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا ، ثم شبّه هلاكهم بخمود النار وهو صيرورتها رمادًا ، لأنهم كانوا كالنار الموقدة فى القوة الغضبية ، حيث قتلوا من نَصَحَهم ، وتجبَّروا على من أظهر المعجزة لديهم . ا هـ .

والسياق محتمل أن تكون الصيحة من جبريل ، كما قد تكون من صوت العذاب النازل من السماء .

٣٠ - يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

الحسرة انفعال نفسى على حال مؤسفة ، لا يملك الإنسان شيئًا حيالها ، سوى أن يتحسر وتألم نفسه ، والله سبحانه وتعالى لا يتحسر على العباد ، ولكنه يقرر أن حال هؤلاء العباد ممّا يستحق حسرة المتحسرين ، فهى حال بائسة مؤسفة ، تنتهى بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم .

قال الزمخشرى :

قوله : يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ . نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة ، فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنّهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف عليهم المتلهفون . ا هـ .

فما أعظم الحسرة عليهم : تتاح لهم فرصة النجاة فيُعرِضُون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبّرونها ، ولا ينتفعون بها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته ، بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين ، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ، ويسيئون الأدب مع الله .

قال الراغب : الحسرة : الغمّ على ما فات ، والندم عليه ، والمراد بالعباد : مكذبو الرسل ، ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولاً أولياً .

٣١ - أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ .

ألم يتدبر الكافرون وينظروا نظر اعتبار وتأمّل إلى حال الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها ، وجحدت رسالات السماء ، كيف أهلك الله هذه الأمم بصنوف الهلاك ، فبادوا وماتوا ، وانقطع نسبهم ونسلهم ، ولن يعودوا إلى الحياة مرة أخرى ، راجعين إلى الدنيا .

٣٢ - وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ[١] .

وسيجتمع أهل القرون السابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم ، كما يبعث أهل مكة وغيرهم ، كل هؤلاء سيحشرون فى موقف الحساب والجزاء .

قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥) .

قال ابن كثير :

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ .

أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة ، بين يدى الله جل وعلا ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، وهذا كقوله جل وعلا : وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ... (هود : ١١١) .

★ ★ ★

دلائل القدرة الإلهية

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

الـمـيـتـة : المجدبة التى لا نبات فيها .

جـنـات : بساتين من شجر النخيل والأعناب .

فـجـرنـا : شققنا وأنبعنا فيها عيونًا كثيرة .

سـبـحـان : تنزيها لله عما لا يليق به .

الأزواج : الأصناف والأنواع المختلفة ، وقال قتادة : الذكر والأنثى .

نسلخ منه النهار : ننزع من مكانه الضوء ، ونزيله ونفصله فيظلم .

لمستقرلها : لحد معين من فلكها تنتهى إليه فى آخر السنة ، والشمس حجمها يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا ، وهى تجرى فى الفضاء لا يسندها شىء ، سوى قدرة القدير سبحانه وتعالى .

قدرناه منازل : قدرنا له منازل ، مجموعها ٢٧ منزلاً ، والمنازل جمع منزل ، وهى المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة .

العرجون القديم : أصل شمراخ النخل القديم ، وهو اليابس الذى دق وانحنى واصفر ، وهو (القحف) من الجريد .

فـى فـلك : الفلك هو المدار الذى يدور فيه الكوكب ، سمى به لاستدارته كفلكة المغزل .

يـسـبـحـون : يسيرون ويدورون بانبساط وسهولة .

الـمشـحـون : المملوء .

فـلا صـريـخ : فلا مغيث لهم من الغرق .

تمهيد :

هذه آيات تدل على مظاهر قدرة الله تعالى ، وآية عملية على البعث والحشر والجزاء ، ولفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله تعالى فى هذا الكون البديع المنظم المرتب ، وفى حركة الشمس والقمر والليل والنهار ، والفضاء والهواء ، وبدائع صنع الله العلى القدير .

التفسير :

٣٣ - وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ .

ودليل واضح على قدرتنا على البعث وإحياء الموتى ، هذه الأرض الجدباء التى لا نبات فيها ولا زروع ولا ثمار ، نسُوق الماء إليها ، ويضع الزارع فيها الحب وأنواع الزرع ، فتهتز الأرض وينمو النبات ، كأنما هو أرواح صغار ، تنمو وتتحرك ، وتكسو الخضرة هذه الأرض ، وتجد فى الأرض الحبّ والذرة والقمح

والشعير ، وهى مصدر الأكل الأساسى الذى يعيش عليه الإنسان والحيوان ، فالذى أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الإنسان بعد موته .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ... (فصلت : ٣٩) .

٣٤ - وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ .

وجعلنا فى الأرض بساتين من النخيل الذى ينبت التمر والبلح والرطب والبُسر وسائر أنواع التمور ، وأشجارًا من العنب والزبيب ، وبجوار ذلك توجد العيون التى تفور بالمياه الجوفية ، وخص الله التمر والعنب بالذكر لأنهما غذاء ودواء وفاكهة .

والجنات جمع جنة ، وهى كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض ، وقد تسمى الأشجار الساترة جنّة ، من الجَنّ وهو الستر ، وكذلك الجِن مستور لا يرى ، والمِجنّ يستر المقاتل ويحميه من النّبال والسّهام والرصاص والقذائف ، وجَنّ الظلام ستر كلّ ما تحته ، والمجنون مَن عقله غائب مستور لا أثر له ، والجنين فى بطن أمه ، والأجنّة فى بطون الأمهات مستورة لا ترى ، فمادة : جنّ ، وجِنّة وجنين ، وأجنة ، ومجنون، كلها من السَّتر .

٣٥ - لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

ليأكلوا من ثمار النخيل والأعناب ، طعاما وغذاء وفاكهة، لم تعمله أيديهم، فالمطر لم ينزلوه، والنبات لم ينبتوه، والهواء والماء والليل والنهار والفضاء والتربة، كل ذلك لم يصنعوه، وهى عناصر أساسية لاستكمال حياة التمر والعنب وسائر النباتات، فهلّا شكروا الله الخالق الرازق.

ويجوز أن يكون معنى الآية :

ليأكلوا من ثمار التمر والعنب، ومما صنعته أيديهم من الثمر ، كالعصير والدِّبْس والتمور المصنّعة المعلبة، والزبيب المجفف.

وقال الزمخشرى :

وما عملته أيديهم من الغرس والسقى والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ منتهاه، وإبّان أكله، يعنى أنّ الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كدّ بنى آدم . ا هـ .

أَفَلَا يَشْكُرُونَ . الخالق الذى يسر لهم ذلك، وأرشدهم إلى الاستفادة به، وحثهم على الشكر ، واستخدام النعمة فيما خلقت له، وإخراج زكاتها، وإطعام الناس منها.

٣٦ - سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ .

تنزه الله الخالق القادر، الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى، فالنبات أزواج، والإنسان أزواج، والحيوان أزواج، وحتى السحابة والأمطار، سببها تلقيح سحابة موجبة بسحابة سالبة.

وثبت علميا أن بعض النجوم مشدود فى مساره بنجم آخر، وكذلك حركة الأفلاك والشموس والأقمار، وغير ذلك مما لا نعلمه والله يعلمه، بل لا يبعد أن يكون الجماد نفسه أزواجًا حتى الذرَّة والمجرة.

قال تعالى: وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات: ٤٩) .

جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

الحرف : مِنْ ، فى هذه الآية للبيان، أى أن الله تعالى جعل الذكور والإناث فى مخلوقاته كلها، سواء فى ذلك النباتات والحيوانات والبشر ، وما لا يعلمه الناس من الأحياء غير المنظورة .

٣٧ - وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ .

من دلائل قدرة الله تعالى تعاقب الليل والنهار ، فإذا سلخ الله الضوء عن الظلام ، انتهى النهار وجاء الليل ، وفى الحديث : «إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا ، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[٣] .

وربما أشارت الآية إلى أن الأصل فى هذا الكون هو الظلام ، وأن النور طارئ عليه ، فإذا سلخ الله جلد النور عن الظلام ، صار الناس فى الليل ، وإذا كسا الله الظلام بالضوء والنور ، صار الناس فى النهار.

قال فى ظلال القرآن :

والتعبير القرآنى فى الآية تعبير فريد ، فهو يصوّر النهار متلبسًا بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون ، ولعلنا ندرك شيئًا من سرّ هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته ، فالأرض الكروية فى دورتها حول نفسها فى مواجهة الشمس ، تمرّ كل نقطة منها بالشمس ، فإذا هذه النقطة نهار ، حتى إذا دارت الأرض ، وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ، ولفها الظلام ، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام ، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام ، فهو تعبير مصوّر للحقيقة الكونية أدق تصوير.

٣٨ - وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

الشمس تتحرك حركة سريعة فى مدارها الذى حدده السميع العليم ، وقدَّره العزيز الغالب ، الذى نظم وأبدع كل شىء ، فالقمر له مساره والشمس كذلك ، والأرض والأفلاك والشموس والأقمار ، كل شىء يَسْبح فى الفضاء بنظام بديع متكامل ، تحرِّكه يد السميع العليم ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، «ونلاحظ أن الشمس تدور حول نفسها ، وكان الظن أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها ، ولكن عرف أخيرًا أنها ليست مستقرة فى مكانها ، إنما هى تجرى ، تجرى فعلا ، تجرى فى اتجاه واحد فى الفضاء الكونى الهائل ، بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلاً فى الثانية ، أى قرابة (٤٣,٠٠٠) ثلاثة وأربعين ألف ميل فى الساعة الواحدة ، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول :

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ...

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى فى الفضاء ، لا يسندها شىء ، ندرك طرفًا من صفة القدرة التى تصرِّف هذا الوجود ، عن قوة وعن علم»[١] ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

٣٩ - وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ .

قدرنا نور القمر منازل ، فله فى كل ليلة منزلة ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نورًا فى الليلة الثانية ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبسًا من الشمس ، حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر حتى يصير : كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ . وهو أصل العنقود من الرطب ، إذا قدم فدق وانحنى واصفرّ .

قال ابن عباس : وهو أصل العذق ، أى : أصل العنقود من الرطب ، إذا عتق ويبس وانحنى .

٤٠ - لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

للشمس مدار تسبح وتجرى فيه ، وللقمر مدار بعيد جدًا عن مدار الشمس يسبح فيه ، وللأرض حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، ولكل من الشمس والقمر والأرض مجال خاص بكل واحد منها ، فهو يجرى ويسبح ، وخلفه سائر مجموعته ، بسرعة هائلة ، وتقدير عظيم ، بحيث لا يصطدم أى كوكب بالآخر ، ولا يتوانى أى كوكب عن حركته ، فللشمس مجالها ، وللقمر مجاله ، وللأرض مجالها ، ولليل مجاله ، وللنهار مجاله .

ولا يتسنى للشمس أن تظهر ليلاً فتطمس نور القمر، أو تنير الليل، ولا يتسنى لليل أن يتقدم عن موعده ليطمس نور النهار، بل هما جديدان متتابعان، يعقب النهار الليل ويعقب الليل النهار، بدون تخلّف أو تأخر، أو اضطراب أو اصطدام، لأن القدرة الإلهية هى التى تحرّك هذا الكون بكل ما فيه .

جاء فى هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

وصفوة القول أن الآية الكريمة تنص على أن الشمس تجرى لمستقر لها، ولم يتعرف على معانيها العلماء إلا فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى، ولا يمكن أن تدرك الشمس القمر، لأن كلاً منهما يجرى فى أفلاك متوازية، فيستحيل أن يتقابلا، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار، حيث يتطلب ذلك أن تدور الأرض حول محورها من الشرق إلى الغرب، بدلاً من اتجاهها الحالى من الغرب نحو الشرق، والقمر خلال دورته حول الأرض، ودورة الأرض حول الشمس يمر بمجموعات من النجوم تسمّى بمنازل القمر، وفى الربعين الأول والأخير من الشهر، يظهر القمر كالعرجون القديم، أى : يصير كالسباطة إذا قدمت ويبست واعوجت[*] .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

ولكل نجم أو كوكب فلك، أو مدار، لا يتجاوزه فى جريانه أو دورانه، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة، فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليونًا من الأميال، والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتى ألف من الأميال ....، وهذه المسافات على بعدها ليست شيئًا يذكر حين تقاس ببعد ما بين مجموعتنا الشمسية، وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا، وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية، وسرعة الضوء تقدَّر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال فى الثانية الواحدة ! (أى أن أقرب نجم إلينا يبعد عنّا بنحو مائة وأربعة مليون مليون ميل) وقد قدّر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب، ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع، حتى يأتى الأجل المعلوم، فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر، والليل لا يسبق النهار، ولا يزحمه فى طريقه، لأن الدورة التى تجىء بالليل والنهار لا تختل أبدا، فلا يسبق أحدهما الآخر، أو يزحمه فى الجريان !

وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

وحركة هذه الأجرام فى الفضاء أشبه بحركة السفينة فى الخضم الفسيح، فهى مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطة سابحة فى ذلك الفضاء المرهوب، وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل، وهو ينظر إلى هذه

الملايين التى لا تحصى من النجوم الدوّارة ، والكواكب السيارة ، متناثرة فى ذلك الفضاء ، سابحة فى ذلك الخضّم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح ، وأحجامها الضخمة تائهة فى ذلك الفضاء الفسيح[١] .

٤١ - وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ .

تشير الآية إلى فضل الله سبحانه وتعالى على بنى آدم ، فحين كَذّب قوم نوح نوحًا ، واستمروا فى عنادهم أغرق الله الكافرين ، وأمر نوحًا عليه السلام أن يصنع السفينة ، وأن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين ، فحمل ذكرًا وأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ، وكانت السفينة مليئة موقرة ومشحونة بهذه الأصناف .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدّين : الأصول والفروع ، لأن الذرية من الذّرء بمعنى الخلق ، والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منها الفروع ، فاسم الذرية يقع على الآباء ، كما يقع على الأولاد .

ومعنى الآية :

وآية أخرى لهم ، أنا حملنا ونجينا المؤمنين فى سفينة نوح ، التى كانت موقرة ومشحونة بآبائهم وأجدادهم وأصولهم ، التى حملت الذرية فى أصلابها ، ثم تناسل الناس بعد ذلك إلى يوم القيامة ، وبذلك دبّر الحقُّ سبحانه وتعالى صيانة الجنس البشرى وسلامته ، بنجاة الآباء فى السفينة ، أى : سفينة نوح عليه السلام .

من تفسير ابن كثير

ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى ، تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك - بل أوّله - سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، التى أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين . ولهذا قال تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ . أى : آباءهم ، فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ . أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين . اهـ .

٤٢ - وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ .

وخلقنا للناس السفن والزوارق التى كانت بعد سفينة نوح ، ويسّرنا لهم الهواء والماء وكلّ شىء ، ليستفيدوا بهذه السفن فى نقل المؤن والتجارة وغيرها ، أو خلقنا لهم الإبل والحمير والبغال وأشباهها ، ليستفيدوا بها فى البرّ ، كما يستفيدون بالسفن فى البحر .

٤٣ - وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ .

هذه السفن الصغيرة أو الكبيرة فى أعالى البحار ، إذا اشتدت الريح ، وقويت العواصف ، وجدت هذه السفن كالريشة فى مهبِّ الرياح ، ويصبح الغرق والموت أقرب إلى الإنسان من شراك نعله ، وحين تأتى العواصف والرياح العاتية ، أو الدوَّامات المائية المهلكة ، تهلك السفينة فى وقت قصير ، فلا مغيث لهم يحفظهم مما نزل بهم ، ولا هم ينجون من الغرق بعد وقوعه .

٤٤ - إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ .

لكن برحمتنا الواسعة نحفظكم من المهالك ، ونسيركم فى البرّ والبحر ، ونرزقكم بخيرات السماء والأرض ، ونمتعكم بمتاع الحياة الدنيا إلى انتهاء آجالكم وإلى حين موتكم ، فالإنسان قد ولد وقد سجل معه أجله ورزقه وشقاؤه أو سعادته ، وحين ينجو من الهلاك فى البحر بفضل الله ورحمته ، فهذا الإنقاذ إمتاع بالحياة الدنيا إلى وقت انتهاء أجله ، وقريب من ذلك ما أنشده أبو الطيب المتنبى فى وصف الحمّى حيث يقول :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى ... تخبُّ بى المطىّ ولا أمامى

وملَّنى الفراش وكان جنبى ... يملّ لقاءه فى كل عام

قليل عائدى أسف فؤادى ... كثير حاسدى صعب مرامى

وزائرتى كأنّ بها حياء ... فليس تزور إلا فى الظلام

إذا ما فارقتنى غسَّلتنى ... كأنا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجرى ... مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر ... إذا ألقاك فى الكرب العظام

أبنت الدّهر عندى كل بنت ... فكيف نجوت أنت من الزحام

جرحت مجرحًا لم يبق فيه ... مكان للسيوف ولا السهام

فإن أمرض فما مرض اصطبارى ... وإن أحمم فما حمّ اعتزامى

وإن أسلم فما أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام

وموضع الشاهد أنه إذا سلم من الحمّى فلن يخلّد فى الدنيا ، بل يسلم من الحمى لوقت محدد ، ثم يلقى الحمام وهو الموت .

قال ابن كثير :

إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ... وهذا استثناء منقطع ، تقديره : ولكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونسلّمكم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال تعالى : وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ . إلى وقت معلوم عند الله عز وجل[٧] .

★ ★ ★

إعراض الكافرين عن آيات الله

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

اتقوا ما بين أيديكم : خافوا واحذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم .

وما خلفكم : عذاب الآخرة ، وقيل : مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ . ما تقدم من ذنوبكم ، وَمَا خَلْفَكُمْ . ما يأتى منها .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات لبيان إعراض الكافرين عن النصح ، وعن التأمل والتبصر فى آيات الله ، مع شحهم وبخلهم على الفقراء والمحتاجين .

التفسير :

٤٥ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

كان النبى ﷺ يذكّرهم بالله ويعظهم ، ويقرأ عليهم آيات القرآن الكريم ، وفيها حديث عما أصاب المكذبين للرسل من العذاب والعقاب .

ومعنى الآية :

وإذا قيل لأهل مكة : احذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم ، وَمَا خَلْفَكُمْ . أى : عذاب الآخرة الذى أعده الله لكم ، لسوء عملكم وإصراركم على كفركم ، أى : اتقوا ما بين أيديكم ، واحذروا أن يصيبكم مثل عذاب قوم نوح وعاد وثمود ، وخافوا الله واحذروا عقوبته بعد الموت ، لعل هذا الخوف يكون سبيلا إلى رحمة الله ولطفه بكم ، إذا قيل لهم ذلك ، أعرضوا وسدُّوا آذانهم ، وتكبروا ، ودليل ذلك قوله تعالى :

٤٦ - وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

لقد تمرّسوا بالضلال والكبرياء الكاذب ، والإعراض عن آيات الله تعالى فى الكون ، وفى خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار ... ، ثم إعراضهم عن آيات الله التنزيلية التى أنزلها على رسوله ، ومنها آيات القرآن الكريم ، ومنها المعجزات التى أظهرها الله على يد محمد ﷺ ، ومنها الحجج والعلامات الدالة على توحيد الله تعالى ، وكمال قدرته ، ودلائل تفرّده سبحانه بالخلق ، واستحقاقه وحده للعبادة ، وعدم إغناء الأصنام عنهم شيئًا .

والخلاصة :

ما تظهر أمام عيونهم من آية من الآيات الدالة على ألوهيته سبحانه ، وتفرّده بالألوهية ، إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ . تاركين للنظر الصحيح فيها ، كبرًا وعنادًا .

٤٧ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

كان أهل مكة على جانب كبير من الغنى والجاه والمال ، ولهم تجارة رابحة تتحرك إلى الشام صيفًا وإلى اليمن شتاء ، ومع ذلك حافظوا على التكبرّ والعتوّ ، والاستزادة من الخمر والمتعة ، والزهد فى ثواب الآخرة ، وإذا قيل لهم : أخرجوا شيئًا من المال للفقراء والمساكين ، وأطعموا الجائع واكسوا العارى واقضوا حاجة المحتاجين ، رفضوا ذلك وتعللوا بأن الله هو الذى أفقر هؤلاء الفقراء ، ولو شاء الله لأطعمهم ، فنحن ننفذ مشيئة الله ولا نطعمهم ، وهذه أفكار ضالة ؛ لأن الله تعالى له حكمة ، حيث أغنى بعض عباده ، وأفقر بعضهم ، وحثّ الأغنياء على العطف ، وإخراج الزكاة والصدقة للفقراء ، وبذلك يصبح المال وسيلة للتعاون والتراحم والترابط ، ونشر المودة والرحمة ، فالله تعالى أفقر وأغنى ، ولكنه ذم البخل والشح .

قال تعالى : وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . (الحشر : ٩) .

وحث القرآن على الصدقة ، وأمر بالزكاة ، وحث على مساعدة الفقراء واليتامى والمساكين ، ورعاية الجار وصلة الرحم ، وبذلك أصبح للفقير حق معلوم من الزكاة والصدقة والمساعدة ، وأصبح الغنى موظفًا فى ماله ، يتاجر ويربح لكنه مطالب بالزكاة ، ويسدّ حاجة المحتاجين إذا لم تكف الزكاة .

وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله ، أيفقرهم الله ونطعمهم نحن ؟!

وورد فى كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآية روايات ، منها ما يأتى :

روى أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقيه أبو جهل ، فقال له : يا أبا بكر ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم ، قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال أبو بكر : ابتلى سبحانه قومًا بالفقر ، وقومًا بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء ، فقال أبو جهل : والله يا أبا بكر إن أنت إلا فى ضلال ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت ؟ فنزلت هذه الآية .

وقيل : كان العاص بن وائل السهمى إذا سأله المسكين ، قال له : اذهب إلى ربك فهو أولى منى بك ، ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا[٨] .



الموت والبعث

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾

المفردات :

الوعد : وعد البعث .

صيحة واحدة : نفخة واحدة هى نفخة إسرافيل فى الصور ، حيث يموت جميع الناس .

تأخذهم : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون .

يخصّمون : يختصمون ويتنازعون فى أمورهم غافلين عنها .

الصور : القرن حيث ينفخ فيه إسرافيل النفخة الثانية .

الأجـــــداث : القبور ، واحدها جَدَث بفتحتين ، أي : قبر .

يـنـسـلـون : يسرعون .

الــويـــل : الهلاك .

مـن مـرقـدنـا : من منامنا ، أو من موتنا .

تمهيد :

تصف الآيات تشكك الكافرين في البعث والحساب ، وسؤالهم عنهما سؤال مُستبعد مستنكر لوقوعهما ، وعلى طريقة القرآن الكريم في عرض مشاهد القيامة ، فقد عرض نفخة إسرافيل الأولى في الصور ، التي تباغت الناس فيموتون في اللحظة توًا ، حيث لا يستطيع أحد أن يقدّم وصية ، أو يرجع إلى أهله ، وبعد هذه النفخة الأولى يصعق الناس ويموتون ، ثم ينفخ إسرافيل نفخة أخرى ، تجتمع بعدها الأجسام ، ويقوم الناس من القبور ، يتساءلون عما حدث ، ويلقون الجواب بأنّه وعد الله ، الذى وعدكم بالبعث والحشر ، وأرسل الرسل بذلك ، وقد صدقت الرسل ، وتأيد ذلك بما تشاهدونه من الموازين والكتب ، والحساب والجنة والنار ، حيث يلقى كل إنسان جزاء عمله .

التفسير :

٤٨ - وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

كان الكفار يستنكرون البعث والحشر ، والحساب والجزاء ، ويقولون : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، فلما نزل القرآن الكريم ، وكثر حديثه عن البعث والقيامة وأهوالها ، قال الكفار للمؤمنين : متى هذا الوعد الذى تعدوننا به ؟ سؤال استبعاد لوقوعه .

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . في قولكم عنه ، فأخبرونا بوقت مجيئه ، والله تعالى لا يَعْجَل لعجلة العباد ، وقد قدَّر في الأزل أجل كل إنسان ، وهنا يجيب القرآن بالحديث عن القيامة وأهوالها ، لا عن وقتها .

٤٩ - مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ .

ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، لا ثانية لها ، حيث يموت الناس .

النفخ في الصور

الصور هو القرن أو النفير ، ونجد شيئًا قريبًا من ذلك في الجيش حيث نجد بُروجى (عسكرى) ينفخ في مكبِّر للصوت ، نوبة صحيان ، فيستيقظ جميع المعسكر ، وهكذا نوبة غداء ، ونوبة عشاء .

وقد أفاد القرآن والسنّة ، وتفسير ابن كثير وغيره ، أن هناك ثلاث نفخات فى الصور :

النفخة الأولى : نفخة الفَزَع ، حيث تفْزَع جميع الخلائق .

النفخة الثانية : نفخة الموت ، حيث يموت جميع الخلائق ، ولا يبقى حيًا سوى الرحمان جل جلاله .

النفخة الثالثة : نفخة البعث ، حيث يقوم الناس لرب العالمين .

ومن العلماء من أدمج النفخة الأولى فى الثانية ، حيث أفاد أن هناك نفختين :

الأولى : يصعق الناس جميعًا ويموتون أربعين عامًا .

الثانية : يبعثون للحساب .

قال تعالى: **وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ** . (الزمر: ٦٨ – ٧٠) .

وقد أفادت السنة الصحيحة أن هذه النفخة الأولى ، تأخذ الناس وتفاجئهم بالموت والحتف ونهاية حياتهم ، فلا يستطيع إنسان أن يتم أكل اللقمة التى فى فمه ، أو يشرب من الحوض الذى بناه بالجصّ والطين ، ولا يتم أى موضوع بدأ فيه .

أخرج الشيخان وغيرهما ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبَهُما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه – أى يسده بالطين والجصّ – فلا يُسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطْعمُه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته[٩] إلى فمه فلا يطعمها»[١٠] .

٥٠ – فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ .

ترتبط هذه الآية بما قبلها ، أى : حين ينفخ إسرافيل فى الصور نفخة واحدة ، فإن صوت هذه النفخة يأخذهم ويميتهم وتنتهى حياتهم بنفخة واحدة ، لا يحتاجون إلى تكرارها ، تأتى هذه النفخة وهم سائرون فى حياتهم ، يتبايعون ويتخاصمون ، فلا يستطيع أىّ واحد منهم أن يُتم ما بدأه ، أو أن يكمل ما عمله ، لأن الموت يفاجئهم ، وينهى حياتهم فى لحظة ، فلا يستطيع أحدهم أن يكتب وصيته ، أو يتكلم بها لمن حوله ، ولا يستطيع أن يرجع إلى بيته ، لأن الموت قد أعجله ، ومنعه من كل ذلك ، بل إن الموت ينزل به وبمن حوله ، وبأهل بيته .

٥١ – وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ .

هذه هى النفخة الثانية ، وقد ورد أن أهل القبور يهجعون أو ينامون قبل النفخة الثانية ، فإذا نفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، قام الناس من قبورهم ، يسرعون السير إلى ربهم للحساب والجزاء ، والآية تعبير مصور لمرحلة البعث .

فقد أفادت الآية السابقة موت الناس بعد النفخة الأولى موتًا مفاجئًا ، لا يستطيعون معه إنجاز أى عمل فى أيديهم ، وبينما هم فى نومهم يأتى موضوع هذه الآية :

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ .

أى : بعد الموت يأتى دور البعث ، فينفخ إسرافيل فى الصور ، وهو القرن أو النُّفير ، فإذا هؤلاء الموتى فى أجداثهم – أى قبورهم – قد قاموا من قبورهم يسيرون سيرًا حثيثًا ، مسرعًا سرعة إجبارية إلى ربهم للحساب والجزاء .

٥٢ – قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ .

وحين بُعث الناس من قبورهم ، تساءل الكفار ، وقالوا : يا هلاكنا من هول ما نشاهد ، من الذى أحيانا وبعثنا من قبورنا ؟! وهو تساؤل الإنسان عندما يشاهد هولاً ، فيقول : يا ويلتى ، أى : يا هلاكى احضر فهذا أوان حضورك ، وهى كلمة تقال للتعبير عن الحزن والأسى لما يراه الإنسان مثل قوله تعالى : يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً . (الفرقان : ٢٨ ، ٢٩) .

ونلاحظ أن الكفار كانوا ينكرون البعث والحساب والجزاء ، والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، والقبر أصعب مما قبله وأخفّ مما بعده ، فإذا شاهد الكفار جهنم وأيقنوا بما فيها من عذاب ، رأوا أنّ ما كانوا فيه فى القبر مثل الرقاد .

وروى عن ابن عباس : أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون ، فإذا بعثوا بالنفخة الثانية ، وشاهدوا الأهوال قالوا ذلك : يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ...

فيقول لهم الله تعالى : هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ . وقيل : من جهة الملائكة .

وقال قتادة ومجاهد : من قبل المؤمنين .

وقال ابن زيد : هذا الجواب من قبل الكفار ، على أنهم أجابوا أنفسهم ، حيث تذكّروا ما سمعوه من المرسلين ، أو أجاب بعضهم بعضا : هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ .

أى : هذا ما وعد الرحمان عباده ، بالبعث والحشر والجزاء ، وقد صدق المرسلون فى رسالاتهم التى حملوها إلينا ، مذكِّرين بالبعث بعد الموت ، والجزاء العادل لكل إنسان بما عمله .

قال ابن كثير : ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجمع ممكن . ا هـ .

أى أن هؤلاء الكفار يسمعون الجواب من عند الله ، وتحمله الملائكة ، وينطق به المؤمنون ، ويردده الكفار أنفسهم ، بل الكون والمشهد كله ينطق بلسان الحال ولسان المقال : هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ . (الصافات : ٢٠ ، ٢١) .

وقوله تعالى : وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .... (النحل : ٧٧) .

٥٣ – إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ .

أى : ما كانت النفخة التى تمّت إلا صيحة واحدة ، نفخها إسرافيل فى الصور ، فإذا هم مجموعون عندنا ، وفى محل حكمنا ، محضرون للحساب من غير تأخّر ، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر ، والإيذان بقدرة القدير ، وتنفيذ الأوامر فور صدورها .

وفى معنى الآية :

قوله تعالى : فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

وقوله سبحانه : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٥٢) .

٥٤ – فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فَٱلْيَوْمَ ، أى : فهذا يوم القيامة ، ويوم الفصل والحكم بين الناس ، والحكم لله تعالى فى ذلك اليوم ، وهو سبحانه عادل ، وقد حرّم الظلم على نفسه ، لذلك فهو سبحانه لا يبخس الناس شيئًا من أعمالهم ، ولا يُنقص حسنة لمحسن ، ولا يزيد فى سيئات مسىء ، بل إن الجزاء من جنس العمل ، والجزاء العادل بالجنة ونعيمها للمتقين ، وبالنار وعذابها للكافرين والظالمين .

قال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

وقال تعالى : وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

ويقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تضلُّون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرِّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل سائل مسألته ، ما نقص ذلك من ملكى شيئًا ، إلا كما ينقص المخيط إذا وضع فى البحر ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه»[11] .

★ ★ ★

نعيم المؤمنين فى الجنة

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات :

الشـــغـــل : الشأن الذى يصدّ الإنسان ، ويشغله عما سواه ، من شئونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصّل مسرة كاملة ، أو مساءة عظيمة .

فـــاكـــهـــون : متلذذون ، أو فرحون ، والفاكه : الطيب النفس الضحوك .

الظلال : واحدها ظلّ ، وهو ضد الضحّ (ما تصيبه الشمس) .

الأرائك : واحدها أريكة ، وهى سرير منجّد مزيّن ، فى قبة أو فى بيت .

لهم مايدعون : لهم ما يطلبون ، أى : يتمنون .

امتازوا : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

تمهيد :

تصف الآيات نعيم أهل الجنة ، فهم فى نعيم مقيم ، وهم فاكهون مع زوجاتهم يتمتعون بوارف الظلال ، ومُريح الأسِرَّة ، يتمتعون بالفاكهة ، وبكل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ويأتيهم السلام من الربّ الرحيم .

التفسير :

٥٥ - إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ .

لقد وعد الحق سبحانه بأن يجازى كل إنسان الجزاء المناسب بعمله ، فى الآية السابقة ، ثم تكلّم سبحانه عن نعيم أهل الجنة وسرورهم ، فهم مستغرقون فى النعيم ، قد ملأ عليهم نفوسهم ، وتمتعوا بالملاذّ والنعيم المقيم ، ولهم فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال بعض المفسرين :

شُغُلٌ وأى شغل ، عَزْف الأوتار على ضفاف الأنهار ، تحت أشجار الثمار ، وضيافة الجبار .

والشغل هو الشأن الذى يشغل الإنسان ، ويصدّه عما سواه من شئون ، لكونه أهم عنده من الكلّ ، إمّا لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة ، والمراد هنا الأول ، وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لا يدرك كنهه ، والمراد به النعيم الذى شغلهم عن كل ما سواه .

وعن ابن كيسان : الشغل : التزاور وضيافة الله .

فَـٰكِهُونَ . متلذذون ، متنعمون بالنعمة التى تحيط بهم ، معجبون بما أكرمهم الله به ، والفاكه والفكه : المتنعم المتلذذ ، ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ بها ، وكذلك الفكاهة التى هى المزاحة .

٥٦ - هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ[١٧] .

إن أصحاب الجنة هم وحلائلهم قد اجتمع شملهم فى ظلال وارفة ممدودة ، يجلسون على الأسِرَّة ، ويتكئون على الفُرش الوثيرة فى متعة ولذة .

والظلال الوارفة نعمة ومسرَّة ، فلا يستوى الظل ولا الحرور ، وقد صح من رواية الشيخين أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلّها مائة عام لا يقطعها ، فاقرءُوا إن شئتم : وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ»[١٣] . (الواقعة : ٣٠) .

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ .

على السرر المنجدة المزينة بالستور متكئون فى لذة ومتعة ورضا .

٥٧ - لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ .

لهم فى الجنة فاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مذلّلة لهم ، إن شاءوا أكلوا وإن شاءوا أمسكوا ، ولهم فيها كل ما يطلبونه ويتمنونه .

قال أبو عبيدة : العرب تقول : ادَّع علىّ ما شئت ، أى : تمنّ علىّ ، وتقول : فلان فى خير ما ادَّعى ، أى : فى خير ما تمنّى .

٥٨ - سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ .

ما أعظم نعيم أهل الجنة ، فهم فى أنس مع أزواجهم ، وراحة وعدم وحدة مع حسن المكان ، وإعطائهم كل ما يحتاجون إليه ، وتلذذهم بالنعيم ، وتلقيهم لأجمل تحية ، كما يقول الفخر الرازى فى تفسيره .

إن نعيم الجنة عظيم ، ومعه سعادة ونضارة ، وسرور مقيم ، ورضوان من الله أكبر .

روى ابن أبى حاتم بسنده ، وابن ماجة فى كتاب السنّة من سننه ، وجماعة ، عن جابر قال : قال النبى ﷺ : «بينما أهل الجنة فى نعيم ، إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم ، فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فذلك قوله تعالى : سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ . قال : فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ، ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم»[١٤] .

وقيل : يسلّم الله على أهل الجنة عن طريق الملائكة .

لقوله تعالى : وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

وعند التحقيق نجد أنه لا منافاة بين القولين ، فالله تعالى يسلّم على أهل الجنة ، والملائكة تسلّم عليهم ، فما أعظم نعيمهم ، وما أكرم جزاءهم ، اللهم اجعلنا من أهل الجنة ، واجعلنا من أهل رضوانك ونورك وبركتك فى الدنيا والآخرة .

٥٩ – وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ .

أى : تفرقوا وانفردوا عن المؤمنين ، واذهبوا إلى جهنم ، فهم فى عذاب النار ، وهم فى عذاب آخر ، وهو عذاب الوحدة ، والبعد عن المؤمنين ، وعدم الأنس وعدم السعادة .

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ . (الروم : ١٤ – ١٦) .

وقال تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ... (يونس : ٢٨) .

★ ★ ★

جزاء المجرمين

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

ألم أعهد إليكم : العهد : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة .

عبادة الشيطان : يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى الشيطان لأنه الآمر بها ، والمزين لها .

عدو مبين : عدو واضح العداوة .

هذا صراط مستقيم : هذا العهد طريق لا عوج فيه .

جبلا كثيرا : جماعة عظيمة ، وخلقا كثيرا ، قال الراغب : الجِبِلّ : الجماعة العظيمة ، وقال غيره : الجِبِلّ : الأمة ، وهى معانٍ متقاربة .

التفسير :

٦٠ - أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

تحدث القرآن طويلا عن خلافة الإنسان فى الأرض ، وعن خلق آدم وإسكانه الجنة ، وإباحة الأكل له من ثمار الجنة جميعها ماعدا شجرة واحدة ، ثم إغواء الشيطان لآدم وحواء ، وأكلهما من الشجرة ، وخروجهما من الجنة ، وتنبيه الله لبنى آدم ، وتحذيرهم من طاعة الشيطان ، الذى أخرج آدم من الجنة ، واستمرّ فى عداوته لأبناء آدم بالوسوسة والتزيين والفتنة ، رغبة فى غواية الإنسان .

قال تعالى : يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

فالله تعالى بيّن فى كتبه المنزّلة ، وعلى لسان الرسل المرسلة ، جِدّ الشيطان فى إغواء الإنسان كما بين القرآن أن كيد الشيطان كان ضعيفا ، فإذا استعان الإنسان بالله ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، أعانه الله ونصره .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف: ٢٠١) .

وقال سبحانه : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ‌* إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . (النحل ٩٩ ، ١٠٠) .

وقد ورد تحذيرنا من الشيطان فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وفى سورتى الفلق والناس استعاذة ، أى : تحصّنٌ واستعانة بالله ، والتجاء إليه ، ليحفظنا من وسوسة الشيطان .

وفى موقف القيامة يذكّر الله الناس بما أنزله فى كتبه وعلى لسان رسله ، بعدم عبادة الشيطان أى بعدم طاعته والسير وراء وسوسته وتزيينه ، بعبادة آلهة أخرى غير الله ، كالأصنام والأوثان والجاه والسلطان والهوى ، والمرأة والمظهر والدينار والدرهم .

وفى صحيح البخارى : «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد المرأة ، تعس عبد الخميصة ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان فى الساقة ففى الساقة ، وإن كان فى المقدمة ففى المقدمة ، وإن استأذن لم يؤذن له»[١٥] .

وذكر بعض المفسرين أن العهد المذكور فى الآية هو الميثاق المأخوذ على بنى آدم فى عالم الذرّ ، والمشار إليه بقوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ... (الأعراف : ١٧٢) .

وفسر بعضهم عهد : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .

بأن الله أودع فى الفطرة والعقول ، والأفهام والأفئدة والقلوب ، ما لو تأملت فى هذا الكون وما فيه ، وفى الدنيا وما فيها ، وفى المخلوقات ونظام الليل والنهار ، وسير الشمس والقمر ، وحركة الأرض والسماء والفضاء وسائر الأشياء ، لوتأملت بفطرتها ومواهبها وعقولها لاهتدت إلى طاعة الرحمان والفرار من طاعة الشيطان .

ومعنى الآية :

ألم أوصكم يا بنى آدم ، وأنزل إليكم هدى السماء ، وأنصحكم بعدم عبادة الشيطان وعدم طاعته ، لأنه لكم عدو بالغ العداوة .

٦١ – وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

هذه الآية مكملة لما سبقها ، فالله تعالى عهد ووصى بنى آدم بعدم عبادة الشيطان وعدم طاعته ، كما وصاهم بعبادة الله تعالى وحده ، فهذا هو الصراط المستقيم والطريق القويم ، أى الاهتداء بهدى الله وطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه ، والابتعاد عن إغواء الشيطان وفتنته .

وفى معنى الآيتين السابقتين ، وردت آيات كثيرة ، كلها تؤكد عداوة الشيطان للإنسان ، ووجوب الحذر من طاعة الشيطان والحذر من استدراجه للإنسان ، وأن كيد الشيطان ضعيف، وأنه سيتبرأ ممن أطاعه يوم القيامة .

قال تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

وقال عز شأنه : ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦٨) .

٦٢ - وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ .

لقد زين الشيطان للكافرين كفرهم حتى كذبوا الرسل ، واستحقوا عذاب الدنيا والآخرة .

جِبِلاًّ كَثِيرًا . أى : أمما كثيرة ، وجماعات عظيمة ، وخلقا كثيرا ، فهذا الشيطان قد اخترق صفوفكم ، وأضل جمعا كبيرا ، من الكافرين والمبطلين ، أفلم تشاهدوا ما أصاب المكذبين الذين استهوتهم الشياطين ، فخسروا دنياهم وآخرتهم ، حتى تعدلوا عن طاعة الشيطان ، وتكونوا فى طريق الرحمان ، وعلى هديه وأمره وصراطه المستقيم .

قال تعالى : وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا . (النساء : ٣٨) .

وقال سبحانه : وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً . (الفرقان : ٢٩) .

وقال سبحانه وتعالى : ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . (المجادلة : ١٩) .

★ ★ ★

مشاهد القيامة

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات :

اصلوها : ادخلوها وقاسوا سعيرها .

نختم على أفواههم : نمنعها من الكلام .

وتكلمنا أيديهم : كلام دلالة أو نطق .

لطمسنا على أعينهم : لمحونا وأزلنا معالمها .

فاستبقوا الصراط : فسارعوا إلى الطريق .

فأنى يبصرون : فكيف يبصرون الحق ويهتدون إليه ؟

لمسخناهم : المسخ : تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة .

على مكانتهم : في أماكنهم حيث يرتكبون القبائح .

نعمّره : نطل عمره .

ننكسه في الخلق : نقلبه فيه ، فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه في بدء أمره ، حتى يُردَّ إلى أرذل العمر .

تمهيد :

تشتمل الآيات على تهديد ووعيد للكافرين بجهنم وسعيرها ، ونطق للجوارح عليهم بالذنوب والسيئات التي ارتكبوها في الدنيا .

وقدرة الله لا حدود لها ، فالله قادر على أن يطمس على عيونهم فينعدم البصر ، ثم يتسابقون إلى السير في الطريق ، فكيف يبصرون مع عَمى العيون ؟

ولو شاء لمسخهم في أماكنهم ، وسلب منهم الحياة ، فلا يستطيعون تقدما للأمام ولا رجوعا للخلف ، وهب أنه لم ينزل بهم العمى ولا المسخ ، فهناك ظاهرة طبيعية تصيب جميع البشر ، هي كبر السن والضعف والشيخوخة ، مع تقهقر الحواس ، أفلا يعقلون ، ويغتنمون الوقت ، ويسارعون إلى الإيمان قبل عقوبة الآخرة ، أو قبل ضياع الفرصة في الدنيا ؟

يقول النبي ﷺ : «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فَقرك ، وصحتك قبل سقمك ، وحياتك قبل موتك ، وفراغَك قبل شُغلك» .

التفسير :

٦٣ - هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

من شأن القرآن أن يتحدث عن الآخرة ، وأن يعرض القيامة كأنها ماثلةٌ أمام الإنسان ، وفي ذلك اليوم يقال للكفار : هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

أي : هذه جهنم ، بما فيها من عذاب وسعير ، وحريق ومهانة ، التي وعدكم بها رسلي وكتبي ، فهي مآل كل كافر .

قال تعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا . (النبأ : ٢١ ، ٢٢) .

٦٤ – ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

ذوقوا سعيرها ولهيبها وعذابها ، بسبب إصراركم على الكفر في الدنيا ، والإعراض عن الرسل .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . (الطور : ١٣ ، ١٤) .

٦٥ – ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

فى ذلك اليوم ينكر الكفار كفرهم وجرائمهم التى فعلوها فى الدنيا ، فيختم الله على أفواههم فلا تنطق ، ويأمر الجوارح أن تشهد عليهم بما اجترحوه من المعاصى ، فتنطق اليد وترشد إلى المعاصى التى ارتكبتها ، وتنطق الرِّجل وتشهد بالمعاصى التى اجترحتها وفعلتها .

قال المفسرون :

وشهادة الأيدى والأرجل عليهم دلالتها على أفعالها ، وظهور آثار معاصيها عليها .

وقيل : ذلك على الحقيقة ، بأن ينطقها الله فتتكلّم وتشهد ، ويؤيد ذلك ما ماورد فى القرآن الكريم والسنّة الصحيحة .

قال تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ . (النور : ٢٤، ٢٥) .

وقال تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (فصلت : ١٩ – ٢١) .

وفى كتب السنة النبوية ما يفيد أن الله يضع كَنَفَهُ على المؤمن ، ويذكّره بذنوبه التى فعلها فى الدنيا ، فيعترف بها لربّه ، ولا ينكر منها شيئا ، فيقول له الله تعالى : لقد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، وأما الكافر فينكر أنه فعل شيئا من الذنوب ، فتنطق جوارحه عليه ، وتفضحه جوارحه على رءوس الأشهاد .

روى ابن أبى حاتم ، والإمام مسلم ، والنسائى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال ﷺ : «أتدرون مم أضحك ؟» قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ :

«من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : ربِّ ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز علىَّ إلا شاهداً من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم الله على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعْداً لكنّ وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل»[٦٦].

وخلاصة معنى الآية :

اليوم نغطّى على أفواههم فلا تنطق ، وتكلمنا أيديهم ، وتنطق أرجلهم شاهدة عليهم بما كانوا يعملون.

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

قال الكرخى : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا ، أو قهرا ، والإقرار مع الإجبار غير مقبول ، فقال : وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ... أى باختيارها ، بعد إقدار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم. ا هـ .

٦٦ – وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ .

إنهم جميعا داخل سيطرة القدير ، الفعّال لما يريد ، فلو شاء سبحانه لطمس عيونهم ، وسلب نورها ، ثم يتسابقون إلى الطريق المستقيم ، فكيف يبصرون والعمى قد أذهب أبصارهم ؟

وتحتمل الآية معنى آخر هو :

لو نشاء سلبنا عنهم الهداية ، وأعمينا بصيرتهم ، فإذا حاولوا السير فى طريق الإيمان والإسلام ، فلن يتذوّقوا حلاوته ، ولن يبصروا هدايته ، وكماله وجماله .

قال ابن عباس : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟

وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عميا يترددون .

وقال ابن زيد : فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ... يعنى بالصراط هنا الحق ، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم ؟

٦٧ – وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ .

ولو نشاء لغيّرنا صُوَرهم إلى صور قبيحة ، أو حجارة أو قردة أو خنازير أو جعلناهم قعودا على أرجلهم ، مع ما لهم من مكانة ومنزلة فى الدنيا ، فإنا قادرون على سلب القوة منهم ، وجعلهم يتحجَّرون فى أماكنهم ، فلا يستطيعون مضيًا وتقدُّماً للأمام ، ولا يستطيعون رجوعا وتقهقرا للخلف ، فقد سُلبت منهم القدرة على الحركة .

ومقصود هذه الآية ، والآية السابقة عليها التهديد ، وبيان أنهم يستحقون العمى ، أو المسخ ، ولو شاء الله لفعل بهم ذلك ، لكنَّه يمهلهم ، علَّهم أن يتوبوا أو يتذكروا ، على حد قوله سبحانه : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا . (فاطر : ٤٥) .

٦٨ – وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ .

أى : ماذا ينتظر هؤلاء الكافرون الذين أعرضوا عن الهدى ، واستمروا فى هذا الضلال ، إن الله تعالى إن شاء أعماهم أو مسخهم ، وحتى إذا تركوا على حالهم فلابد أن تتقدم بهم السنّ ، حيث يردون إلى أرذل العمر ، فتضعف قواهم ، ويتحولون من النموّ والزيادة فى حالة الطفولة والشباب ، إلى النقص والذبول فى حالة الشيخوخة ، حيث يضعف السمع والبصر والجوارح .

وكان من دعاء النبى ﷺ : «اللهم إنى أعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر»[١٧] .

وفى معنى الآية قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

وقوله سبحانه : وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ... (الحج : ٥) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

والمراد من هذا – والله أعلم – الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ، ولهذا قال عز وجلّ : أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟

أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة[١٨] .

وجاء فى هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

ومن نطل عمره نردّه إلى عكس ما كان عليه من القوة ، فيصبح ضعيفًا ، وذلك لأن حياة الإنسان تأخذ ثلاث مراحل : نموّ ، ونضج ، وضمور النسيج الحشوى ، فى الكلى والكبد والغدّة الدرقية والبنكرياس ، وهذا له أثر فى إضعاف الجسم كله ، وتبدأ كذلك الشرايين فى التصلّب والضمور ، وبذلك يقلّ الدم الذاهب إلى جميع أعضاء الجسم ، فيزيده ضعفًا على ضعف ، ومن أسباب الشيخوخة زيادة قوى الهدم ، على قوى البناء فى الجسم ، Metabolism وذلك أن خلايا الجسم كلها فى تغير مستمر ، وكذلك خلايا الدم ، ما عدا خلايا المخ والنخاع ، فإنها لا تتغير مدى الحياة ، فإذا كانت نسبة تجدد الخلايا كنسبة هلاكها ، لا تظهر

الأعراض ، أما إذا زادت نسبة هلاك الخلايا ، على تجددها في أي عضو ، ظهر ضمور هذا العضو ، وعلى ذلك فكلما تقدمت السنّ تضاءلت نسبة التجدد ، وزادت نسبة الانحلال الخلوي ، وظهر الضمور العام ، وتختلف نسبة التجدد والضمور باختلاف نوع الأنسجة ، فالظاهر منها كالبشرة الكاسية للجسم ، والأغشية المبطنة للقنوات الهضمية ، وقنوات الغدد ، تضمر بنسبة أكبر ، كلما تقدمت السنّ بالإنسان ، وهذا هو السبب المباشر لأعراض الشيخوخة[١٩] .



محمد ليس شاعرًا بل رسول الله

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

وما ينبغي له : لا يليق به ولا يصلح له .

ذكـــــــر : عظة من الله وإرشاد للثقلين .

وقرآن مبين : وكتاب مقروء واضح يقرأ للاعتبار .

حـــيـــا : حيّ القلب مستنير البصيرة .

ويحق القول : ويثبت القول بالعذاب ، ويجب على الكافرين .

التفسير :

٦٩- وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ .

لا شك أن القرآن الكريم قد أدهش العرب ، ودخل عليهم من كل باب ، وحاكمهم إلى الحسّ ، ولفت أنظارهم إلى الكون وما فيه ، وذكّرهم بالأمم السابقة ، ووضع أمامهم القيامة والبعث والحشر ، والحساب والصراط والميزان والجنة والنار ، وقد أحسّ الكفار أنه كلام فوق طاقتهم ، وقال بعضهم : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر ، لكنّهم لم يؤمنوا بالقرآن ،ولم يتّبعوا الرسول ، وتعددت اتهاماتهم للرسول وللقرآن ، ومن هذه التهم : أن محمدًا شاعر يجيش صدره بالكلام فيخرجه رفيعًا عاليًا ، فنفى عنه القرآن هذه التهمة .

ومعنى الآية :

ما نزل جبريل ليعلمه الشعر ، وليس ذلك فى طبيعة محمد ، فالشعر خيالات وأوهام ، وله بحور وقوافر ، وأغراض معروفة ، وأعذبه أكذبه ، والقرآن هداية من الله ، ومواعظ معلومة ، ووحى نزل من السماء ، داعيًا إلى توحيد الله ، متحدثًا عن العقيدة الإسلامية ، وما ينبغى لله من كمال وصفات ، كالقدرة والإرادة والسمع والبصر ، وما يحتاج إليه الناس من صنوف العبادات والمعاملات ، فمحمد ﷺ ليس شاعرًا ، والقرآن ليس شعرًا ، ولا فنًا من فنون القول ، لأن القرآن كتاب الإسلام قد أحيا أمّة ، وقدم فكرة ، وأنشأ دولة ، وعلّم الناس أجمعين آدابًا وأحكامًا وهدايات ، ولو أنصف الكفار لقالوا : القرآن شىء فوق الطّاقة ، فيه ما لا نقدر عليه ، ونحن نتخرّص فى القول ، ونوجّه التهم إليه وإلى محمد ، ولو أنصفوا صادقين لقالوا : القرآن وحى من السماء .

قال تعالى : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ... (النمل : ١٤) .

وقال سبحانه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقد حدث أن النبى ﷺ قال بعض عبارات قابلة لأوزان الشعر ، مثل قوله يوم حنين : «أنا النبىّ لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»[٢٠] .

وهذا لا يجعل صاحبه شاعرًا ، لأنه كلام يرد على الخاطر من غير قصد إلى الشعر ، ولا تكلّف له ، ولا التفات منه إليه ، إن جاء موزونا ، كما يتفق فى كثير من إنشاءات الناس ، فى خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسمّيها أحد شعرًا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر .

وقد ذكر الزمخشرى فى الكشاف ، والآلوسى فى تفسيره وغيرهما الحكمة من ذلك .

فقال الزمخشرى :

وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ... أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له ، ولم يتسهل كما جعلناه أمّيًا .. لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض ... ا هـ .

موقف الإسلام من الشعر

نزل القرآن الكريم عربيًا مبينًا ، مشتملاً على صنوف البيان ، وألوان الإعجاز ، وأرقى الأساليب ، وأفصح ألوان البيان ، وكان النبى ﷺ فصيحًا بليغًا ، وقال ﷺ : «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر» .

فقد جمع الله له البيان ، والقول الحسن ، والمعرفة الكاملة بسياسة الأمم ، وحسن الدعوة ، وتألُّف القوم ، حتى كان سببًا فى جمع كلمة الإسلام ، وإحياء أمَّته .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

وقد وردت أحاديث صحيحة تذم الشعر وتنهى عنه ، كما وردت أحاديث صحيحه تمدح الشعر وتحث عليه ، وقد بين العلماء الثقات طريقة التوفيق بين هذه الأحاديث فقالوا : المنهىّ عنه من الشعر ما كان فى الهجاء وذكر العورات والفخر الممقوت والمدح الكاذب ، والمحمود من الشعر ما كان فيه تمجيدٌ للفضائل ، ودعوة إلى مكارم الأخلاق ، وآداب الإسلام ، والمحامد والمثل العليا .

وقد كان النبى ﷺ يطرب للقول الجيد ، والخطب الفصيحة ، والشعر الحسن ، فكانت الخنساء تنشد الشعر بين يديه ، وكان يستجيد شعرها ، ويقول : «هيه يا خناس» . وقال ﷺ لأحد أصحابه : «هل تحفظ شيئًا من شعر أمية بن أبى الصلت»؟ قال : نعم ، فأنشده بيتًا ، فقال ﷺ : «هيه» ، فأنشده آخر حتى أنشده مائة بيت ، وقال ﷺ عن أمية بن أبى الصلت : «أسلم شعره ، وكفر قلبه» . وقال ﷺ : «إن كاد أمية ليسلم» .

وقد استجاد النبى ﷺ شعر كعب بن زهير ، وكان ﷺ قد أهدر دمه عند فتح مكة ، مع عدد ممن كثرت جرائمهم ، وحاول كعب بن زهير أن يتشفع بأبى بكر الصديق فأبى عليه ، فجاء كعب بن زهير وأنشد بين يدى النبى قصيدة مشهورة جاء فيها ما يأتى :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ ظهرت ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ثم يقول :

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألفينك إنى عنك مشغول

فقلت خلّوا سبيلى لا أبالكمو ... فكل ما قدر الرحمان مأمول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمول

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

وهنا خلع النبى ﷺ البردة التى كان يلبسها ، وأعطاها هدية لكعب بن زهير ، كدليل على استجادته لشعره .

لقد كان ﷺ فى الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة ، وتذوق الشعر ، وكان يضع لحسان بن ثابت منبرًا فى المسجد ، ليلقى عليه الشعر ، ويقول له النبى ﷺ : «اهجهم وروح القدس معك» .

وقد صح أن النبى ﷺ أنشد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك ما لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال ﷺ : «إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى» .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن : أنه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت هكذا : «كفى بالإسلام والشيب ناهيا للمرء» .

والرواية : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا .

فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ، ما علمك الشعر وما ينبغى لك .

لقد أراد الله أن يكون النبى أميًا لتكون الحجة أتمّ ، والبرهان على المشركين أقوم ، كذلك منعه قول الشعر ، حتى لا يكون لهم حجة ، أن يدّعوا عليه أن القرآن من المفتريات التى يتقولها ، والأباطيل التى ينمّقها ، وليس بوحى من عند ربه .

وقد سبق أن تكلمنا باستفاضة فى هذا الموضوع عند تفسير قوله تعالى : وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ . (الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧) .

فمن أراد المزيد فى هذا الموضوع فليرجع إلى تفسيرى لهذه الآيات .

٧٠ – لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ .

القرآن الكريم ليس شعرا ، ومحمد ﷺ ليس شاعراً ، وما ينبغى أن يكون شاعراً ، وما الوحى إلا وعظ وهداية وتوجيه ، وقرآن واضح المنهج منير للطريق ،

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ...

ليحذِّر من كان فى قلبه حياة وتفتح ، وبعد عن الكفر والهوى ، فيستجيب لكتاب الله وينتفع به .

وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ .

وتجب كلمة العذاب على من كفر بالله ، بعد أن تقوم عليه الحجة ، وتصله الرسالة ، وآيات القرآن المبين .

قال تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

من تفسير ابن كثير

ثبت فى الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، ولكن تبعا لقول أصحابه ، رضى الله عنهم ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

إن أولاء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا[٢١]

ويرفع ﷺ صوته ، بقوله : «أبينا» ويمدّها ، وقد روى هذا بزحاف فى الصحيحين أيضا .

وكذلك ثبت فى الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : كنّا مع رسول الله ﷺ فى غار ، فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت[٢٢]

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما عُلّم شعرا وما ينبغى له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم:[٢٣] لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . (فصلت : ٤٢) .

★ ★ ★

منافع الأنعام

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات :

مما عملت أيدينا: مما صنعته قدرتنا ، وخلقناه ، ولم يخلقه غيرنا .

أنـعـامـا : جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم والمعز.

ثمانية أزواج ، من الإبل اثنين : ذكر وأنثى ، وهما الجمل والناقة ، وكذلك البقر والغنم والمعز ، خلق الله الثور والبقرة ، والخروف والنعجة ، والتيس والعنزة .

وذللناها لهم : جعلناها مذللة منقادة لهم ، فهم يركبونها ويسخرونها ويأكلون لحمها ويشربون لبنها .

تمهيد :

يستعرض القرآن أمامهم أدلة القدرة الإلهية ، فبيد القدرة وحدها خلق الله لهم الأنعام كالإبل والبقر والغنم ، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك بالبيع والشراء ، والهبة والتسمين وسائر أنواع الانتفاع .

وقد ذلل الله لهم هذه الحيوانات فهم يركبونها ويذبحونها فيأكلون لحمها ، ويشربون لبنها ، ولهم فيها طائفة من المنافع كالاستفادة بجلودها ، وأشعارها وأوبارها ، أفلا يشكرون الله تعالى على هذه النعم السامية .

التفسير :

٧١ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .

من شأن القرآن أن يفتح العيون ، ويلفت الأنظار إلى ما فى الكون من جمال وإبداع ، ومن ذلك إرشاده إلى قدرة الله وحده ، الذى خلق للإنسان أنواع الحيوانات ، بسائر أشكالها وألوانها :

فخلق من الإبل اثنين هما الجمل والناقة .

ومن البقر اثنين هما الثور والبقرة .

ومن الغنم اثنين هما الكبش والنعجة .

ومن المعز اثنين هما التيس والعنزة .

وهذا الخلق بيده سبحانه أى بقدرته وحده ، كما تقول : عملت هذا العمل بيدى وحدى .

فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . يستفيدون بهذه الأنعام ، بالبيع والشراء ، ويتصرفون فيها تصرف الملاك ، وكان من الواجب أن يقولوا : سبحان الذى سخّر لنا هذا ، وذلّله ومكننا منه ، فلله الحمد والمنة .

٧٢ - وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .

سخرنا لهم هذه الأنعام ، تطيعهم وتخدمهم ، فمنها ما يركبونه كالجمل والحمار والبغل والفرس ، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ، وما يستفيدون بثمنه أو يشربون لبنه .

ولو شاء الله لجعل هذه الحيوانات نافرة غير مطواعة ، لكنه سبحانه ذلّلها وسخّرها للصغير والكبير ، كما قال قائل :

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرّفه الصبيّ بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير[٢٤]
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غيرٌ لديه ولا نكير[٢٥]

٧٣ – وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

يعدد الله سبحانه وتعالى بعض نعمه فى خلق الأنعام ، فيذكر أن للناس فى هذه الأنعام منافع متعددة أخرى ، مثل الاستفادة بجلودها وعظامها وتسخيرها فى حرث الأرض ، وسقي الزرع ، وهم يشربون ألبانها ويستفيدون بنتاجها ، وينتفعون بأثمانها .

أَفَلَا يَشْكُرُونَ . هلا شكروا الله الخالق القادر، الذى ذلل لهم هذه الأنعام وسخرها لهم ، ويسر لهم منافعها والاستفادة بركوبها ، والانتفاع بأشعارها وأوبارها، وجلودها فى صناعة الخيام والأحذية والحقائب ، ثم الاستفادة بشرب الألبان ، ونتاج الحيوان والتجارة فى الحيوان وفى منتجاته ، أفلا يشكر الإنسان ربَّه على هذه النعم ، وكان ﷺ إذا ركب الدابة يقول : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ . (الزخرف : ١٣) .

أى أن الله سخر لنا هذا الحيوان الضخم القوىّ ، وذلّله لخدمتنا ، وما كنّا له مطيقين لو كان غير مذلل .

قال تعالى : وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ . (الزخرف ١٢ – ١٤) .

وقال عز شأنه : وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (النحل : ٥ – ٨) .

★ ★ ★

وجود الله ووحدانيته

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

من دون الله : من غير الله .

جند محضرون : جند معدون لحفظهم ، أو محضرون في النار .

التفسير :

٧٤ - وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ .

ومع هذه النعم التى أنعم الله بها عليكم ، ومن بينها الأنعام التي كانوا يرونها في الجزيرة العربية ، ويستفيدون بها فى تنقلاتهم ورحلاتهم ، وأكلهم وشربهم ومنافعهم ، مع هذه النعم المتعددة ، فإن هؤلاء المشركين لم يعبدوا الله وحده ، وعبدوا من دون الله أصناماً ، يرجون أن تنصرهم فى الدنيا ، وأن تشفع لهم يوم القيامة .

٧٥ - لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ .

لا تستطيع هذه الأصنام أن تقدم لهم معونة فى الدنيا ، ولا شفاعة فى الآخرة ، لأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، بدليل أن هؤلاء المشركين قد جندوا أنفسهم لحفظ هذه الأصنام ، وخدمتها ونظافتها والدفاع عنها .

ويجوز أن يعود الضمير على الأصنام ، أى : وهذه الأصنام ستكون جنودا حاضرة يوم القيامة فى النار ، حيث ستكون حصب جهنم ، ووقودها حين تحمى هذه الأصنام فى النار ليعذب بها المشركون .

أو محضرون عند حساب الكفار ، لإظهار عجز الأصنام ، اقناط المشركين من شفاعتهم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله سبحانه : إِنَّكُمْ وما تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨ ، ٩٩) .

٧٦ - فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .

فلا تحزن يا محمد مما يقولون فيك ، ومن اتهامهم لك بالسحر والكهانة والشعر ، ومن اتهامهم للقرآن بأنه شعر أو أساطير الأولين أو غير ذلك ، فما حملهم على ذلك إلا الحسد ، ونحن نعرف دخائلهم وخباياهم ، وسرّهم وعلنهم ، وسنحاسبهم على ذلك وسنجازيهم عليه ، فطب نفساً ، ولاتأس ولا تحزن عليهم ، لأن جزاءهم وعقابهم سيكون على يد السميع العليم ، الخبير بكل صغيرة وكبيرة من عملهم ، البصير بالسر وما هو أخفى من السرّ ، وبالعلانية والجهر .

* * *

ختام سورة يسٓ وإثبات البعث

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات :

أو لم يــــــر : أو لم يعلم .

مــن نــطــفــة : من مني يصب في الرّحم .

خصيــم مبين : شديد الخصومة واضحها .

وضرب لنا مثلا : أورد في شأننا قصة عجيبة هي في غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة .

الــرمــيــم : البالي أشد البلى كالرمّة والرفات .

بـــلـــى : كلمة جواب كنعم ، تأتي بعد كلام منفي ، لتحويل النفي إلى إثبات .

أمــــــره : شأنه في الإيجاد .

ملكوت : مبالغة فى الملك ، كالرحموت فى الرحمة ، والرهبوت فى الرهبة ، ومعناه الملك التام .

تمهيد :

تختم سورة يسٓ بهذه الآيات التى تدل على عظمة الخالق وجليل قدرته ، فهو قد خلق الإنسان من منى يمنى ، وجعله سميعا بصيرا ، لكن هذا الإنسان تحول إلى مجادل واضح الخصومة ، حيث يأخذ العظام البالية فيفتتها ، ويستدل بذلك على عدم إمكان البعث ، وقد رد عليه القرآن بأن الذى خلق الإنسان أول مرة، قادر على إعادته عند البعث ، إذ كل من أوجد عملا تكون إعادته أهون عليه ، ثم ذكر بعض أمثلة القدرة ومنها استخلاص النار من الشجر الأخضر ، وخلق السماوات والأرض ، ومن قدر على خلق الأكبر يكون قادرا على خلق الأهون .

وفى الختام يبين القرآن أن جميع ما فى الكون يطيع الله إطاعة المأمور للآمر ، بلا توقف ولا افتقار إلى مزاولة عمل ، ولا استعمال آلة .

التفسير :

٧٧- أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ .

من نطفة مذرة ، ومن منى يمنى ، ومن ماء مهين ، يصبُّ فى رحم المرأة ، ويتم الإخصاب ، ويتحول الجنين من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، ثم يكسو الله العظام لحما ، ثم يُنشئه خلقا آخر بديعا ، فيه الحواس والعقل والسمع والبصر والإدراك .

وكان الأولى به أن يكون عارفا بقدره ، مؤمنا بقدرة ربّه ، لكنه حاول أن يجادل ، وأن يثبت استبعاد البعث والحشر ، لأن الميت يتحول إلى عظام بالية ، بعيدة عن الحياة فى رأيه ، وما علم أن الذى خلقه أوّل مرة ، قادر على أن يبعثه حيا مرة أخرى .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

٧٨- وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أن أبىّ بن خلف (الذى قتله النبى ﷺ فى غزوة أحد) جاء هذا الرجل فى مكة إلى النبى ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذرّيه فى الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال ﷺ : «نعم ، يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار» ، ونزلت هذه الآية إلى آخر السورة .

ومعنى الآيــة :

إن الإنسان الكافر المسمى أبّي بن خلف [٢٦] قد استبعد البعث ، ونسي أن الله خلقه من مني يمنى وأنّه قادر على بعثه وحسابه ، فعمد إلى عظم رميم ففتته وذرّاه في الريح ، وقال يا محمد : أتزعم أن ربك يبعث هذا بعدما رمّ وبلي وصار ترابا ؟ ، فقال النبي ﷺ : «نعم ، ويبعثك ويدخلك النار» ، والمثل يطلق على القصة العجيبة الغريبة ، والموضوع أشبه بالقصة ، أو الأمر العجيب بالنسبة للكفار ، حيث اعتقدوا أن الموت يترتب عليه وهن العظام ، واستبعاد الحياة ، فكان البعث أشبه بالشيء العجيب بالنسبة لهم .

انظر إلى قوله تعالى : وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ... (السجدة : ١٠) .

وقوله أيضا على طريق الحكاية : أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ .
(الواقعة : ٤٧ ، ٤٨)

وقد ناقش القرآن الكريم هذا الموضوع ، وقدم أدلة متعددة على إمكان البعث والحشر والحساب والجزاء ، وبيّن أنّه بدون ذلك يصبح الخلق عبثًا ، فالدُّنيا ليست دار جزاء ، فقد ينجح الفاجر والمرتشي والوصولي ، وقد يستشهد الشخص الفاضل الفدائي ، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، فلابدّ من دار جزاء عادل ، هي الدار الآخرة .

قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ . (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٥٩) .

وإجمال معنى الآيـة :

إن بعض المشركين استبعد إعادة الحياة للأجساد وللعظام الرميم ، ونسوا أنفسهم ، وأنه تعالى خلقهم من العدم ، فكيف هم بعد هذا يستبعدون أو يجحدون .

٧٩- قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

قل أيها الرسول لهذا السائل القائل : مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قل له : يحييها الله الذى خلقها أول مرة ، ولم تكن شيئا ، وهو العليم بالعظام وأين تفرقت فى سائر أقطار الأرض ، وأين ذهبت ؟ لا يخفى عليه شىء من أمر خلقه ، وهو القدير على جمع هذا الرفات وبعث الحياة فيه.

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وكان الفارابى الفيلسوف المسلم يقول : وددت لو أنّ أرسطو وقف على القياس الجلى فى قوله تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... «وهو الله تعالى ، أنشأ العظام وأحياها أوّل مرة ، وكل من أنشأ شيئا أوّلا قادر على إنشائه وإحيائه ثانيًا ؛ فيلزم أن الله عز وجل قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانيا» . اهـ .

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

وهو بكل مخلوق واسع العلم ، ولهذا يعلم من كل إنسان صفاته التى كان عليها في الدنيا ، وتفاصيل أجزائه وأوضاعها ؛ فيعيد كل ذلك على النمط الذى كان عليه .

قال تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . (الأعراف : ٢٩) .

٨٠- ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ .

الله سبحانه وتعالى أنبت لنا النبات والأشجار حيث نستفيد من أخشابها وأعوادها بالوقود والدفء وسائر المنافع ، وكثير من المفسرين يرون أن المراد بالشجر الأخضر نوعان : أحدهما : المرخُ ، والثانى : العَفار ، بفتح العين ، نقطع منهما عصوين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ – وهو ذكر – على العفار – وهو أنثى – فتقدح النار بإذن الله [٣٧] .

وفى المثل : فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثروا من النار ، كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما ، وأجاز بعضهم – جمعا بين الرأيين – أن يكون المعنى : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا بالفِعْل ، بقدح المرخ بالعفار ، فإذا أنتم من الشجر الأخضر المذكور توقدون النار فى سواه .

وقد حدثنى من أثق به أنه شاهد العودين الأخضرين هذين يقطران الماء والخضرة ، وعند سحق أحدهما بالآخر تتقد النار ، وهما وسيلة المحتاج إلى النار.

والقرآن بهذا يلفت النظر إلى بدائع القدرة الإلهية ، فمن يَسّر للإنسان استخراج النار من الشجر الأخضر وهما ضدان ، قادر على بعث الحياة فى الموتى ، فهو على كل شىء قدير.

٨١- أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ .

تتوج هذه الآية آثار القدرة الإلهية الظاهرة للعيان ، فهو سبحانه الذى خلق الإنسان أوّل مرة ، وهو سبحانه الذى جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا ، وهو الذى خلق السماوات وما فيها ، والأرض وما عليها، أليس خالق هذا الكون العظيم بقادر على أن يعيد خلق الناس أجمعين ؟ وقد أجاب الحق سبحانه وتعالى بقوله : بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ .

أى : بلى هو قادر على خلق الناس وبعثهم مرة أخرى وهو الخلاق ، كثير الخلق والإبداع ، العليم بحال عباده فلا يندّ عن علمه شىء ، وقد استدل سبحانه وتعالى بخلق الأكبر والأعظم وهو الكون ، على قدرته على خلق الأهون وهو الناس ، أى بعثهم وإعادة الحياة فيهم .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ... (غافر : ٥٧) .

ويقول تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الأحقاف : ٣٣) .

إن قدرته تعالى لا حدود لها فهو الخلاّق ذو القوة المتين ، وهو سبحانه فعّال لما يريد .

٨٢- إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ .

وهذا أثر من آثار قدرته ، فهو سبحانه الخالق المبدع ، الذى أبدع نظام الكون على غير مثال سابق ، وهو خالق الإنسان حيث استخلفه فى الأرض، وهو رافع السماء، وباسط الأرض، ومسخر السحاب، ومسيّر الشمس والقمر، وهو فعال لما يريد .

ومعنى الآية :

إنما شأنه تعالى إذا أراد فعل شىء ، أن يتجه إلى إيجاده فيقول له : تكوّن ؛ فيتكوّن، ويحدث فورًا بلا تأخير ، وهذا ولا شك تمثيل لتأثير قدرته فيما يريد ، بأمر المطاع لمن يطيعه فى حصول المأمور به بلا توقف ، ولا افتقار إلى مزاولة عمل ، ولا استعمال آلة .

قال الشاعر :

إذا مـا أراد الـلـه أمـرًا فـإنما	يـقـول لـه (كـن) قـولـة فـيـكـون

أي : هو سبحانه نافذ القدرة ، فعال لما يريد ، لا يعجزه فعل شيء في هذا الكون ، فهو قادر على إعادة خلق الناس ، وهو على كل شيء قدير .

٨٣- فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

بهذا الختام القويّ الرهيب تختم سورة يسٓ .

أي : فتنزه الله عن النقائص ، وتنزه عن العجز ، ووجب له كل كمال ، كما وجب تنزهه عن كل نقص، وبيده ملك كل شيء ، وبيده مقاليد السماوات والأرض ، وكل شيء في هذا الوجود في قبضته وملكه ، وخاضع لمشيئته ، فلا يعجز عن شيء ، وهو القدير على كل شيء ، وإليه ترجع الخلائق أجمعون ، فيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون .

قال تعالى : تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الملك : ١) .

وقال سبحانه وتعالى : قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ... (المؤمنون : ٨٨) .

ويترنم بعض الدّعاة بهذا النظم :

والـكـون مشحـون بـأسـرار إذا	حـاولت تـفـسيرا لـهـا أعـيـاكـا
قل للطبيب تخطفته يد الردى	يـا شـافـي الأمـراض مـن أرداكـا
قل للمريض نجا وعوفي بعد ما	عـجـزت فـنـون الـطب مـن عـافـاكا
قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها	مـن ذا الـذي أرداكـا
بل سائل الأعمى يمرّ في وسط الزحام بلا	اصـطـدام مـن ذا يـقـوده خـطـاكـا
قل للجنين يعيش معزولا بلا راع ولا	مـرعـى مـن ذا الـذي يـرعـاكـا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شـهـدًا وقـل لـلـشـهـد مـن حـلاكـا
الـلـه فـي كـل الحقـائـق مـاثـل	إن لم تـكـن لتراه فـهـو يـراكـا

والحمد لله رب العالمين ، اللهم لك الحمد ، حمدًا كثيرا طيبا طاهرا مباركا فيه ، كما ترضى ربنا وتحب، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، ولك الفضل ، ولك الثناء الحسن الجميل ، سبحانك لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، سبحانك أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء .

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ٣) .

★ ★ ★

أهم مقاصد سورة يسٓ

١ – بيان أن محمدًا ﷺ رسول من عند الله حقا ، وأنه نذير للأميين وغيرهم .

٢ – حقّت كلمة العذاب على أكثر المنذَرين ، فلم يستجيبوا للنبى ﷺ .

٣ – عاند أهل مكة وكذبوا النبى ﷺ ، كأنما عميت عيونهم عن رؤية نور الحق ، وانسدَّ في وجههم طريق الهداية .

٤ – ضرب المثل بقصة أهل أنطاكية الذين كذّبوا الرُّسل ، ونصحهم ناصح باتباع الرسل فقتلوه ؛ فأدخله الله الجنة .

٥ – عاقب الله المكذبين بالصيحة الواحدة فانتهت حياتهم .

٦ – دلائل القدرة الإلهية فى إحياء الأرض بعد موتها ، وخلق الأزواج كلها من النبات والحيوان والإنسان ، وأشياء أخرى لا نعلمها .

٧ – سير الشمس والقمر بحسبان ونظام بديع لا يتخلف .

٨ – إثبات البعث بما أقامه تعالى من أدلة فى الأنفس وفى الآفاق .

* * *

تم تفسير سورة يسٓ بحمد الله تعالى

ظهر الاثنين ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٩٩م

بنادى ضباط الشرطة بحى الجميل فى بورسعيد جمهورية مصر العربية

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين



تفسير سورة الصافات

أهــداف ســورة الصـافات

سورة الصافات مكية ، وآياتها (١٨٢) آية ، نزلت بعد سورة الأنعام فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، فقد نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة إلى المدينة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم بالصافات ، والمراد بها : الملائكة التي تقف صفوفا للعبادة ، أو تصف أجنحتها فى الهواء امتثالا للطاعة ، وانتظارا لوصول أمر الله إليها .

مقصــود الســورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود السورة هو : الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة ، ودلائل الوحدانية، ورجم الشياطين ، وذل الظالمين ، وعز المطيعين فى الجنان ، وقهر المجرمين فى النيران ، ومعجزة نوح ، وحديث إبراهيم ، وفداء إسماعيل فى جزاء الانقياد ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب ، وحكاية الناس فى حال الدعوة ، وهلاك قوم لوط ، وحبس يونس فى بطن الحوت ، وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة [٢٨] ودرجات الملائكة فى مقام العبادة ، وما منح الله الأنبياء من النصر والتأييد، وتنزيه حضرة الجلال عن الأنداد والأضداد فى قوله سبحانه : سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . (الصافات : ١٨٠) .

سيـاق الســورة

تميزت سورة الصافات بقصر الآيات ، وسرعة الإيقاع ، وكثرة المشاهد والمواقف ، وتنوع الصور والمؤثرات .

وهى تستهدف – كسائر السور المكية – بناء العقيدة فى النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صوره وأشكاله ، ولكنها بصفة خاصة تعالج صورة معينة من صور الشرك ، التى كانت سائدة فى البيئة العربية الأولى ، وتقف أمام هذه الصورة طويلا ، وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . تلك هى الصورة التى كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهى تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن ، وتستطرد فى تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله – سبحانه – والجنة ولدت الملائكة ، ثم تزعم أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية فى هذه السورة ، تكشف عن تفاهتها وسخفها ، ونظرا لأنها هى الموضوع البارز الذى تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة : وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا .

ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ، كيلا يقربوا من الملأ الأعلى، ولا يتسمعوا لما يدور فيه ، ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة .

وبمناسبة ضلال الكافرين وتكذيبهم ، تعرض السورة سلسلة من قصص الرسل: نوح ، وإبراهيم وابنه، وموسى وهارون ، وإلياس، ولوط، ويونس ، تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله ، وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل ، ويمكننا أن نقسم سورة الصافات إلى ثلاثة موضوعات رئيسية :

١ – وصف الملائكة ومشاهد الآخرة :

يستغرق الموضوع الأول من السورة الآيات من (١–٧٠) ويتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة : وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا . على وحدانية الله رب المشارق، مزين السماء بالكواكب ، ثم تجيء مسألة الشياطين ، وتسمعهم للملأ الأعلى ، ورجمهم بالشهب الثاقبة ، يتلوها سؤال لهم : أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ... من الملائكة والكواكب والشياطين والشهب ؟ ، للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه ، ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب ، وهو مشهد فريد ، حافل بالصورة والحركة ، والمقابلة بينه وبين منازل الأبرار وآلام الفجار .

٢ – قصص الأنبياء :

تتعرض الآيات من (٧١–١٤٨) لبيان أن هؤلاء الضالين لهم نظائر فى السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين ، ويستطرد فى قصص أولئك المنذَرين ، من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ، وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين .

ومن الظواهر المؤثرة فى هذا القصص تجرد الأنبياء لربهم ، وإخلاصهم له ، فيونس يسبح بحمد ربه ويناجيه فى بطن الحوت ، وإبراهيم يطيع الله ويستسلم لأمره فى قصة الذبح والفداء ، ونشاهد من الذابح والذبيح التجرد والامتثال لأمر الله ، فى أعمق صورة وأروعها وأرفعها .

وقد كانت الإشارة إلى قصص الأنبياء لمحات سريعة فى آيات قصيرة ، تحتوى على عبرة القصة، والتذكير بمضمونها .

٣ – أسطورة تعقبها الحقيقة :

تناولت الآيات من (١٤٩ – ١٨٢) حيث آخر السورة ، الحديث عن الأسطورة الكاذبة ، أسطورة نسبة الجن والملائكة إلى الله ، ثم فندت هذه الأسطورة ، ونزهت الله عنها ، وبينت أن الملائكة خلق من خلق الله ملتزم بطاعته . وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ . (الصافات : ١٦٤ – ١٦٦).

وقررت الآيات وعد الله لرسله بالظفر والغلبة . وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . (الصافات : ١٧١ – ١٧٣) .

وتنتهي السورة بتنزيه الله سبحانه ، والتسليم على رسله ، والاعتراف بربوبيته ، وهي القضايا التي تناولتها السورة في الصميم .

سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (الصافات : ١٨٠–١٨٢).

★ ★ ★

إعلان وحدانية الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ ﴾

المفردات :

الصافات : جماعة من الملائكة يقفون صفوفا ، لكل واحد منهم مرتبة معينة في الشرف والفضيلة .

الزاجرات : وصف ثان للملائكة المقسم بهم ، مأخوذ من الزجر وهو المنع ، أو الحث أو السَّوْق ، فالملائكة لهم زجر وتأثير في قلوب بني آدم ، من ناحية زجرهم عن المعاصي ، وإلهامهم الخير.

التاليات ذكرا : الملائكة يجيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، أو يتلون ذكر الله .

المشارق : مشارق الشمس على امتداد خط المشرق .

التفسير :

١، ٢، ٣، ٤- وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ :

أقسم الله تعالى ببعض خلقه تنبيها لأهميته ، ولفتا للأنظار إلى عظمة هذا المخلوق ، كما أقسم سبحانه ببعض مظاهر الكون ، مثل الضحى والرياح ، والشمس والقمر والشفق ، والليل والنهار ، وكلها تلفت أنظارنا إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، والقسم بالملائكة يلفت أنظارنا إلى هذا الخلق العظيم ، العابد الساجد المسبح المصطفى للعبادة ، المكلف بإنزال الوحي من السماء ليتلوه البشر ، أو قيام الملائكة بتلاوة آيات الله وذكره وطاعته ، وقد أخبر القرآن أن الملائكة صفوف منتظمة ، وأنهم عابدون لله حق العبادة .

قال تعالى : وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا . (الفجر : ٢٢) .

وقال سبحانه : فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ . (فصلت : ٣٨).

وقد ذكر المفسرون عدة آراء فى المراد بهذه الصفات ، فقيل : أقسم الله بنفوس العلماء المصطفين للعبادة ، الزاجرين الناس عن المعاصى ، التالين لكتاب الله وسنة نبيه ، ذكرًا لله وعبادة له .

وقيل : أقسم الله بنفوس الغزاة الصافين فى الجهاد ، الزاجرين للخيل أو العدوّ ، التالين لذكر الله لا يشغلهم العدوّ عنه .

والرأى الراجح عند المفسرين أن المراد بهذا القسم : طوائف الملائكة ، فهم يصفون أنفسهم فى طاعة الله ، كما يصف المسلمون أنفسهم فى الصلاة ، وفى السنّة الصحيحة أن الله ميز هذه الأمة وميّز رسولها ، بصف المسلمين أنفسهم فى الصلاة كما تصف الملائكة ، والملائكة لها إلهام ومعونة للمؤمنين تزجرهم عن المعاصى ، وتحثهم على الطاعات ، والملائكة تبلغ وحى الله إلى الأرض ، وتذكر الله تعالى .

قال تعالى : ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ . (الحج : ٧٥) .

وقال سبحانه : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ . (الشورى : ٥١) .

وقد أرسل الله جبريل بوحى السماء ، وجعله أمينا عليه .

قال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وقال سبحانه : وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ . (النجم : ١–٧) .

أى أن الله تعالى أقسم بصنوف الملائكة على وحدانيته ، وأنه سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وجواب القسم هو:

إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ .

أى : ليس صنما ولا وثنا ولا أى شىء من الآلهة المدّعاة ، بل هو سبحانه إله واحد منزه عن الشريك والمثيل ، ليس له شريك ولا ندٌّ ولا نظير.

قال تعالى : لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء : ٢٢) .

وهذه مقدمة جوابها : لكن السماء والأرض لم تفسدا ، والنتيجة : ليس فى الكون آلهة إلا الله سبحانه وتعالى.

٥- رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ .

من صفة الله أنه رب الكون وخالقه وموجده من العدم ، وهو الذى يحفظه ويمسك بزمامه .

ومعنى الآية : الله الواحد هو رب السماوات وما فيها، ورب الأرض وما عليها ، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وقفار وزراعات ، وسائر ما خلق فى الأرض ، وهو سبحانه رب الفضاء والهواء والعوالم العظيمة التى بين السماء والأرض .

قال تعالى : لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ . (طه : ٦) .

وهو سبحانه وتعالى : رَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ .

أى : مشارق الشمس ومغاربها ، فلها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها فى كل يوم مغرب معين تغرب منه ، واكتفى هنا بذكر المشارق عن المغارب ، لأن أحدهما يغنى عن الآخر ولأن الشروق سابق على الغروب .

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبّر عن الشروق والغروب أحيانا بالمفرد مثل قوله تعالى : رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا . (المزمل : ٩) .

وأحيانًا بلفظ المثنى مثل : رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ . (الرحمٰن : ١٧) .

وأحيانًا بلفظ الجمع مثل : وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ .

فالمفرد المراد به : الجهة ، جهة الشرق وجهة الغرب ، والمثنى المراد منهما : مشرق الشتاء ومشرق الصيف، أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما ، والمشارق المراد منها : مشارق النجوم والكواكب والشمس ، بل والشموس فى أيام السنة ، وهى مشارق متعددة بعدد أيام السنة .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

قوله : وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ.

أى : ولكل نجم مشرق، ولكل كوكب مشرق، فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة.. وللتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش عليها كذلك ، فالأرض فى دورتها

أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة ، كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية. وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ، أخبرهم الله تعالى بها فى ذلك الزمان القديم . ا هـ .

* * *

فوائد النجوم فى السماء

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

الدنيا : مؤنث الأدنى ، أى : أقرب السماوات من أهل الأرض .

مارد : المارد والمريد ، خارج على الطاعة ، من قولهم : شجر أمرد ، إذا تعرى من الورق .

يسمعون : يتسمعون .

الملأ : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا : الملائكة .

يقذفون : يرجمون .

الدحور : الطرد والإبعاد .

واصب : دائم شديد .

الخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرّة .

شهابا : هو ما يرى مضيئا مارقا بسرعة فى الجو ، كأنه كوكب ساقط .

ثاقب : مضىء .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن بعض جوانب القدرة الإلهية فى حفظ السماء ، فقد خلقها الله وأبدع خلقها ، حيث جعلها سقفا مرفوعًا ، محفوظًا فى غاية الإبداع ، وهى آية من آيات الله ، حيث استمرت ملايين السنين بدون أن يصيبها خلل أو اضطراب ، وقد زيَّنها الله بالنجوم ، وجعل النجوم فى السماء الدنيا ، أى : القربى من أهل الأرض ، لأهداف ثلاثة :

١ – زينة للسماء كما تزين البيوت بالثريا .

٢ – هداية للسائرين فى البر والصحراء والبحر .

٣ – حفظا ومنعا للشياطين من استراق السمع ، وتلصص الجنّ على أخبار السماء ، فمن اختلس أخبار السماء أصابه شهاب ثاقب ، يرمى به ليخبله أو يقتله ، كل ذلك بين دعائم الحفظ والنظام والإبداع من الله تعالى فى ذلك الكون البديع .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ . (الأنبياء : ٣٢) .

وقال عز شأنه : ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . (الملك : ٣) .

التفسير :

٦ – إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ .

لقد خلق الله السماء ثم زينها بالنجوم ، ومعنى الآية : إنا زينّا السماء القريبى من أهل الأرض بالنجوم والكواكب المتنوعة فى أشكالها وأحجامها ونظامها .

وقد قرأ جمهور القرّاء بإضافة زينة إلى الكواكب ، أى بلا تنوين فى لفظ زينة ، وقرأ حفص عن نافع بتنوين لفظ زينة ، وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه [٢٩] .

ومنظر السماء فى الليالى المظلمة بديع أخّاذ ، خصوصًا لراكب البحار الواسعة ، أو الفيافى المقفرة حيث تتراءى له الكواكب ، وكل نجم يوصوص ، ويبعث ضوءه فى ظلام الليل ، كدليل ملموس على إبداع القدرة الإلهية .

٧ – وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ .

أى : جعل الله النجوم زينة للسماء ، وهداية للسائرين فى البر والبحر ، ولها وظيفة ثالثة ، وهى : حفظ غيب السماء وحديث الملائكة من تلصص الجن عليه .

وفى السنة الصحيحة ، أن الجنّ كانوا إذا أرادوا معرفة غيب السماء ، أو مستقبل بعض الناس فى الأرض ، كانوا يرصّون بعضهم فوق بعض ، فيضع جنّى قدميه فوق أكتاف جنى آخر ، ويضع الجنى الثالث قدميه فوق أكتاف الجنى الثانى وهكذا ، حتى يستطيع الجنى الأخير سماع أصوات الملائكة ، والتقاط حديث الملائكة عن أمور الخلائق فى هذه الدنيا ، ثم ينزل الجنى الأخير فيخبر الكهّان بأخبار السماء ، ثم يكذبُ

الكاهن مع هذا الخبر الصادق مائة كذبة ، فإذا لامه الناس على كذبه ، قال : ألم أخبركم بخبر صادق يوم كذا وكذا ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شُدّت الحراسة على السماء ، فمن حاول استماع أخبار السماء أو التقاط أخبارها ؛ أصابه شهاب ثاقب ، أى : نجم مضىء يصيب الجنىّ الذى استرق السمع ، فيقتله أو يخبله، فلما شاهد ذلك رئيسُ الجنّ قال لأتباعه : انطلقوا فى الأرض فانظروا ماذا حدث فيها حتى نعرف السبب فى تشديد الحراسة على السماء ، والرمى بالشهب لمن أراد استراق السمع . فانطلق آلاف الجن إلى مكة ، فاستمعوا إلى النبى ﷺ وهو قائم فى صلاة الفجر ، فآمنوا به ، وقد نزلت الآيات الأولى من سورة الجنّ فى هذا المعنى.

حيث يقول سبحانه وتعالى : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا . (الجن : ١ ، ٢) .

ويقول سبحانه وتعالى على لسان الجن : وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۞ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۞ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۞ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا . (الجن : ٨-١١) .

وتفيد الآيات أن الجن طوائف وفرق كثيرة ، منهم الصالح المطيع ، ومنهم العاصى المتمرد ، ومنهم الذكى ومنهم الغبىّ ، وقد تحدث القرآن عن الجنّ ، كما تحدثت السنة الصحيحة عن الجن ، ومن ذلك أن الله تعالى سخر الجن لسليمان تبنى له ما يشاء من محاريب وتماثيل وقصاع كبيرة ، وقدور كبيرة راسية فى أماكنها ، واستمرت الجن فى خدمة سليمان ، حتى بعد موته لحكمة أرادها الله ؛ حتى يتيقن الجميع أنهم لا يعلمون الغيب .

قال تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ. (سبأ : ١٤) .

والجنّ يستغلون السذّج والبسطاء من الناس ، ويستغفلونهم ويزيدونهم رهقا ، ولا سلطان للشياطين على المؤمنين الأقوياء ، الذين يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم .

ومن وسائل الحفظ من الجن ما يأتى :

١ – قراءة آية «الكرسى» .

٢ – قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة «البقرة» .

٣ – قراءة «قل هو الله أحد» و«المعوذتين» .

٤ – اليقين الجازم بأن الله تعالى هو النافع الضار، وأن أحدًا لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله وحده .

قال تعالى : وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... (البقرة : ١٠٢) .

والمؤمن المتحصِّن بطاعة الله وذكره، وقراءة أدعية من القرآن الكريم والسنّة المطهرة فى حرز حصين، والذى يجرى وراء الدجالين والمشعوذين، يتعرض للاضطراب والإحباط والاستغلال؛ لأن الجن نفسها تشمت فى الإنسان الذى يتحصن بها ويلجأ إليها، فتزيده خبالا .

قال تعالى : وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . (الجن : ٦) .

ومن أدعية القرآن الكريم :

١ – حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . (آل عمران : ١٧٣) .

٢ – وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ . (غافر : ٤٤) .

٣ – فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . (يوسف : ٦٤) .

ومن أدعية السنة المطهرة :

١ – «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» [٣٠] .

٢ – «أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» [٣١] .

٣ – «أعيذك بكلمات الله التامات المباركات، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما ينزل فى الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمان» [٣٢] .

وفى السنة الصحيحة أن النبى ﷺ كان يقرأ «قل هو الله أحد» والمعوذتين ٣ مرات كل ليلة، ويتفل فى يديه، ويمسح بهما وجهه وما أقبل من صدره، ويفعل مثل ذلك صباح كل يوم .

ومن السنة أن يقول صباح كل يوم : «اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه» [٣٣] .

وخلاصة معنى الآية الكريمة :

وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ . وحفظنا السماء حفظًا بتلك الكواكب، من كل عفريت من الجنّ شرير متمرد خارج على الطاعة، حيث تنزل منها الشهب، فتحرق من يحاول استراق السمع .

٨ - لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ .

ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ . أى : الملائكة أو رؤسائهم .

أى : لا تستطيع المردة من الشياطين استراق السمع من الملأ الأعلى من الملائكة ، وإذا حاولوا ذلك تقذفتهم الشهب التى تحرقهم أو تخبلهم .

٩ - دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

دُحُورًا . مفعول لأجله ، بمعنى : الطرد والإبعاد ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى قبلها ، أى : أنهم يقذفون بالشهب للطرد والإبعاد من الاستماع إلى الملائكة وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم ، من شئون الخلائق ، ولهؤلاء المردة عذاب شديد دائم فى الآخرة ، غير عذاب الإحراق بالشهب فى الدنيا .

١٠ - إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ .

خَطِفَ : أخذ الشىء بسرعة وخفية واختلاس ، وغفلة من المأخوذ منه ، أى : لا تستطيع المردة من الشياطين أن تستمع إلى حديث الملأ الأعلى من الملائكة ، إلا من اختلس منهم كلام الملائكة بسرعة وخفة، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر ، فتصيبه شعلة من النار تحرقه أو تخبله .

شِهَابٌ : واحد الشهب ، وهى أحجار صغيرة منفصلة عن الكواكب ، سابحة فى فضاء الله تعالى ، فإذا وصلت فى دورانها إلى جاذبية الأرض ، جذبتها فمرت بسرعة متجهة نحوها ، فمن سرعتها تحترق بقوة احتكاكها المتتابع السريع بالهواء ، ويكون لاحتراقها لمعان مستطيل .

ثَاقِبٌ : أى : ساطع ، وهذه الشهب تُقْذَفُ بأمر الله العلى الحكيم ، لتحرق هؤلاء المردة من الشياطين ، فسبحان من جلت حكمته ، وأحاط بكل شىء علما .

* * *

إثبات البعث والقيامة

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

فاستفتهم : فاستخبر أهل مكة ، من قولهم : استفتى فلانا ، إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه .

أشد خلقا : أصعب خلقا ، وأشق إيجادًا .

طين لازب : طين ملتصق بعضه ببعض .

يسخرون : يستهزئون .

وإذا ذكروا لا يذكرون : وإذا وُعظوا لا يتعظون .

آية : معجزة .

يستسخرون : يبالغون في السخرية والاستهزاء .

داخرون : صاغرون .

زجرة : صيحة .

ينظرون : يبصرون أو ينتظرون .

يا ويلنا : يا هلاكنا .

يوم الدين : يوم الجزاء ، تقول : دِنْتُه ، أي : جازيته .

الفصل : القضاء بعد البعث .

تمهيد :

لوّن القرآن الكريم أسلوب الخطاب ، فتحدث عن خلق السماء ، وعن النجوم ، وهى فى السماء لأغراض ثلاثة : فهى زينة للسماء ، وهداية للناظرين ، ولحفظ الغيب من المتلصصين من الجن ، ومن خطف شيئا من أمر الغيب سلطت عليه الشهب لتحرقه أو تخبله .

هذا الكون العظيم : السماء وما فيها ، والملائكة وطوائفهم ، والجنّ والسيطرة على المتمردين منهم ، وغير ذلك من أنحاء الكون والفضاء والهواء وما تحت الثرى ، أهو أعظم أم خلقهم أعظم ؟

والجواب : إن خلق الكون أعظم من خلقهم ، فقد خلقهم الله من طين رخو ملتصق بعضه ببعض ، بل إن أمرهم ليدعو إلى العجب ، ومع هذا فهم يسخرون من الرسول الأمين ، وإذا وعظهم لا يتعظون ، وإذا قرأ عليهم الآيات أو بيَّن لهم المعجزات تداعوا للسخرية والاستهزاء من الرسول الأمين، واتهموه بالسحر الواضح، وأنكروا البعث والجزاء ، سواء لهم أو لآبائهم القدامى .

التفسير :

١١ - فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ .

أى : اسألهم يا محمد سؤال مستفهم منهم : هل خَلْقُهم أصعب أم من خلقنا من السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؟ لقد خلقنا السماوات وما فيها ، والملائكة والجن والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس ، فهل خلق الناس أصعب ، أم خلق الكون وما فيه ؟ إن الإنسان قد خلق من طين رخو، ملتصق بعضه ببعض ، ثم نفخ الله فيه الروح فصار إنسانًا سويا .

وقد قال تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر : ٥٧).

إن هذه الآية : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ... قد اشتملت على دليلين على البعث .

الأول : أن الله تعالى خلق الكون ، وخَلْقُ الكون أكبر من خلق الناس ، ومن قدر على الأكبر كان أقدر على خلق الأصغر .

الثانى : أن الله بدأ خلقهم من طين لازب ، والإعادة أهون من البدء ، فمن خلقهم أولا قادر على إعادة خلقهم عند البعث مرة أخرى .

١٢ - بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ .

والخطاب هنا لكل من يتأتى منه الخطاب ، وهو أيضا للرسول ﷺ .

والمعنى : بل عجبت يا مُنْصف الحق ، من قدرة الله تعالى على ما خلقه من الكائنات العلوية والسفلية، ومع هذا ينكر الكافرون البعث ، ويسخرون منك يا محمد حين تقرر لهم البعث ، وتؤكد لهم الجزاء والحساب فى يوم الدِّين .

والخلاصة : إن قلوبَهم مغلقةٌ محجوبةٌ عن التأمل فيما حولها من خلق الله ، وإبداع خلق السماوات وما فيها ، والأرض وما عليها ، مما يستحق التعجب والتأمل ، ولكنهم يسخرون من مقالك ومن اهتمامك بإقناعهم برسالتك .

١٣- وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ .

وإذا وجهت إليهم الدعوة إلى تذكر آلاء الله ونعمائه، والالتفات إلى خلق الله وآثاره فى الأنفس والآفاق، لا يتعظون ولا يتأملون بسبب الرَّان الذى ران على قلوبهم ، من حُبِّ الدنيا وشهواتها وملذاتها ، والإعراض عن الآخرة وما يذكرهم بها .

١٤- وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ .

وإذا شاهدوا معجزةً أو برهانًا أو آية قرآنية تدل على صدق رسالتك ، وجمال دعوتك ؛ تداعوا إلى السخرية والاستهزاء بها ؛ ليغالبوا داعى الحق ، وليرفضوا كل سبيل إلى الهداية ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

١٥- وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

أى : ما هذا الذى يأتينا به محمد إلا ألاعيب ساحر ، وخداع أريب ماهر يريد أن يلفتنا عما كان يعبد آباؤنا ، وما هى من دلائل الحق فى شىء ، فإياكم أن تُخدعوا بها وترجعوا عن دين آبائكم ، وعقائد أسلافكم

والحقّ أن القرآن الكريم قد دخل عليهم من كل باب ، وحاكمهم إلى الحسّ ، وناقشهم فى عقائدهم ، وخلَب ألبابهم ، وهزَّ عقائدهم ، وبين لهم أن الأصنام لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعقل ، ولا تستحق السجود والعبادة ، وإنما يستحق ذلك الله الخالق بديع السماوات والأرض ، والعرب - وهم أهل الفصاحة والبيان - قد أُخذوا بهذا البيان وهذه البلاغة والمناقشة الهادئة ، وتقديم الأدلة الواضحة ، فحاولوا تشويه القرآن ، وإلصاق التهم بالرسول الأمين، فتخبَّطوا فى هذه التهم، فقالوا : محمد ساحر، وقالوا : شاعر ، وقالوا : كاهن ، وقالوا : كذَّاب ؛ وقالوا : يقدم أساطير الأولين ، وقالوا : تأتيه أضغاث أحلام بالليل فيصوغها بالنهار ، وقالوا : مُفترٍ ينسب الوحى إلى الله ، وهو يقدِّمه من عند نفسه .

قال تعالى : بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . (الأنبياء : ٥).

والآية تعبير واضح عن تخبطهم فى التُّهم ، وعدم استقرارهم على حال ، وقد ناقشهم القرآن فى أقوالهم وبيَّن فسادها .

١٦، ١٧- أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ .

أنُبعث مرة أخرى بعد أن نموت وندفن فى الأرض ، ونصبح ترابا وعظاما بالية هى أبعد ما تكون عن الحياة ، وكذلك آباؤنا السابقون الذين دُفنوا فى التراب منذ مئات وآلاف السنين ، وصاروا رميما باليا وعظاما نخرة ، وعمَّهم البلى والفناء ، وصاروا أبعد الناس عن الحياة والأحياء ؟ إن هناك بعدًا بين الموت والفناء ثم العودة إلى البعث والحياة مرة ثانية .

لكن القرآن أمر الرسول ﷺ أن يردّ عليهم بما يأتى :

١٨- قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ .

أى : قل أيها الرسول الأمين : نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ، حال كونكم ، دَٰخِرُونَ ، أى : صاغرون أذلاء أمام القدرة البالغة .

١٩- فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ .

أى : لا تستصعبوا البعث من القبور ، فإنما هى صيحة واحدة ، حين ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ؛ فيقوم الناس لربّ العالمين .

والخلاصة :

إن الأمر هين علينا ، فإذا أمرنا بالبعث نفخ الملاك في الصور ؛ فقام الكفار من القبور ينظرون حولهم متعجبين مما حدث لهم ، فقد كانوا ينكرون البعث ، فإذا بهم يجدونه حقيقة واقعة .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

وقال سبحانه : وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ . (النمل : ٨٧) .

وقال عز شأنه : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . (غافر : ٦٠) .

٢٠ - وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ .

أى : قال الكافرون عندما شاهدوا البعث مشاهدة العيان : يا هلاكنا ، هذا يوم الفصل والقضاء ، والحساب والجزاء، أو قال بعضهم لبعض : هذا يوم الدِّين ، أى : يوم الجزاء ، تقول : أدانه القاضى ، أى : جازاه.

٢١ - هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ .

ٱلْفَصْلِ : القضاء والحكم ، ففيه فصل بين الحق والباطل ، أى : قال بعضهم لبعض : هذا يوم الفصل فى الحكم ، حيث يكافأ المؤمنون، ويعاقب المكذبون ، حيث كنا فى الدنيا نكذّب الرسل ونكفر بالبعث والحشر والجزاء.

وكان أبو حاتم يقف على قولهم : يَـٰوَيْلَنَا ، ويجعل ما بعده من كلام الملائكة جوابا للمتكبرين وتوبيخا لهم ، وقد مر فى القرآن أشباه هذا الموقف ، حيث يعتبر الكفار بعد فوات الأوان ، ويصيحون نادمين معترفين بالواقع ، وبأن هذا يوم الدين ويوم الفصل بين الناس ، حيث يحشر الكفار مع بعضهم ، والزناة مع بعضهم، وشاربو الخمر مع بعضهم ، وفى هذا اليوم يتمتع المؤمنون بالنعيم ، ويعاقب الظالمون بالجحيم .

قال تعالى : وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . (يس : ٥٩) .

★ ★ ★

مسئولية المشركين فى الآخرة

﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

احشروا : اجمعوا الظالمين .

أزواجهم : أمثالهم وأشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنا كذلك .

وما كانوا يعبدون : من الأصنام والأوثان ، فإنها تحشر معهم .

فاهدوهم : دُلُّوهم ووجهوهم .

صراط : طريق .

الجحيم : جهنم ، أى : فدلوهم إلى طريق النار .

وقِفوهم : احبسوهم فى الموقف .

مسئولون : عن عقائدهم وأعمالهم .

لا تناصرون : لماذا لا ينصر بعضكم بعضا ؟

مستسلمون : منقادون ، أو قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ، والانقيادُ تابع لذلك عرفا .

يتساءلون : يتخاصمون بطريق الجدال .

عن اليمين : من جهة الخير وناحيته فتنهوننا عنه ، أو تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر .

من سلطان : من قهر وتسلط عليكم .

طاغين : مجاوزين الحدّ فى الضلال .

فأغويناكم : زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر .

غاوين : بالوسوسة لكم .

بالمجرمين : بالمشركين .

لشاعر مجنون : يعنون محمدا ﷺ ، وقد كَذَبُوا فما هو بشاعر ولا مجنون .

بالحق : بالتوحيد .

تمهيد :

تذكر الآيات موقف الحساب والعتاب للظالمين ، فالملائكة تحشرهم مع قرنائهم : الزناة مع بعضهم، وشاربو الخمر مع بعضهم ... إلخ .

كما تحشر معهم الآلهة المدّعاة التى عبدوها من دون الله ، كل هؤلاء يُرْشَدُون إلى الطريق المؤدية إلى جهنم ، ويوقفون فى الطريق ، وتوجَّه إليهم أسئلة للعتاب والملامة ، ومن هذه الأسئلة : لماذا لا ينصر بعضكم بعضا كما زعمتم فى الدنيا ، حيث قال أبو جهل فيما حكاه عنه القرآن : نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . (القمر : ٤٤) .

ثم نجد مشهدًا مزريا بين الأتباع الضعفاء ، الذين يلقون التبعة فى ضلالتهم على القادة والرؤساء ، ويتبرأ القادة من تبعة الإضلال ، ويقدمون عددا من الأدلة على ذلك ، ثم ييأس الجميع من النجاة ويستسلمون للعذاب .

التفسير :

٢٢، ٢٣- ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ .

يراد بالظلم الشرك ، قال تعالى : إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . (لقمان : ١٣) .

أى : يقول الله تعالى للملائكة : اجمعوا الظالمين مع نظرائهم ، فالزانى مع الزانى ، والسارق مع السارق ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، والمشرك مع المشرك ، والكافر مع الكافر ، حيث تتلاقى كل فئة مع أفرادها ، وقيل : مع زوجاتهم الكافرات اللائى رضين عن الكفر ، وقيل : مع قرنائهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه ، والآيات تشمل كل ذلك ، لكن الأولى إطلاق الأزواج هنا على الأشباه والنظائر فى الصفات والعادات .

قال تعالى : وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . (يس : ٥٩) .

ويحشر مع الكفار الأصنام التى عبدوها من دون الله لزيادة التحسير والتَّخجيل ، ثم يقال للملائكة : أرشدوا هؤلاء المجرمين إلى طريق النار ، فقد أعرضوا عن الهداية إلى الإيمان فى الدنيا ، فاهدوهم إلى الجحيم فى الآخرة ، والتعبير بالهداية للتهكم .

٢٤- وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ .

بعد إرشادهم إلى أول طريق الجحيم ، يوقفون للسؤال والتقرير ، والاعتراف بأخطائهم ، كبراهين ساطعة وأدلة دامغة على أنّهم يدخلون الجحيم جزاء عادلا للجرائم التى ارتكبوها فى الدنيا .

قال المفسرون :-

وظاهر الآية : أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى طريق الجحيم ، بمعنى تعريفهم إياه ، ودلالتهم عليه، لا بمعنى إدخالهم فيه .

٢٥- مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ .

ما الذى جعلكم تقفون عاجزين ، لا ينصر بعضكم بعضا ، وقد كان أبو جهل يقول فى مكة : نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . (القمر : ٤٤) . وهذا السؤال للتقريع والتوبيخ .

٢٦- بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ .

قد سدت فى وجوههم جميع الحيل، فأظهروا العجز والانقياد لأمر الله، والاستسلام أصله : طلب السلامة، والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق، يقال : استسلم العدوّ لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

والخلاصة :

ليسوا فى هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

٢٧- وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

أقبل الأتباع الضعفاء على القادة الكبراء يسألونهم ويلقون التبعة عليهم ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . (سبأ : ٣١) .

٢٨- قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ .

اليمين يطلق على فعل الخير ، فقد كانوا يتيامنون باليمين ، ويتشاءمون بالشمال ، وتطلق اليمين على القسم والحلف باليمين ، وتطلق اليمين على القوّة ، فاليمين فى العادة أقوى من الشمال ، وهذه المعانى الثلاثة يمكن أن تكون مرادة فى الآية .

أى : قال الضعفاء للكبراء والقادة : كنتم تزعمون لنا أن الشرك والكفر خير وأفضل من محمد ودينه ، وكنتم تُقسمون لنا بالأيمان على ذلك ، وكنتم فى نفس الوقت تستخدمون القوة والتهديد والوعيد لإجبارنا على متابعتكم والسير خلفكم .

٢٩- قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ .

أى : قال القادة والكبراء للضعفاء والأتباع : نحن لم نجبركم على الكفر ، ولم نكرهكم عليه ، بل أنتم كنتم كارهين للإيمان ، راغبين فى الكفر ، تتوقون إلى الهوى وتؤثرون الضلالة .

٣٠- وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ .

كانت لكم عقول وأفكار ، وقلوب وأبصار وأفئدة ، وكنتم تستطيعون أن تنظروا فى دلائل الإيمان ، وتتفكروا فى دعوات الرسل ، وتهتدوا إلى الإيمان بالله ورسله ، لكنكم آثرتم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى، والطغيان وعدم الاعتدال على العدل والسير على الطريق المستقيم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

٣١- فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ .

من المفسرين من رأى أنها من كلام الأتباع ؛ أى : اعترف الأتباع والضعفاء بأنهم اختاروا الضلال بأنفسهم ؛ فلزمهم ما ورد فى القرآن الكريم : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٤ ، ٨٥) .

ومن المفسرين من رأى أن الآية من كلام الرؤساء ؛ لأن ما قبلها وما بعدها من كلام القادة والرؤساء، أى : قال الرؤساء : لقد اخترنا الكفر بأنفسنا ، وسنتعرض للعذاب نحن وأنتم ، الرؤساء والأتباع ، إذ كان من عدله أن يجازى كل نفس بما كسبت ، ويثيبها بما عملت ، فلا يلومنّ كلٌّ منا إلا نفسه ، ولا يلم بعضنا بعضا، ولا داعى للجدل والخصام والنكير ، فلا يُجنى من الشوك العنب ، ولا يعقب الضلال إلا النار.

وفى هذا المعنى يقول تعالى : قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . (سبأ : ٣٢،٣٣) .

والقرآن الكريم بتكرار هذه المحاورة بين القادة والأتباع يفتح العيون والأبصار على حقائق القيامة ومشاهدها ، ويبيّن أن التبعة فردية ، وكل امرئ بما كسب رهين ، ولن يتحمل الكبار شيئا من وزر الصغار، بل ينال الصغار الجزاء كاملا ، ثم ينال الكبار جزاء كفرهم من جهة ، وجزاء إضلال غيرهم من جهة أخرى.

قال تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ . (العنكبوت : ١٢ ، ١٣).

٣٢ - فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ .

لم يكن لنا فى شأنكم إلا حبنا أن تكونوا مثلنا ، وهو غير ملزم لكم، وإنما أضركم سوء اختياركم، وقبح استعدادكم ، وقريب منه قوله تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

وقوله سبحانه : قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ... (القصص : ٦٣) .

٣٣ - فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

فإنهم - الأتباع والقادة - هم جميعا يوم القيامة يشتركون فى العذاب ، وهذا الاشتراك فى مبدأ العذاب لا يمنع تميّز القادة بنصيب من العذاب لضلالهم ، ونصيب آخر لإضلال غيرهم .

قال رسول الله ﷺ : «من سنّ فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٣٤] .

٣٤ - إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ .

إنا بمثل ذلك الفعل الذى يدل على الحكمة التشريعية، نعذب هؤلاء الكافرين ، جزاءً وفاقا لشركهم، وتكذيب المرسلين وإيذائهم .

٣٥ - إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ .

إنهم كانوا إذا سمعوا كلمة التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، استكبروا وأنِفُوا أن يدينوا بها .

ومن ذلك ما روى أن النبى ﷺ لما قال لأبى طالب عند موته ، واجتماع قريش حوله : «قولوا لا إله إلا الله ، تملكوا بها العرب، وتدين لكم العجم» ؛ أبوا وأنِفُوا من ذلك .

وفى تفسير القرطبى :

رُوى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، لما أنزل الله فى كتابه ، فذكر قوما استكبروا ، فقال : إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وقد استكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة . اهـ .

لقد اتفق النبى ﷺ مع كفار مكة على هدنة مدتها عشر سنوات، لكن قريشا نقضت العهد، فساعدت قبيلة بكر حليفة قريش على قبيلة خزاعة حليفة النبى ﷺ ، وذهب عمرو بن سالم الخزاعى إلى النبى ﷺ بالمدينة ، وأنشد بين يديه قصيدة عصماء جاء فيها :

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير هجّدا وقتلونا رُكّعا وسُجّدا

فانصر هداك الله نصراً أيّدا وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال النبى ﷺ : «نُصرت يا عمرو بن سالم»، وقاد النبى ﷺ جيشا فتح به مكة ، وأنزل الله بسبب ذلك سورة النصر .

٣٦ - وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ .

لقد جمعوا فى كلمتهم بين إنكار الوحدانية ، وإنكار الرسالة .

حيث قالوا : أنترك عبادة الآلهة التى ورثنا عبادتها عن آبائنا كابراً عن كابر، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذى ، فمثله لا يصغى لكلامه، ولا يستمع لقوله، فرفضوا دعوة التوحيد، ورفضوا رسالة محمد ﷺ.

٣٧ - بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

ردّ الله عليهم افتراءهم وزعمهم أن محمداً شاعر مجنون ، فبيَّن سبحانه أن هذا الرسول الأمين جاء بالقرآن الكريم ، الذى أنزله الله بالحق ، وبالحق نزل .

وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ. الذين أرسلهم الله فقصَّ سيرتهم وسجَّل كفاحهم ، وبيّن أن جميع الرسل تعرضوا للبلاء والاختبار، قال تعالى : مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ... (فصلت :٤٣) .

وقال عز شأنه : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

* وقد جاء فى القرآن والسنة ما يفيد أن المسلم مطالب بالإيمان بالرسل والكتب السابقة ، فجميع الرُسل دعوا إلى التوحيد، وحثوا على مكارم الأخلاق ، والنبى ﷺ يقول : «إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بالدار ، ويقولون : ما أجمل هذه الدار لو وضعت هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم الرسل»[٣٥] . رواه البخارى

وقال ﷺ : «الأنبياء إخوة لعلاَّت[٣٦] ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[٣٧] رواه البخارى.

وقال تعالى : قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (البقرة : ١٣٦) .

وقال ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣٨] .

٣٨- إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ .

إن العذاب الأليم واقع بكم لا محالة ، ستذوقونه وتتجرعون غصّته وآلامه ، وسينزل بكم الذل والمهانة والخزى، ويجعلكم فى حزن دائم .

٣٩ - وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ .

إن الجزاء الحق من جنس العمل، فقد أشركتم بالله وكفرتم برسله، وكذبتم بآيات الله، ولم تُعْمِلوا عقولكم ولا فكركم ، بل تكبرتم وأخذتكم العزة بالإثم، وقد استمرت الدعوة الإسلامية فى مكة ثلاثة عشر عاما ، وفى المدينة عشرة أعوام، أى قرابة ربع قرن من الزمان ، كان أمامكم وقت متسع للهداية والإيمان، فآثرتم الضلالة ، ولم تبذلوا جهدًا للبحث عن الهداية ، فذوقوا العذاب جزاء أعمالكم .

قال تعالى : وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ . (الشورى : ٣٠) .

وقال سبحانه : وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ. (غافر : ١٨)

★ ★ ★

جــزاء المؤمنين

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

على سرر متقابلين : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض ، وإنما ينظر فى وجهه تواصلاً وتحابيًا .

بكأس : بخمر .

من معين : من نهر ظاهر للعيون ، جار على وجه الأرض .

لذة : ذات لذة .

لا فيها غول : لا تغتال عقولهم وصحتهم .

يُنزفون : لا تذهب عقولهم بالسكر ، كما ينزف الرجل ماء البئر وينزعه .

قاصرات الطرف : قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم .

عين : جمع عيناء ، وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها ، وقيل : عين ، أى : حِسان العيون.

بيض مكنون : بيض مصون عن الريح والغبار ، حيث تكنّه النعامة أو الدجاجة بريشها .

تمهيد :

تصف الآيات نعيم أهل الجنة ، فهو نعيم أىّ نعيم ، فلهم فى الجنة أرزاق وفواكه ، وكرامة ونعيم ، يشربون خمرًا بيضاء لذيذة ، لا تغتال عقول شاربيها ، ويتمتعون بالحور العين ، وجمالهنّ أخّاذ كأنّهُنّ بيض محفوظ مصون .

التفسير :

٤٠ - إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، حيث أخبر الله عن الكافرين بقوله تعالى : إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الصافات : ٣٨ ، ٣٩) .

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .

أى : لكن عباد الله الذين أخلصهم لطاعته لا يذوقون العذاب ، وإنما يجزون بالثواب أضعافًا مضاعفة بالنسبة لأعمالهم ، فيجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله .

وقد قرأ بعض القراء بفتح لام المخلَصين ، أى : الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده ، وقرأ بعض القراء بكسر اللام : المخلِصين ، أى : الذين أخلصوا لله العبادة والطاعة .

قال تعالى : وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ . (البينة : ٥) .

٤١ - أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ .

هؤلاء العباد المخلصون لهم مكانهم فى الجنة ، ورزقهم معلوم محفوظ ، يأتيهم بغير سؤال ، وبغير احتياجهم إليه ، وإنما يأتيهم للتكريم والإعزاز ، وللتفكه والتلذذ .

قال تعالى : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . (مريم : ٦٢) .

أى : إن الرزق معلوم الوقت فى الصباح والمساء .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ - فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ .

كلمة : فَوَٰكِهُ ، بدل مما قبلها أى أن هذا الرزق المعلوم هو فواكه ، والمراد بها : ما يؤكل لمجرد التلذذ، دون الاقتيات ، وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم ، لكونهم مستغنين عن القوت ، لأن خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل ، والمراد بالفواكه : الثمار كلها ، رطبها ويابسها .

قال تعالى : وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . (الواقعة : ٢٠ ، ٢١) .

وقال تعالى : وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

ومع ذلك تقدم لهم الأطعمة والفواكه وألوان النعيم ، وَهُم مُّكْرَمُونَ . معززون كالملوك والوجهاء والكبراء ، والتكريم هنا إشارة إلى ما يلقونه عند الله تعالى برفع الدرجات ، وسماع كلام الرحمان ، فلا يلحقهم هوان ، وذلك أعظم المثوبات ، وأليقها بأولى الهمم ، أى أن النعيم الإلهى للمؤمنين فى الجنة نوعان :

الأول : حسّى ، يشمل الجنة والأنهار والأشجار والثمار والظلال ، والحور العين والطعام والفواكه والخمر والنعيم .

والثانى : معنوى ، يتناول رضوان الله ، والأنس به ، وسماع كلامه ، والاستمتاع برضاه وبركته ورؤيته .

فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

فى جنات ليس فيها إلاّ النعيم والتنعّم الحسى والمعنوى .

عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ .

على سرر يقابل بعضهم بعضًا ، لا يرى أحدهم قفا الآخر ، بل تتحرك بهم الأسرة وتدور بهم كيف شاءوا ، تواصلاً وتحاببا بالنظر إلى الوجوه .

٤٥ - يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ .

الكأس فى القرآن الكريم يراد بها الخمر ، وهى خمر حلال ، فيها رقة وعذوبة وكثرة ، كأنها تؤخذ من نهرٍ جارٍ ، فلا تقتير ولا بخل ، بل كلما طلبوا وجدوا .

والمعين : الماء الجارى الظاهر للعيون ، وكذلك تجرى الخمر فى الجنة ، كما قال تعالى : وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ... (محمد : ١٥) . وهى خمر نظيفة ، ليست كخمر الدنيا تداس بالأقدام .

قال الشاعر :

وشمولةٍ من عهد عادٍ قد غدت ... صَرْعى تداس بأرجل العصّار

لانت لهم حتى انتشوا فتمكّنتْ ... منهم فصاحت فيهم بالثّار

٤٦ - بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ .

الخمر بيضاء فى لون بهى مشرق، يشيع اللذة والسرور فى نفوس الشاربين، كأنها نفس اللذة والسعادة.

قال أبو نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسّها حجر مسته سراءُ

٤٧ - لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ .

ليس فى الخمر أى ضرر من أضرار خمر الدنيا ، فهى لا تغتال عقول الشاربين كما فى خمر الدنيا ، ولا هم عَنْهَا - أى : بسببها - يسكرون ، وقد صرف الله السُّكْر عن أهل الجنة ، لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم ، فعقولهم كاملة ، وسعادتهم مستمرة ، ولا تفسد الخمر عقولهم .

قال الشاعر :

فمازالت الخمر تغتالنا ... وتذهب بالأول الأول

لقد جمع الله فى خمر الآخرة كل محاسن الخمر ، وخلّصها من مساوئها ، مثل : اغتيال العقل ، والسكر، والصداع ، والإدمان ، والتردّى ، وعدم الغيرة على العرض .

يقول المتنبى :

وغير فؤادى للغوانى رمية ... وغير بنانى للزجاج ركاب

وللسرّ منى موضع لا يناله ... صديق ولا يطغى إليه شراب

وللخود مِنّى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهنّ لعاب

٤٨ - وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ .

وَعِندَهُمْ . أى : عند أهل الجنة ألوان من المتع والنعيم الذى لا حد له .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

وفيها نساء جميلات قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ ، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهن ، مع جمال العين وشدة بياضها مع شدة سوادها ، فهى عين عيناء واسعة جميلة .

وقيل : قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ . أى : ذابلات الجفون فى تكسّر ، كأنها نائمة وما هى بنائمة ، أو ضعيفة مريضة وما هى بمريضة .

قال ابن الأزدى :

مَرِضَتْ سلوتى وصح غرامى من لحاظ هن المراض الصحاح

وقال الآخر :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

٤٩ - كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ .

كأنهن بيض النعام المستور من الأعشاش ، الذى لم تمسسه الأيدى ، ولم يصبه الغبار ، وقد شبههن ببيض النعام ، لأنّ لونه أبيض يخالطه قليل من الصفرة ، وهو لون محبوب فى النساء عند العرب .

قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعتُ من لهو بها غير مُعْجَل

وقيل : البيض المكنون ، أى : المصون من الكسر ، والمراد : أنّهنّ عذارى .

قال تعالى : لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ . (الرحمن : ٧٤) .

وفى الحديث عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف علىَّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون – أو اللؤلؤ المكنون –»[٣٩] .



مشاهدة المؤمن لعذاب الكافر

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

المفردات :

يتساءلون : يتفاوضون فيما بينهم بأحاديثهم فى الدنيا ، وهو من تمام الأنس فى الجنة .

قرين : خليل وصاحب .

لمدينون : مجزيون محاسبون بعد الموت .

فى سواء الجحيم : وسط النار ، وسمى الوسط سواء ، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب .

لتردين : لتهلكنى إن أطعتك ، والردى : الهلاك .

لكنت من المحضرين : المسوقين للعذاب مثلك .

تمهيد :

نعيم أهل الجنة لا حدود له ، وقد مرّ ما يتنعمون به من ألوان المآكل والمشارب ، والمساكن والأزواج الحسان ، ثم بيّن هنا خلوّ بالهم من المشاغل والهموم ، وطيب نفوسهم ، وسمرهم مع بعضهم البعض بما كان يقع لهم فى الدنيا ، حتى ليقصّ بعضهم على بعض أن خليله كاد يوقعه فى الهلاك ، لولا لطف ربه به، وقد كانت عاقبة صديقه الكافر أن أصبح فى وسط الجحيم ، فشكر المؤمن ربّه لنجاته وسلامته من جهنم.

التفسير :

٥٠ – فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ .

هذه الآية معطوفة على الآيتين السابقتين ، فقد وصفت الآيات أهل الجنة بأنهم فى نعيم ورزق معلوم ، ولهم فى الجنة فواكه وخمر وحور عين ، أى : بينما هم فى النعيم والأنس ، والتفكه وشرب الخمر الحلال ، أخذوا يتسامرون ، ويتذاكرون شئونهم فى الدنيا .

ومعنى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ .

أخذوا يتسامرون ، ويتذكّرون ما فات ، ويتساءلون عن الفضائل والمعارف ، وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ، وما أحلى تذكّر ما فات عند رفاهية الحال وخلوّ البال .

٥١ – قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ .

قال رجل من أهل الجنة فى تضاعيف محاوراته وكلامه مع رفاقه ، متسامرًا معهم : إنى كان لى صاحب ملازم ، وقيل : أراد به شقيقه الكافر الذى وردت قصته فى سورة الكهف ، وتبدأ بقوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . (الكهف : ٣٢) .

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره للآيات قصة طويلة عن السدّى ، أخرجها ابن أبى حاتم ، خلاصتها : أن الأخوين ورثا عن أبيهما ستة آلاف دينار ، كل أخ أخذ نصيبه ثلاثة آلاف دينار ، أما الكافر فقد اشترى أرضًا ونخلاً وزرعًا بألف ، واشترى رقيقًا بألف ، ودفع مهرًا لزوجة مقداره ألف ، وأما المؤمن فتصدق بماله، واشترى من الله تعالى أرض الجنة ، ورقيق الجنة ، والحور العين فى الجنة ، ثم تقابلا ، الكافر فى حشم وخدم وأتباع ، فسلّم على أخيه ، وسأله : أين مالك ؟ هل ضاربت به أو تاجرت به ؟ قال : لا ، قال : فأين هو؟ قال : أقرضته المليء الوفىّ . قال : من ؟ قال : الله ربى ، فانتزع الكافرُ يده من يده ، ثم قال : أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ . (الصافات : ٥٢ ، ٥٣) .

ثم تمت القصة بأن أدخل الكافر وسط الجحيم ، وأدخل المؤمن الجنة ، وشاهد النخيل والثمار والأنهار التى أعدت له ، كما شاهد الخدم الذين سيخدمونه ، وشاهد قبة من ياقوتة حمراء مجوفة ، فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك ، ثم يذكر المؤمن شريكه فيقول : إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ... إلى آخر الآيات .

٥٢ ، ٥٣ - يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ .

أى : كان لى صديق أو رفيق أو شقيق ينكر البعث ، ويقول لى مستنكرا علىّ : أئِنك لمن المصدقين بالبعث والجزاء بعد أن نموت ونصبح ترابًا وعظامًا رميمًا متهالكًا ؟ هذا أبعد ما يكون عن الحياة ، أنُبعث ونُحاسب ونجازى على أعمالنا ؟

ومعنى : لَمَدِينُونَ . لمحاسبون ومجزيون بعد الموت .

٥٤ - قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ .

قال الأخ المؤمن لإخوانه فى الجنة : هيا نطلع على أهل النار ، لنبحث عنه بين أهلها .

وفى الأثر : إن فى الجنة كُوَى يطلع منها أهل الجنة على أهل النار ، إذا رغبوا فى ذلك ، ليزدادوا شكرًا لله على نجاتهم من النار ، وتمتّعهم بالجنة .

وقيل : القائل هو الله عز وجل لأهل الجنة ، وقيل : القائل بعض الملائكة .

٥٥ - فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ

أى : اطلع المؤمن على أهل النار ، فرأى قرينه فى وسط جهنم .

قال الآلوسى :

واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد ، بأن يخلق الله تعالى فيهم حدّة النظر ، ويعرّفهم من أرادوا الاطلاع عليه ، ولعلهم - إذا أرادوا ذلك - وقفوا على الأعراف ، فاطّلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار ، وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ، ينظرون منها من علوّ إلى أهل النار ، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكرًا للبعث[٤٠] . ا هـ .

٥٦ - قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ .

قال المؤمن لقرينه أو لشقيقه : كنت على وشك أن توقعنى فى الردى والهلاك ، بما كنت تزينه لى وتوسوسه لى عن عدم البعث والحشر والجزاء .

٥٧ - وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ .

ولولا فضل الله وتوفيقه وعنايته ورحمته بى ، لكنتُ مثلك حاضرًا فى وسط النار ، أصطلى بعذابها ، ولكن الله رحمنى فهدانى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيده .

٥٨ - أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ .

أنعيش مخلدين فى الجنة ، متمتعين بنعيمها ، لا يدركنا الموت ، ولا يعترينا الفناء ؟

٥٩ - إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

ورد أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة ، وأن أهل النار إذا دخلوا النار ، نادى منادٍ من قبل الله تعالى : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ، وهذا معلوم ، لكن إذا كان أهل الجنة فى نعيم مقيم لا حدود له ، فإنهم يتحدثون هنا عن نعمة الله عليهم ، وتفضله عليهم بالنعم ، أو يتساءلون تساؤل العارف ليزداد يقينًا ، وهم هنا فى نعيم ويريدون أن يتأكدوا أن هذا النعيم لن ينفد ، وأن الموت لن يدركهم ، وأن العذاب لن يصيبهم ، يتحدثون بذلك عرفانًا لله وشكرًا ، أو سؤالاً للملائكة ليزدادوا يقينًا ، أو يتحدثون مع بعضهم تلذذًا وعرفانًا لله بالفضل والمنّة .

وقريب من ذلك ما شاهدناه من دعاء زكريا لله أن يرزقه بولد ، فلما بشرته الملائكة تساءل وقال : أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ... (آل عمران : ٤٠) .

ومعنى الآية :

إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

أى : أيكرمنا الله بالخلود فى الجنة وعدم الموت ؟ لكننا ذقنا الموتة الأولى فى الدنيا ، ولن يتكرر الموت فى الجنة ، ولن يصيبنا العذاب مثل أهل النار ، فنحن فى نعيم دائم وسرور دائم ، وبُعد عن العذاب .

قال ابن كثير : هذا من كلام المؤمن ، مغبطا نفسه ، بما أعطاه الله تعالى من الخلد فى الجنة ، والإقامة فى دار الكرامة ، بلا موت فيها ولا عذاب .

٦٠ - إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

يجوز أن تكون هذه الآية وما بعدها من تتمة كلام المؤمن ، أو كلام أهل الجنة ، حيث يتحدثون عن فضل الله عليهم بالنجاة من النار ، ودخول الجنة ، فيقولون : إن دخول الجنة هو الفوز الأكبر بالنعيم المقيم.

قال تعالى : فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥) .

٦١ - لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ .

أى : هذا هو المثل الأعلى ، والجائزة الكبرى ، التى تستحق أن يجتهد من أجلها أهل الدنيا ، فيسهروا ليلهم ، وينشطوا فى نهارهم ، ويجتهدوا فى حياتهم لجائزة كبيرة تستحق هذا التعب ، وهى الجنة ، أما العمل للدنيا وحدها ، فجزاؤه محدود ، ونهايته فناء لا خلود .

قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة .

وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز ، فليعمل العاملون فى الدنيا ، ليصيروا إليه فى الآخرة[٦١] .

أخرج ابن أبى حاتم ، وابن ماجة فى كتاب الزهد من سننه ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «ألا هل مشمر إلى الجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة نور كلّها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة ، فى محلة عالية بهية» ، قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمِّرون لها ، قال ﷺ : «قولوا إن شاء الله» ، فقال القوم : إن شاء الله[٦٢] .

وكان أحد المسلمين فى غزو الروم يقول :

حبذا الجنة واقترابها	طيب وبارد شرابها
والروم روم قد دَنَا ضرابُها	علىّ إن لاقيتها قتالها

★ ★ ★

أنواع العذاب فى جهنم

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات :

النُّـــزل : ما يعدّ للضيف وغيره من الطعام والشراب .

الزقـــوم : شجرة صغيرة الورق ، كريهة الرائحة ، مرّة الطعم ، تكون بتهامة .

فتنـــة : ابتلاء لهم فى الدنيا ، ومحنة وعذابًا في الآخرة .

أصل الجحيم : قعر جهنم .

طلعهـــا : ثمرها .

رءوس الشياطين : فى قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبح الصورة بالشيطان ، فتقول : وجه كأنه وجه شيطان ، كما يشبّهون حسن الصورة بالملك .

المِلء : حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه .

الشـــوب : الخلط ، قال الفرّاء : شاب طعامه وشرابه ، إذا خلطهما بشيء يشوبهما .

مرجعهم : مصيرهم .

ألفـــوا : وجدوا .

ضالين : بعيدين عن الحق .

يهرعـــون : يسرعون إسراعًا شديدًا .

مـــنـــذريـــن : رسلاً أنذروهم العذاب فكفروا .

عـاقبـة المنـذَريـــن : نهاية الذين أنذروا وحذّروا ، وهى إهلاكهم لكُفْرهم .

تمهيد :

بعد أن وصف القرآن ثواب أهل الجنة ، وذكر ما يتمتعون به فيها ، أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار ، وما يلقونه من العذاب الأليم فى مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم ، جزاء التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، وعدم التفكير والتأمل فى رسالة الرسل .

التفسير :

٦٢ - أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ .

أهذا الرزق المعلوم الذى أعطيته لأهل الجنة والنعيم المقيم ، أفضل أم ما أعددت لأهل النار من الزقوم المرّ البشع ، وهذا ضرب من التهكم والسخرية بهم ، وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن الكريم ، حيث يقارن القرآن بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار .

قال تعالى : **مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ** . (محمد : ١٥) .

٦٣ - إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ .

امتحانًا واختبارًا لهم فى الدنيا ، وعذابًا ومحنة لهم فى الآخرة ، وذلك أن كفار مكة لما سمعوا أن شجرة الزقوم فى وسط جهنم ، قالوا : كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر ؟ وما علموا أن قدرة الله فوق كلّ قدرة ، فقد ألقى إبراهيم فى النار ، فجعلها الله بردًا وسلامًا عليه ، وفى النار حيَّات وعقارب ، وخزنة للنار ، لأن النار لا تحرق إلا بإذنه تعالى ، فالله قادر على خلق الشجر فى النار ، وحفظه من الاحتراق .

وذكر بعض المفسرين أن هناك دويبةً تعيش فى النار ، وتتلذذ بالنار .

قال القرطبى :

لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرًا من جنسها ، لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب . ا هـ .

٦٤ - إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ .

إنها شجرة تنبت فى قعر النار ، وأُغْصَانُها ترتفع إلى أركانها .

٦٥ - طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ .

إن ثمرها فى قبح منظره ، وهول رؤيته شبيه برءوس الشياطين ، والعرب تتخيل صورة الشيطان قبيحة لا تعدلها صورة أخرى فى ذلك ، فيقولون لمن يَسِمُونه بالقبح المتناهى : كأن رأسه رأس شيطان، وقد سلك امرؤ القيس هذا المسلك ، فشبَّه سيفه المسنن بأنياب الغول ، أى أنه سيف بشع فى حصد الرءوس، وقتل الأعداء ، فقال :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونةٌ زرق كأنياب أغوال

وعلى العكس من هذا تراهم يشبهون الصورة الحسنة بالملَك ، من قِبل أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لا شرّ فيه ، فارتسم فى خيالهم بأبهى صورة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن النسوة اللائى بهرهنّ جمال يوسف : فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . (يوسف : ٣١) .

٦٦ - فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ .

بينما يتمتع أهل الجنة بالتفكه والتنعم بأفضل الأطعمة ، وألذّ الفاكهة ، والخمر الحلال ، والحور العين ، نجد أهل النار يأكلون الزقوم ، وهم يعرفون مرارة طعمه ، ومدى نَتَنه ، وبشاعة رائحته ، لكنهم يجبرون على أكله لشدة الجوع ، أو لأنهم مجبرون على أكله تعذيبًا لهم وإذلالاً ، ويجبرون على ملء بطونهم لشدة حاجتهم .

قال تعالى : لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ . (الغاشية : ٦ ، ٧) .

والمضطر يركب الصعب والذلول ، ويستروح من الضُّرّ بما يقاربه فيه .

٦٧ - ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ .

الشوب : الخلط ، حَمِيمٍ . شراب مخلوط بماء شديد الحرارة ، يُقطِّع الأحشاء .

قال تعالى : وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

والمعنى :

أنهم بعد الأكل من الزقوم امتلأت بطونهم ، فيستغيثون منه ، فيغاثون بشراب مزج بالحميم ، قد انتهى حرّه ، فإذا أدنوه من أفواههم شوى لحوم وجوههم ، وإذا شربوه قطّع أمعاءهم ، نعوذ بالله من حال أهل النار .

قال تعالى : وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

فأكلهم عذاب ، وشرابهم لهيب ، وإقامتهم الدائمة في جهنم ، وبئس المصير .

٦٨ - ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ .

إنهم يؤخذون من منازلهم فى الجحيم ، فيأكلون الزقوم إلى أن تمتلئ بطونهم ، ثم يشربون الحميم ، ثم يرجعون إلى منازلهم فى الجحيم .

قال تعالى : هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ . (الرحمن : ٤٣ ، ٤٤) .

أى أنهم يترددون بين النار ، وبين حميم قد انتهى إلى أعلى درجة من الحرارة ، فهو يغلى ويشوى الوجوه ، ويقطع الأمعاء ، فى مقابل شراب أهل الجنة ، وخمر أهل الجنة ، وفواكه أهل الجنة ، وبالجملة نعيم أهل الجنة ، فى مقابل عذاب أهل النار .

٦٩ ، ٧٠ - إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ .

كأنَّ إنسانًا يتساءل : ما سبب هذا العذاب الشديد ، والطعام المؤلم ، والشراب الحار المهلك ؟ فكان الجواب هو ما يأتى : إنهم وجدوا آباءهم ضالين عن الحق ، عابدين للأصنام ، فأسرعوا فى السير خلفهم بدون تدبّر أو تعقل ، أو تفكير فيما يعرض عليهم من الوحى ، وكلام الرسل .

والآيتان تنبيه للناس - كلّ الناس - إلى خطورة التقليد الأعمى ، واتباع السابقين لمجرد الإلف والعادة ، والجرى وراء التقليد الأعمى بدون تبصّر أو تفكير ، ولو لم يكن فى القرآن كله سوى هاتين الآيتين فى ذم التقليد الأعمى وبيان سوء عاقبته ؛ لكان فيهما الكفاية .

٧١ - وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

أى : ليس الضلال خاصًا بأهل مكة ، وأشراف قريش ، والأغنياء والكبراء من قومك يا محمد ، فقد ضل قبلهم أكثر الأولين من الأمم السابقة ، مثل قوم نوح ، ومثل عاد وثمود .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

٧٢ – وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ .

إننا رحمة بالعباد ، وتوجيهًا لهم ، وقطعًا لأعذارهم أرسلنا رسلنا بالبينات والآيات ، وأعطيناهم المعجزات لدعوة الناس إلى التوحيد والعبادات والمعاملات السليمة ، وتخويفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وتبشيرهم بالجنة إن أطاعوا ، واكتفى هنا بذكر أحد المثلين عن الآخر ، لأن المكذبين كانوا يستحقون الإنذار والتخويف .

قال تعالى : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥)

٧٣ – فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ .

فتأمل أيها الرسول ، وتأمَّل يا كلَّ من يتأتى منه النظر، كيف كان عاقبة المنذَرين الذين كذبوا رسلهم، وحذرهم الرسل وأنذروهم فلم يأبهوا بالإنذار ، وسخروا من الرسل واستهزءوا بهم ، فكانت العاقبة الهلاك المخيف الذى أصاب المكذبين مثل : غرق قوم نوح ، وغرق فرعون وملئه ، وخسف الأرض بقارون ، والهلاك الذى أصاب عادًا وثمود ، وكانت عاد تسكن جنوب الجزيرة قرب اليمن ، بين اليمن وسلطنة عمان ، وكانت ثمود تسكن شمال الجزيرة بين المدينة والأردن ، وكان القوم من أهل مكة يمرون على بلادهم ، ويعرفون ما أصابهم .

قال تعالى : وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨) .

وخلاصة المعنى :

تأملوا ما أصاب المنذَرين من الهلاك ، وأنتم أهل لمثل هذا الهلاك إن لم تؤمنوا .

٧٤ – إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .

المخلَصين ، بفتح اللام ، أى : الذين استخلصهم الله من الكفر للإيمان والعمل الصالح ، ومعرفة الله تعالى وطاعته ، والقراءة الثانية : المخلِصين ، بكسر اللام ، أى : الذين أخلصوا قلوبهم لطاعة الله ومرضاته ومراقبته وابتغاء وجهه فى أعمالهم .

والمعنى : لكن عباد الله المخلَصين (بالفتح) الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان ، أو المخلِصين (بالكسر) الذين أخلصوا إيمانهم لله ولنصرة دينه ، أنجاهم الله من عذاب الدنيا ، وفازوا بجنة عرضها السماوات والأرض فى الآخرة .

* * *

قصة نوح عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

نادانا : من النداء : وهو الاستغاثة .

فلنعم المجيبون : أجبناه أحسن إجابة .

ونجيناه وأهله : أهل دينه .

من الكرب العظيم : الغرق ، أو الغم الشديد .

تركنا عليه فى الآخرين : ثناء حسنًا فى كل أمة ، لأنه محبب إلى جميع الأديان .

تمهيد :

ذكر القرآن على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السابقة ، ثم شرع يفصل ذلك ، فذكر طائفة من قصص الأنبياء ، وعناية الله بهم ، واستجابة دعائهم ، وقصة نوح عليه السلام قد وردت فى القرآن الكريم فى سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون ، والجانب المذكور منها هنا هو استجابة الله دعاءه ، وإهلاك الكافرين ، ونجاة المؤمنين ، وبقاء التناسل فى أولاده الثلاثة : سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم ، وبعد قصة نوح ذكر القرآن قصص إبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى وهارون، وإلياس ، ولوط ، ويونس ، عليهم السلام ، وفيها عبر بالغة وإنذار لقريش ، وتسلية للرسول ﷺ .

التفسير :

٧٥ - وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ . .

مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، حتى يئس من إيمانهم ، وأخبره الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فدعا الله أن يهلكهم قائلاً : رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . (نوح : ٢٦ ، ٢٧) .

لقد استغاث بالله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ . (القمر : ١٠) .

أى : قال : إنى مقهور مغلوب على أمرى ، فانتصر لى يا الله ، فنِعم ما أجاب به الله ، حيث نصره الله بالطوفان الذى أغرق الكافرين ، وحمله الله فى سفينة يركب فيها مع من اتبعه من المؤمنين .

وخلاصة معنى الآية :

استغاث بنا نوح فأجبناه أحسن إجابة ، حيث نجيناه من الغرق ، ونصرنا المؤمنين ، وأهلكنا الكافرين .

٧٦ – وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ .

ونجينا نوحًا وأهله المؤمنين ، ومن آمن به من الغرق ، ومن الإحساس بالقهر والإحباط .

٧٧ – وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ .

أى : أهلكنا الكافرين بالغرق ، وجعلنا التناسل والتوالد فى أبناء نوح الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث، فسام أبو العرب وفارس ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث أبو الروم ، وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين ، وليس فى القرآن ولا فى السنة نص قاطع على شىء من هذا .

٧٨ – وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ .

تركنا عليه الثناء الحسن إلى آخر الدهر ، فهو الأب الثانى للبشرية ، وهو مثل أعلى فى الصبر والاحتمال .

٧٩ – سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : أبقينا له دعاء الناس ، وتسليمهم عليه ، أمة بعد أمة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقولهم : سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : تحية وأمان وثناء على نوح فى العالمين : فى الملائكة ، والإنس ، والجن .

وفى معنى الآية قوله تعالى : قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ... (هود : ٤٨) .

وقال بعض المفسرين :

المراد من العالمين : الأنبياء ، إذ لم يُبعث نبى بعده إلا أُمر بالاقتداء به .

قال تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ... (الشورى : ١٣) .

وقال سبحانه : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وأولو العزم من الرسل خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

٨٠ - إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

لقد أكرمنا نوحًا واستجبنا دعاءه ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وجعلنا الملائكة والإنس والجن تستمر فى الرضا والتقدير والدعاء لنوح ، والتسليم عليه : سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ . لأننا نجازى الإحسان بالإحسان، وقد كان نوح محسنًا، فجعلنا له لسان صدق يذكر مآثره وجهاده الطويل مع قومه، وصبره عليهم.

٨١ - إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

لقد كان نوح مؤمنًا قوى الإيمان فى دعائه لربه ، وجهاده مع قومه ، وصبره وتحمّله ، وأساس ذلك صدق إيمانه ، وعظيم إخلاصه .

والمقصود من الآية الدلالة على جلال الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم .

٨٢ - ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ .

لقد أضفنا إلى النعم التى أنعمنا بها على نوح ، أننا أغرقنا أعداءه الكافرين ، الذين آذوه وأعرضوا عن دعوته ، وحرف العطف : ثُمَّ ، للتراخى فى الذكر لا فى الواقع ، إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق ، أى : وفوق ذلك أغرقنا الآخرين من كفار قومه ، ولم نبق لهم عينا ولا أثرا .

★ ★ ★

إبراهيم الخليل يحطم الأصنام

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾

المفردات :

من شيعته : من أنصاره وأعوانه ، وممن سار على دينه ومنهاجه .

بقلب سليم : بقلب خالص من آفات القلوب ، كالحقد والحسد والنية السيئة ، مع الإقبال على الله بقلب طاهر متبتل ، راغب في مرضاته .

الإفك : أسوأ الكذب والاختلاق .

نظر : تأمل بعينيه .

سقيم : مريض عليل .

فتولوا عنه : أعرضوا عنه .

مدبرين : راجعين .

فراغ إلى آلهتهم : فذهب إلى أصنامهم فى خفية وحيلة .

باليمين : بيده اليمنى ، أو بالقوة والشدّة .

يزفون : يسرعون ، من زفّ القوم زفيفا : إذا أسرعوا ، ومنه : زفيف النعام ، وهو صوت النعام إذا أسرع.

تمهيد :

تتناول الآيات جانبا من قصة إبراهيم الخليل ، وقد كان إبراهيم أمّة . أى: متعدد الجوانب ، مخلصا لله تعالى ، وقد ذكرت قصة إبراهيم الخليل فى سور كثيرة من القرآن الكريم ، لكن كل سورة عنيت بجانب من جوانب قصة إبراهيم .

ففى سورة البقرة نجد اهتمامًا بجانب العقيدة وتوحيد الله والإخلاص له ، حيث نجد نقاشه مع النمروذ ، وإخلاصه فى بناء البيت ، وقوله لله : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... (البقرة : ٢٦٠) .

وفى سورة مريم نجد حوار إبراهيم مع أبيه نديًا هادئًا ، حكيما مؤيدا بالأدلة والبراهين .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا . (مريم : ٤٢) .

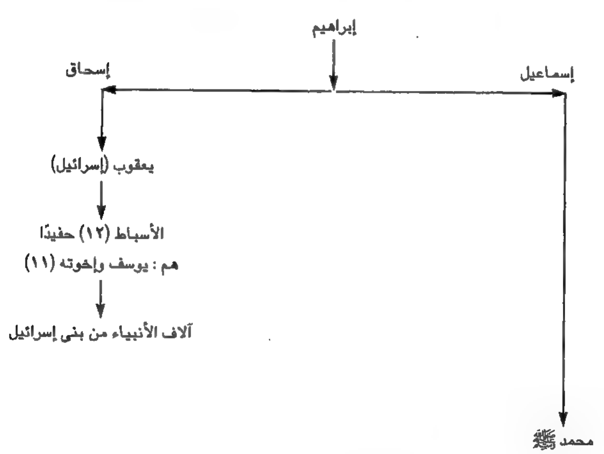
وفى سورة الأنبياء نجد الآيات (٥١ – ٧٢) تتحدث عن مناقشة قومه فى عبادة الأصنام ، ثم تكسير إبراهيم للأصنام ، ثم رغبة قومه فى معاقبته بالتحريق بالنار : قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . (الأنبياء : ٦٩)

وفى سورة الشعراء نجد آيات كريمة تتحدث عن إخلاص إبراهيم ومحبته لخالقه ، حيث يقول : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ (الشعراء : ٧٨ – ٨٢) .

ثم تأتى هذه السورة – سورة الصافات – فنجد الآيات (٨٣ – ١١٣) .

تتحدث عن إبراهيم الخليل وتكسيره الأصنام ، ودعائه أن يرزقه الله ذرية صالحة ، واستجابة الله له، حيث رزقه بإسماعيل ، وابتلائه تعالى لإبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، واستجابة الصبى والأب لأمر الله تعالى ، ثم فداء إسماعيل بذبح عظيم ، واعتباره قدوة وأسوة فى هذا البلاء المبين ، وبشارة إبراهيم بإسحاق، ومن نسل إسحاق يعقوب ، الملقب بإسرائيل ، وإنجاب اسرائيل اثنى عشر ولدًا ، منهم يوسف عليه السلام .

ويعتبر إبراهيم الأب الثالث ، أو آدم الثالث بالنسبة للأنبياء من بعده ، فآدم الأب الأول ، ونوح الأب الثانى بعد الطوفان ، وإبراهيم آدم الثالث بالنسبة لشجرة الأنبياء ، على نحو ما ترى فى هذا الرسم :



فلم يكن من نسل إسماعيل نبى إلا محمد ﷺ ، وكان من نسل إسحاق جميع الأنبياء والرسل ، وهم آلاف من المرسلين ، ذكر القرآن بعضهم وترك بعضهم .

قال تعالى : مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... (غافر : ٧٨) .

وقال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .
(الأنعام : ٨٣ – ٨٧)

التفسير :

٨٣– وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ .

الضمير يعود إلى نوح عليه السلام ، أى : وإن ممن شايع نوحا فى دعوته إلى الله ، وصبره على قومه، وبذله النفس والنفيس فى مرضاة الله ، مع سلامة القلب والإخلاص لله – إبراهيم عليه السلام فقد اتفقت شريعتاهما على توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وإن اختلفت فروع الشريعتين .

٨٤– إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

أى : شايعه حين جاء ربه ، أى : أقبل على خالقه بقلب سليم من الحقد والحسد والآفات ، طاهر من الرياء ، نقى من العلائق الدنيوية ، حافل بالتبتل والإخلاص والرجاء فى جانب الله تعالى ، وسلامة القلب أهم ما ينبغى أن يتوافر فى المسلم لسلامة أعماله ، وصلاح جميع أحواله .

٨٥– إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ .

هذه الآية وما بعدها بيان وتفسير لسلامة قلب إبراهيم ، وإخلاصه فى الدعوة إلى الله ؛ فقد ناقش أباه فى عبادة الأصنام ، وكذلك قومه ، وهنا يسألهم سؤال منكر عليهم ، لأن الذى يُعبَد هو الخالق الرازق القوى القادر ، والأصنام لم تَخْلُق ولم تَرْزُق ، ولا تدفع عن نفسها ضُرًّا ، ولا تجلب نفعا لنفسها ، فضلا عن غيرها.

٨٦– أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ .

والإفك : أشد الكذب ، أى : أتعبدون آلهة كاذبة ، أو عبادة كاذبة لآلهة موهومة ، وأصنام تصنعونها بأيديكم ، ثم تؤمنون بها ، وتخصُّونها من دون الله بالعبادة ، ولو فكرتم لرأيتم أنكم أشرف منها ؛ لأنكم الصانعون وهى المصنوعة .

٨٧- فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

فما ظنكم بما يفعل بكم رب العالمين ، وكيف يعاقبكم بعد ترك عبادته ، وعبادة أصنام من دونه .

قال قتادة : يعنى : ما ظنكم بما هو فاعل بكم إذا لاقيتموه وقدْ عبدتم معه غيره ؟

٨٨- فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ .

يروى أنه كان للقوم عيد – ربما كان هو عيد النيروز – يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات بعد أن يضعوا الثِّمار بين يدى آلهتهم لتباركها ، ثم يعودون بعد الفُسحة والمرح ، فيأخذون طعامهم المبارك ، وقد انتظر ابراهيم هذا اليوم لينفِّذ ما اعتزم عليه ، فلما طلبوا منه الخروج معهم إلى عيدهم اعتذر لهم ، بعد أن نظر إلى السماء ، وقال : إِنِّى سَقِيمٌ . أى : عليل القلب ، ضيِّق أشد الضيق من تصرفاتكم ، فتركوه خوفا من العدوى .

٨٩، ٩٠- فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ .

أى : إنى سقيم القلب ، ضيِّق الفؤاد ، مريض بالهم والحزن مما أنتم عليه ، لكنهم فهموا أنه مريض مرضًا حسِّيًا ، فأسرعوا فى الإدبار والذهاب إلى عيدهم ، وتركوه مع الأصنام ، وهى فرصة كان يتحين وجودها ويستعدّ لها .

٩١- فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ .

فمال إبراهيم إلى الآلهة المدَّعاة ، وتسلل فى خفية إلى الأصنام ، وقال للأصنام – فى استهزاء وسخرية – : ألا تأكلون من هذا الطعام المتعدد الأصناف ، المختلف الأنواع الذى نثره حولكم هؤلاء السفهاء فى يوم عيدهم ؟

٩٢- مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ .

ما الذى جعلكم صامتين لا تردّون جوابا ولا تنطقون ؟ وهو سؤال يقصد به المبالغة في السخرية والاستهزاء .

٩٣- فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ .

فمال إبراهيم على الأصنام يضربها ضربا قويا ، ويستخدم يمينه – وهى أقوى الجارحتين – فى تكسير الأصنام ، وجعلها جذاذا وقطعا مهشمة .

٩٤- فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ .

فأقبلوا يسرعون الخطى ، ويحدثون حوله زفيفا ، كصوت النعام حين يسرع بالجرى ، إنهم جمع هائج غاضب ، يريد أن ينتقم ممن كسَّر أصنامهم .

★ ★ ★

نجاة إبراهيم من النار ، وفداء إسماعيل

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات :

ما تنحتون : ما تصنعونه بأيديكم .

الجحيم : النار الشديدة الإيقاد .

كيدا : مكرًا وسوءًا .

الأسفلين : الأذلين المقهورين .

ذاهب إلى ربى : مهاجر إلى حيث أمرنى ، أو حيث أتجرد لعبادته .

هب لى من الصالحين : ارزقنى الولد الصالح .

فلما بلغ معه السعى : فلما بلغ السن التى تساعده على أن يسعى مع والده فى أعماله ، وحاجات المعيشة .

تــــــــرى : تشير وتفكر ، مأخوذ من الرأى .

أسـلـمـا : استسلما لأمر الله وانقادا له .

تـلـه : كبّه على وجهه .

صدّقت الرؤيا : وفّيتها حقّها بالعزم على تنفيذ ما أمر الله .

البلاء المبين : الاختبار البيِّن الذى يتميز فيه المخلص من غيره .

بذبح عظيم : كبش سمين عظيم القدر.

باركنا عليه : أفضنا عليه البركات .

ظالم لنفسه : مويق لها ، ومهلكها بالكفر والمعاصى .

تمهيد :

إبراهيم الخليل له مواقف كثيرة فى وفائه وإخلاصه وتطوعه لعمل الخير ، وموضوع تكسير الأصنام ونقاش قومه سبق ذكره فى سورة الأنعام وغيرها ، لكن موضوع ذبح إسماعيل لم يذكر فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع من سورة الصافات ، ورؤيا الأنبياء حق ، فقد رأى إبراهيم فى منامه التكليف من الله بأن يذبح ولده إسماعيل ، وفى الصباح أخبر ولده بذلك ، فقال إسماعيل : يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ . (الصافات : ١٠٢) .

ولما حاول ذبح إسماعيل لم تنجح المحاولة ، وأنزل الله كبشا سمينا من السماء فداء لإسماعيل .

وقال سبحانه : إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ . (الصافات : ١٠٦) .

لقد كان امتحانا قاسيا ، نجح فيه إبراهيم وإسماعيل ، وسُنَّ من أجله ذبح الأضحية فى العيد الأكبر، ورزق الله إبراهيم غلاما آخر ، هو إسحاق ، وبارك الله على إبراهيم وعلى إسحاق بالرضا والتوفيق ، ومن نسل إسحاق كان يعقوب ، ومن نسل يعقوب الأسباط ، وهم أحفاد إبراهيم ، ومن نسلهم آلاف الأنبياء لبنى إسرائيل .

التفسير :

٩٥- قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ .

أى : قال إبراهيم عليه السلام لقومه حين سألوه : ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ . (الأنبياء : ٦٢) .
قال لهم : أيستقيم منكم أن تعبدوا أصنامًا تنحتونها من الصخر ، وتصنعونها بأيديكم من الحجارة ؟ والإله لا ينبغى أن يكون مصنوعا ، بل هو الصانع الخالق للكون وما فيه .

٩٦- وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

أى : إن الله تعالى هو خالقكم ، وخالق ما تعملونه من الأصنام ، فهو سبحانه الذى وهبكم القدرة والقوة واليد والعمل .

قال القرطبى :

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

(مَا) فى موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها.

وروى البخارى ، عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته» ، ذكره ابن كثير فى تفسيره ، فهو سبحانه الخالق ، وهو سبحانه الصانع ، وهو سبحانه المُستحق للعبادة .

٩٧- قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ .

هكذا الباطل ورجاله ، عندما يغلبهم الحق بالمنطق والحجة والدليل ، بأنّ الله هو الصانع الحقيقى لكل شىء فى الكون ، حتى الإنسان وعقله ويده ومداركه وصنعته ، فهو المستحق للعبادة ، أما الأصنام فإنها مصنوعة لا صانعة ، والإله الحق صانع لا مصنوع .

أى : عندما قهرهم إبراهيم بالحجة تعمدوا إفحامه بالقوة ، فعزموا على بناء بنيان يجمع فيه الحطب، وتضرم فيه النيران ، ويلقى إبراهيم فى وسط النيران ليكون عبرة لكل من تسوّل له نفسه الخروج عليهم.

٩٨- فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ .

أى : أرادوا تدبير الهلاك له وإحراقه ؛ فنجاه الله من النار وجعلها بردًا وسلاما عليه ، وكان ذلك معجزة لإبراهيم ، حيث أرادوا الكيد له وإهلاكه ، فنجاه الله ورفع شأنه ، وأظهر صدقه ، وعلا شأن إبراهيم، وأصبح أعداؤه مقهورين أذلاء أسفلين .

٩٩- وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ .

أى : قال إبراهيم حين نجاه الله من النار ، وأمره بالهجرة إلى بلاد الشام : إنى ذاهب إلى طاعة ربى ، والطريق الذى اختاره لى ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل الله بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى .

قال القرطبى :

هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة ، وأول من فعل ذلك إبراهيم – عليه السلام – وذلك حين خلّصه الله من النار ، فقال : إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى . أى : مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى، فإنه ، سَيَهْدِينِ . فيما نويت إلى الصواب . اهـ .

وقال مقاتل :

هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة إلى الأرض المقدسة ، وهى أرض الشام .

ويتبادر إلى الذهن موقف مُشابه ، هو موقف موسى عليه السلام ، حين خرج مهاجرًا من مصر .

قال تعالى : فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . (القصص : ٢١ ، ٢٢) .

١٠٠ – رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

أى : هب لى من لدنك ذرية صالحة ، تشدُّ أزرى ، وتعيننى فى كبرى ، فقد تركتُ وطنى وتوجهت وحيدًا حيث أمرْتَنى ، وأنا فى حاجة إلى ذرية صالحة ، تكون قرة عين لى ، وتؤنسنى فى غربتى ووحدتى .

١٠١ – فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ .

استجاب الله دعاء إبراهيم ، وبشره بولده البكر الحليم الصابر .

وقد انطوت البشارة على ثلاث :

١ – أنه ولد ذكر .

٢ – أنه يبلغ ويدرك مدارك الشباب .

٣ – أنه يكون فى غاية الحلم والخلق والرضا .

وجمهور العلماء والمفسرين على أن البشارة الأولى كانت بإسماعيل ، فلما امتحن الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، فصبر وأطاع وامتثل لأمر الله هو وابنه إسماعيل ، صرف الله عنه التكليف بذبح إسماعيل وأنزل الفداء من السماء ، وهو كبش كان يرعى فى الجنة قدّمه قابيل ، ثم حمله الملَك إلى إبراهيم ليذبحه بديلا عن ذبح إسماعيل ، ثم كافأ الله إبراهيم بأن بشره بإسحاق ، وبشره بأن إسحاق سيلد حفيدًا لإبراهيم يسمى يعقوب .

وزعمت اليهود أن الذبيح هو إسحاق ، حيث حسدوا المسلمين أن يتصف جدّ نبيهم بالحلم والصبر ، وقد اختار هذا الرأى ابن جرير الطبرى .

واختار ابن كثير أن الذبيح هو إسماعيل ، وأورد مبحثا فى تفسير هذه الآيات عنوانه : (ذكر الآثار الواردة بأن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وهو الصحيح المقطوع به) ، وفيه رواية عن ابن عباس أنه قال : المفْدَى إسماعيل عليه السلام ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

وقد قال تعالى : فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ . (هود : ٧١) .

أى : بابن وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق ، وله فيه من الموعِد بما وعده ، وما الذى أُمر بذبحه إلا إسماعيل .

١٠٢ – فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

تبدأ قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام ، وقد بشر الله الخليل بإسماعيل ، ويفهم من السياق أن إسماعيل قد شبَّ عن الطوق ، وبلغ مبلغ القدرة على السعى ، ومساعدة والده فى العمل ، وقيل كان عمره ثلاثة عشر عامًا .

ورأى إبراهيم فى المنام أن الله يأمره بذبح إسماعيل ، وكان ذلك ليلة الثامن من ذى الحجة ، فتروى إبراهيم فى الأمر ، وقال : هل هذه الرؤيا من الله أم أضغاث أحلام ؟ فسُمّى يوم الثامن من ذى الحجة بيوم التروية . وفى الليلة التالية تأكد الأمر بذبح إسماعيل ، وفى الصباح عرف أنه أمر من الله ، فسُمّى عرفات . وفى ليلة العيد تأكّد الأمر فعزم على التنفيذ فى الصباح ، فسُمى يوم الأضحى ، أى : يوم الذبح والتضحية ، وقد شاور إبراهيم ولده ليعدّ نفسه للأمر ، وليثبِّته ويصبِّره إن احتاج إلى ذلك .

فالأمر كان خطبا كبيرا : الخليل يسلم أمره لله ، ويتكلم فى هدوء ورزانة ، فيقول : يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ... أى : فلما رزق الخليل بإسماعيل ، وكبر إسماعيل ، وأصبح قادرا على مساعدة والده، ومعاونته فى العمل ، أجلس الخليل ولده إسماعيل بجواره ، وقال : يا بنى ، إنى رأيت رؤيا من الله تعالى ، يكلِّفنى بذبحك تقربا إليه ، لكن إسماعيل كان هادئا رزينا ، ثابتا موفقا حين قال : يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

يَٰٓأَبَتِ . فى هدوء وثبات ، ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ . نفِّذ ما أمرك الله به من ذبحى ، ستجدنى بمشيئة الله وتوفيقه ومعونته من الصابرين الثابتين الملتزمين .

ونلحظ هنا أنه قدّم المشيئة ؛ لأنه لا حول له ولا قوّة فى هذا الأمر الجلل إلا بمشيئة الله وتوفيقه .

قال العلماء :

علّق صبره على مشيئة الله فى قوله : سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ . فلما استثنى وفقه الله للصبر ، وإنه لموقف مؤثر فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ البشرية : أبٌ يضحى فى هدوء وامتثال ، وغلام فى ميعة الصبا – ثلاثة عشر عاما – يمتثل هادئًا مستعينا بالله ، صابرًا راضيًا مستجيبًا ، صادقًا فى وعده، حليما مطيعا لربّه ولوالده ، لقد كان بلاءً أىّ بلاء ، وقد استجابا لأمر الله ربّ العالمين ، وهكذا الأنبياء عليهم السلام ، يلهمهم الله تعالى فى جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى ، والكمال الخلقى .

كمْ تحمّل نوح الذى مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، كم تحمل أيوب الذى مرض مرضا شديدًا ، وانهدم منزلٌ على أولاده ؛ فصبر أيوب ، ودعا الله فى تضرع وإخلاص ، فاستجاب الله دعاءه ، ويسر له الشفاء ، ورزقه ذرية صالحة ، ضعف أولاده السابقين . ويونس حين تضرع إلى الله وهو فى جوف الحوت ، فاستجاب الله له ، وأمر الحوت أن يلفظه على الشاطئ ، ثم أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ؛ فآمنوا فأكرمهم الله فى الدنيا والآخرة . وموسى الذى قارع جبروت فرعون ، وصاول السحرة ، واستعد للهجرة ، وفلق الله له البحر ؛ فسار فيه هادئا فوق طريق يابس ، ثم أغرق الله فرعون وقومه، ونجّى موسى ومن معه من المؤمنين . وعيسى وقد حاول الأعداء قتله وصلبه فرفعه الله إليه ، ومحمد ﷺ وقد مكث فى مكة يدعو قومه ثلاثة عشر عاما ، ثم هاجر إلى المدينة ، وحارب فى غزوات متعددة ، مثل : بدر ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، وفتح مكة ، وتبوك ، وحنين ، والطائف ؛ ثم نصره الله نصرا مبينا .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، وما يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة» [٤٢] .

١٠٣ – فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ .

فلما استسلما لأمر الله ، حيث انقاد إبراهيم للأمر ، وسلّم إسماعيل نفسه فى رضا وإيمان وتجاوب ، وألقى الأب ولده على جنبه، حيث جزء من الجبين على الأرض ، أو كبّه على وجهه بإشارة الولد ، كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بين الأب وبين تنفيذ أمر الله .

قال الآلوسى فى تفسيره :

أخرج غير واحد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى ، عسى أن ترحمنى فلا تجهز علىّ ، اربط يدىّ إلى رقبتى ، ثم ضع وجهى للأرض .

وفى الآثار حكاية أقوال كثيرة غير ذلك ، وكل هذه الأقوال تدور حول امتثال الغلام لأمر الله وإذعانه لقضائه .

١٠٤، ١٠٥، ١٠٦ - وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ .

أى : عندما امتثلا لأمر الله ، واستعدًا تمام الاستعداد ؛ أرسل الله الملك من خلف إبراهيم ، فناداه : يا إبراهيم ، قد صدَّقت الرؤيا ، أى : قد استعددت استعدادًا تامًا لتنفيذ الرؤيا وتصديقها ، ورأينا منك الصدق والاستجابة ، ومن إسماعيل صدق الوعد ، فكان الفضل العظيم ، والفرج الكبير ، والاستبشار والاغتباط ، والحمد لله والشكر له على ما أنعم عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، والثواب الجزيل ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب .

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

أى : فعلنا ذلك - بقبول عمل إبراهيم ، والفداء بذبح عظيم - لأن من سنتنا إكرام المحسنين ، ورفع درجاتهم ، وتفريج كرباتهم ، وكشف الهم والغم عنهم .

إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ .

هذا هو الامتحان الشديد والاختبار القوى ، والمحنة الصعبة ، البالغة أقصى غايات القسوة والمرارة ، والتى لايحتملها إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين ، فمن المعتاد أن يذهب الناس للجهاد ، وأن يتطوعوا بالشهادة فى طلب النصر ، وأن يضحى فرد من أجل حياة أمة ومستقبلها ، أما أن يكلَّف أب بأن يذبح ولده الوحيد البكر الذى جاءه على الكبر ، وأن يعرض الرأى على الغلام ، فتكون منه الاستجابة والمعونة ، ومعاونة الأب فى هذا التكليف ، فهذا فعلا هو البلاء المبين ، والاختبار الشديد ، والامتحان الصعب الذى لا ينجح فيه إلا أمثال الخليل إبراهيم ، وأمثال إسماعيل الصادق الوعد ، الرسول النبى .

قال تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۞ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا . (مريم : ٥٤ ، ٥٥) .

١٠٧ - وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ .

والذِّبح بمعنى المذبوح ، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول ، كالطِّحن بمعنى المطحون ، قال الحسن البصرى : أى : وفديناه بوَعْل أهبط عليه من جبل ثبير . اهـ .

وقيل : فديناه بكبش عظيم الجثة مكتنز لحما وشحما ، أو كبش عظيم القدر لأنه عطاء الله ، والعطاء يعظم بعِظَم معطيه ، ولأنه يفدى به الله نبيا ابن نبى .

١٠٨، ١٠٩ - وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ۞ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ .

أى : فوق منتنا عليه بالفداء والتوفيق ، أبقينا له ذكرًا حسنا بين الناس ، فاليهود يجلّونه ، والنصارى يعظمونه ، والمسلمون يبجلونه ، والمشركون يحترمونه ، ويقولون : إنّا على ملة إبراهيم أبينا ، وذلك استجابة لدعوته حين قال : وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ۞ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ . (الشعراء : ٨٤ ، ٨٥) .

سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ .

وجعلنا التحية والسلام على إبراهيم منا ومن الملائكة ، ومن الإنس والجن ، ومن سائر الأمم المتعاقبة بعده ، فكل أهل الأديان يحيونه بالسلام عليه بلغاتهم .

١١٠ - كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

أى : مثل هذا الجزاء الحسن من دوام الذكر ، وخالد الثناء ، نجزى به المحسنين فى أعمالهم ، الصادقين فى إخلاصهم ونيّاتهم .

١١١ - إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

إن إبراهيم من جملة عبادنا المؤمنين ، الراسخين فى الإيمان ، الصادقين فى العقيدة ، والآية فيها تعظيم لقدر الإيمان الصادق ، وبيان كاشف عن أن الذى حمل إبراهيم على الوفاء بذبح ابنه ، والصدق فى طاعة ربّه ، والنجاح فى البلاء ، إنما كان سببه صدق العبودية لله ، وصدق الإيمان بالله رب العالمين .

١١٢ - وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

نظرًا لصدق بلاء إبراهيم ، ووفائه فى الاستعداد لذبح إسماعيل ؛ بشرناه بولد آخر يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون نبيا من الصالحين ، فهى عدة بشارات ، منها : أن المُبَشَّر به غلام ، واسمه إسحاق ، وأنه يبلغ مبلغ الرجال ، ويوحى إليه بالنبوة ، ويكون من الصالحين ، أى : المطيعين لله ، المتسمين بالصلاح وفعل الخيرات، وترك السيئات .

١١٣ - وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ .

أنزلنا البركة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وعلى إسحاق ابنه ، حيث باركنا فيه وجعلنا النبوة فى عقبه ، وطلبنا من المسلمين فى صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة فيقولوا : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد» .

وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ .

أى : ومن ذرية إبراهيم وإسحاق من أحسن فى عمله فآمن بربه ، وأطاع أمره ، واجتنب نواهيه ، ومن ذريتهما من ظلم نفسه ظلما مبينا واضحا ، حيث دسَّى نفسه بالكفر والفسوق والمعاصى ، وفى ذلك تنبيه إلى أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر دائما ، فقد يلد البار فاجرًا ، وقد يلد الفاجر بارًا ، فابن نوح أغرق ودخل النار ، ووالد إبراهيم كان من الضَّالين ، وزوجتا نوح ولوط نموذج لكافرتين فى النَّار ، وزوجة فرعون نموذج لامرأة مؤمنة لها فى الجنة منزلة عالية .

وهكذا لا يضير الآباء ظلم الأبناء ، ولا يعود عليهم بنقيصة ، ما داموا لم يقصِّروا فى تربية أو توجيه أو نصيحة .

قال تعالى : أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ . (النجم : ٣٨) .

★ ★ ★

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

المفردات :

منـنـا : أحسنَّا وأنعمنا عليهما بالنبوة والنجاة والنصرة .

الكرب : المكروه والشدة .

الكتاب المستبين : الواضح ، وهو التوراة .

الصراط المستقيم : الذى لا عوج فيه ، لأنه الموصل إلى الحق والصواب .

التفسير :

١١٤- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ .

بعد الفراغ من قصة إبراهيم وإسماعيل ، وما تضمنته من أخبار غريبة وأحداث عجيبة ، ومنح جزيلة، ومواقف جليلة ، شرعت الآيات فى تقديم شريحة من قصة موسى وهارون ، وصُدرت القصة بالمنة : لإبراز فضل الله على رجلين أعزلين من السلاح والقوة ، ونجاحها فى رسالتهما ، ونجاتهما من القتل والذُّلّ ، ونصرهما على فرعون وجيشه ، وفوق ذلك أعطاهما الله التوراة هدًى ونورا ، وهداهما الطريق الواضح ، وأعقبهما الذكر الحسن والثناء الجميل .

وخلاصة معنى الآية :

كانت لنا منن ونعم على موسى وهارون : بالرسالة والنبوة ، والانتصار على السحرة ، والنجاة من الظالمين ، والنجاة من الغرق ، وهلاك فرعون وجيشه ، ونجاة موسى والمؤمنين به .

١١٥- وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ .

نجينا موسى وهارون ومن تبعهما من المؤمنين من تسلط فرعون وقومه وظلمهم ، حيث كانوا يقتلون أبناء بنى إسرائيل الذكور ، ويستحيون الإناث ، ويعاملون بنى إسرائيل معاملة العبيد والأرقاء ، إلى ضروب أخرى من المهانة والمذلة ، وكانت ولادة موسى فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

قال تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . (البقرة : ٤٩) .

١١٦- وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ .

لقد مرت المنن على موسى وهارون بعدة مراحل :

(أ) تبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه .

(ب) نجاتهما ومن آمن بهما من عذاب الإبادة الذى يمارسه فرعون ، بقتل الذكور واستحياء الإناث .

(جـ) النصر على فرعون والغلبة عليه .

ومع أن النصر مصاحب للغلبة وللنجاة من فرعون ، إلا أن القرآن هنا أظهر النجاة كمنّة من المنن تستحق الشكر وحدها ، ثم نعمة النصر على ملك قويٍّ متمكن ، ذى بطش وقوة ، وبطانة وجيش قوى مطيع فهى منن متعددة .

١١٧- وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ .

بعد النجاة والنصر أعطاهما الله التوراة فيها هدًى ونور ، وتشريع وأحكام ؛ لتنير لهما الطريق ، فهى كتاب جامع مبين واضح ، مشتمل على ما يحتاج إليه البشر فى مصالح الدين والدنيا .

قال تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... (المائدة : ٤٤) .

وقال تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ . (الأنبياء : ٤٨) .

١١٨- وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ .

يسرنا لهما الطريق الواضح ، وألهمناهما الخطة المحكمة الموصلة إلى تبليغ الرسالة ، وإقامة الحجة، وأنعمنا عليهما بالمعجزة والنصر، ثم الذكر الحسن .

١١٩، ١٢٠- وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ .

جعلنا لهما ذكرًا حسنا ، وثناء متصلا فى أمم الأرض وعالم السماء ، فالملائكة والجن والإنس يسلمون عليهما أبد الدهر ، ويثنى عليهما الناسُ الثناء الجميل .

وتظل الأمم والجماعات والأفراد إلى يوم الدين ، تقول : سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . وما فى معناه ؛ أى: ما أبدع عملهما فى إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وإبلاغ الرسالة ، وإنقاذ المستضعفين ، وإهلاك الظالمين، ونشر الإيمان بين الناس ، فلهم من الجميع السلام اللفظى والسلام المعنوى .

١٢١، ١٢٢- إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

بمثل هذا التكريم نجازى المحسنين ، ونكافئ العاملين جزاء سخيا وافيا .

إنهما ، أى : مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . من عبادنا المؤمنين ، الذين أخلصوا فى إيمانهم ، وتحملوا عبء الرسالة والنبوة إلى ملك ظالم قاهر ، فأوضحا له الحجة والبينة ، وجاهدا فى الله حق جهاده ، وكان الدافع لهما هو الإيمان الصادق ، فما أعظم الإيمان ، إنه مفتاح الخير ، وطريق النجاة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة .

* * *

قصة إلياس عليه السلام

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المفردات :

إلياس : هو إلياس بن ياسين من سبط هارون ، أخي موسى – عليهم السلام – بُعث بعده ، وقيل : إنه إدريس .

بعلاً : اسم صنم لأهل (بكّ) من الشام ، وهو البلد المعروف اليوم باسم «بعلبك» ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .

لمحضرون : لشاهدون العذاب ، مساقون إليه .

إلياسين : لغة في إلياس ، كسيناء في سينين ، وقيل : هو جمع له ، أريد به هو وأتباعه ، مثل : المهلبيين، والناصريين، والخبيبيين .

تمهيد :

قصة نبي كريم ، دعا قومه إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام فكذبه قومه ، واستحقوا عذاب الآخرة، ونجى الله عباده المخلصين ، وترك الذكر الحسن والثناء الجميل على إلياسين .

التفسير :

١٢٣- وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

قال ابن جرير الطبرى :

هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى عليهما السلام ، فهو إسرائيلى من سبط هارون ، وينتهى نسبه أيضا إلى إبراهيم وإسحاق ، ويعرف إلياس فى كُتب الإسرائيليين باسم (إيليا) ، وقد أرسله الله إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه (بعلا) ويقال : إن رسالته كانت فى عهد (آخاب) أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر ق . م .

ونلحظ أن القرآن الكريم قد لوَّن فى عرض القصص ، ففى قصة نوح كان المدخل : وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ... (الصافات : ٧٥) . وفى قصة إبراهيم : وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ . (الصافات : ٨٣) . وفى قصة موسى وهارون : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ . (الصافات : ١١٤) . وهنا عند الحديث عن قصة إلياس قال : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . وهو لون من ألوان التفنن فى القول ، وروائع الإعجاز ، حيث يختار لكل قصة ما يختاره منها ، ويختار لها المدخل والجزء المعروض من القصة ، والخاتمة ، لقد أراد الله تصريف القول ، وتلوينه لأنه العليم بعباده ، الخبير بما يناسبهم .

وخلاصة معنى الآية :

وإن من أنبياء الله تعالى ورسله الذين أرسلهم الله إلى قومهم لإرشادهم – إلياس عليه السلام .

١٢٤– إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ .

حين قال لقومه : ألا تتقون الله الذى خلقكم ورزقكم ، وبيده الخلق والبعث ، وتخافونه وتطيعونه .

١٢٥– أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ .

أتعبدون صنمًا يسمَّى بَعْلاً ، لا ينفع ولا يضرّ ، ولا يسمع ولا يجيب ، وتتركون أحسن من يسمَّى خالقا ، فهو خالق الكون والإنسان ، وبيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير .

والبعل : اسم الصنم الذى كان يعبده قومه ، وقيل : سميت باسم هذا الصنم مدينة (بعلبك) بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل ، أى : الرب بلغة اليمن .

١٢٦– ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ .

ولفظ الجلالة فى قوله : ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ . بدل من : أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ . [٤٤] .

أى : أتعبدون صنما ، وتتركون أحسن من خلق ، وهو الله الذى خلقكم وأنعم عليكم ، وهو ربكم ورب آبائكم السابقين عليكم ، من لدن آدم عليه السلام ، الذى عمرت بهم الدنيا ، وعن طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة ، فهو مستحق للشكر منكم ومن آبائكم .

١٢٧– فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

أى : فكذبوه فى دعوته إلى توحيد الله ، ونبذ عبادة الصنم ؛ فاستحقوا أن يُحضَروا يوم القيامة ، وأن يحشروا للسؤال والحساب والعقاب ، فلفظ الحضور كناية عن استحقاقهم للحضور ، كما يستدعى المجرم

للحضور للمساءلة فى النيابة أو قسم الشرطة ، وليس المراد الإحضار وحده ، بل ما يترتب عليه من المساءلة والمحاسبة والمعاتبة والمعاقبة؛ ثم أخرج من بينهم جماعة لم يكذبوا نبيهم بل أطاعوه ، فقال :

١٢٨- إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .

إلا قومًا أخلصوا لله العبادة ، وأطاعوا رسوله ، فإن الله يحسن جزاءهم وعاقبتهم فى الجنة .

١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢- وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

تركنا على إلياسين فى الأمم التالية بعده الذكر الحسن ، والثناء الجميل المشتمل على قولهم : سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ . وما فى معناه ، وإنا بمثل هذا الجزاء الحسن نجازى كل محسن من عبادنا المؤمنين .

قال تعالى : هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ . (الرحمن : ٦٠) .

★ ★ ★

قصة لوط عليه السلام

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

المفردات :

الغابرين : الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين ، من : غبر ، أى : بقى أو مضى ، فهو من الأضداد.

دمرنا : أهلكنا .

مصبحين ،وبالليل: داخلين فى الصباح والمساء ، أى : نهارًا وليلًا .

التفسير :

١٣٣- وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

هذا مدخل لجانب من قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن أخ لإبراهيم ، وقد آمن به وهاجر معه من العراق إلى الشام ، وأرسل الله لوطا إلى قرية سدوم ، من قرى الشام ، وكان أهلها يعبدون الأصنام ، ويرتكبون فاحشة اللواط ، أى استغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وهى المثلية الجنسية ؛ فأرسل الله لوطا إليهم يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، والابتعاد عن هذه الفاحشة النكراء .

قال تعالى : أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ . (الشعراء : ١٦٥ - ١٦٧) .

١٣٤- إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ .

على طريقة القرآن الكريم فى عرض بعض جوانب القصة للعظة والاعتبار ، ولاستنباط الإنسان الأجزاء المحذوفة .

وخلاصة المعنى :

لقد أرسلنا لوطا إلى قومه لدعوتهم للإيمان ، والابتعاد عن اللواط ، فكذبوه وهددوه ومن آمن معه بالطرد من قرية سدوم ، وتمادوا فى عتوهم وعنادهم ، وكانوا يأتون المنكر فى ناديهم وأماكن اجتماعهم ، ويقطعون الطريق ويغتصبون المارّة ، ولما تمادوا فى عنادهم أمره الله أن يسير مع من آمن به فى جزء من الليل ، ولا يلتفت إلى قومه حتى لا يرق قلبه من أجلهم ، فإن الله عز وجل قد قدّر إهلاكهم، وسار لوط وأهله أجمعون ليلا فنجاهم الله .

١٣٥- إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ .

إلا امرأته العجوز التى انتصرت لقومها ، وتعاونت معهم ، وأفشت أسرار نبى الله لوط لهم ؛ فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، وجعلنا محلّتهم من الأرض بحيرة ذات ماء ردىء الطعم ، منتن الريح [٤٤].

١٣٦- ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ .

حمل جبريل قريتهم إلى أعلى ، ثم جعل عاليها سافلها ، وامطرت عليهم السماء حجارة مهلكة فتم تدميرهم جزاء خروجهم على أمر الله ، وسلوكهم الشاذ المعيب ، واستهانة برسول الله لوط والمؤمنين به.

١٣٧، ١٣٨- وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

وكان أهل مكة يسيرون فى تجارتهم إلى الشام ، ويمرون على سدوم فى طريقهم ، فلفت القرآن أنظارهم إلى أنهم يمرون على هذه القرية صباحًا أو مساءً أفلا تتعظون بهم ، وتستخدمون عقولكم ، فى أن هؤلاء هلكوا بسبب مخالفة رسولهم ، وعدم إيمانهم بربهم ، وأنتم تفعلون نفس فعلهم ، وتستحقون مثل هذه العقوبة ، أو تبادروا بالتوبة إلى الله تعالى ، والإيمان برسوله محمد ﷺ .

وقد خرج النبى ﷺ من المدينة إلى غزوة تبوك على مشارف الروم ، ومرّ بالطريق على قرية ثمود، فحنى رأسه ، واستحث راحلته ، وأسرع فى السير ، وقال لأصحابه : «لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، إلا وأنتم مشفقون [٤٦] أن يصيبكم ما أصابهم» [٤٧] .

وقد قال ﷺ : «ملعون من عَمِل عمل قوم لوط» [٤٨] .

وقال ﷺ : «إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تجامعوا النساء فى حشاشتهن» [٤٩] ، أى : فى أدبارهن ، وقد حرم الإسلام جماع المرأة فى دبرها ، وحرّم الإسلام المثلية الجنسية ، وهى استغناء الرجال بالرجال ، واستغناء النساء بالنساء ، لأن ذلك شذوذ جنسى ، وخروج على فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالله عز وجل خلق الزوجين الذكر والأنثى ، فى النَّبات والحيوان والإنسان ، وعن طريق التلقيح بين الذكر والأنثى يتم الإخصاب والتوالد ، وتعمر الأرض ، ويتم التناسل ، كما خلق الله صدْر الرجل وصدْر الأنثى بصورة يتم معها التقابل والإمتاع ، والمودة والرحمة ، والاستمتاع الحلال .

قال ﷺ : «وفى بضع أحدكم صدقة» فقلنا : يا رسول الله ، يأتى أحدنا شهوته فيكون له ثواب ؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه عقاب» ؟ قلنا : نعم ، قال : «فكذلك لو وضعها فى حلال كان له ثواب»[٥٠] .

إن أوروبا وأمريكا وغيرها من البلدان ذاقت العلقم من جراء الإيدز ، وعادت هذه البلاد إلى التحذير من العلاقة الجنسية غير المشروعة طلبًا للوقاية من نقل الأمراض ، وقد سبق الإسلام حين حرّم الزنا ، وحث على العفة والاستقامة ، وشجع الزواج الحلال ، وبناء الأسرة والعشرة بالمعروف ، وكل ما من شأنه إسعاد الرجل والمرأة ، وإقامة أسرة سعيدة آمنة مطمئنة نفسيا وجنسيا وسلوكيا وأخلاقيا ودينيا ، تتمتع بالمودة والرحمة والألفة والانسجام .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم : ٢١) .

★ ★ ★

قصة يونس عليه السلام

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

المفردات :

أبـــــق : هرب ، وأصل الإباق : هروب العبد من سيده بغير إذنه ، فاستعير لهرب يونس من قريته قبل أن يأذن له ربُّه .

المشحون : المملوء .

فساهم : قارع ، أجرى قرعة مع ركاب السفينة .

المدحضين : المغلوبين بالقرعة .

التقمه : ابتلعه .

وهو مليم : داخل في الملامة ، مستحق لها .

المسبحين : الذاكرين .

لـلـبـث : مكث .

يوم يبعثون : يوم القيامة .

فنبذناه : طرحناه .

بالعراء : بالأرض الفضاء .

سقيم : مريض ضعيف البدن .

يقطين : شجرة القرع العسلي ، وليس لها ساق تقوم عليه .

تمهيد :

تأتي قصة نبي الله يونس في ختام القصص القرآني في سورة الصافات ، ومن الملاحظ أن أوَّل القصص كان قصة نوح ، وقد غرق المكذبون به بالطوفان ، وآخر القصص كان قصة يونس ، وقد غرق يونس في اليّم وابتلعه الحوت ، ثم نجّاه الله إلى الشاطئ ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا ... ؛ وهي قصة تذكِّر المؤمن بالالتجاء إلى الله تعالى ، وصدق الإيمان ، وعدم اليأس ، وتسبيح الله والدعاء في الشدائد بدعوة يُونُس : لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) .

التفسير :

١٣٩- وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

وإن يونس لمن جماعة المرسلين ، فاذكر أيها الرسول قصته وخَبَره لقومك .

١٤٠- إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ .

وخلاصة قصة يونس كما ذكرها الآلوسي وغيره من المفسرين :

أن الله تعالى أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله تعالى ، فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلد قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه آمنوا ، وتابوا وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب ، أما يونس عليه السلام فقد ترك قومه ، وركب سفينة مشحونة بالناس ، ثم سارت السفينة واحتواها البحر ، وفي وسط اللجة ماجت واضطربت وكادت تغرق وكان من تدبير ركاب السفينة التخفف من أحمالها ، ثم التخفف من بعض ركابها ؛ ليسلم الباقون ، فأجريت القرعة ثلاث مرات ، وفي كل مرة تصيب نبي الله يونس ، فقال : أنا العبد الآبق ، أي : هربت من قومي حين ضقت بهم ذرعا ؛ فألقى بنفسه في البحر .

١٤١- فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ .

فَسَاهَمَ . فقارع من في السفينة بالسهام ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا .

فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ .

أي : من المغلوبين ، حيث وقعت القرعة عليه دون سواه، يقال: دحضَت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت.

ومنه قوله تعالى : حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . (الشورى : ١٦) .

١٤٢- فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ .

فابتلعه الحوت ، كأنما كان مستعدا لابتلاعه .

وَهُوَ مُلِيمٌ . وهو واقع فى اللوم حيث أتى من الأفعال ما يلام عليه .

ومُلِيمٌ . اسم فاعل من الفعل ألام ، بمعنى اسم المفعول ، أى : داخل فى الملامة ، ومنه المثل : (رب لائم مُليم) أى : يلوم غيره ، وهو أحق منه باللوم .

١٤٣، ١٤٤- فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

أى : لولا أنه كان كثير التسبيح والذكر لله تعالى لكان بطن الحوت قبرًا له إلى يوم البعث ، وهو يوم القيامة ، والمراد من التسبيح : مطلق الذكر لله تعالى .

وقال النيسابورى فى تفسير الآية :

الأظهر أن المراد بالتسبيح هو ما ذكره الله تعالى فى قوله : فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨) .

وفى النص حثٌ على مداومة ذكر الله ، والالتجاء إليه .

وقد قيل فى الأثر : «تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدّة» [٥١] .

وقد اختلف فى مدة مكث يونس فى بطن الحوت ، فقيل : أربعون يوما ، وقيل : عشرون ، وقيل : سبعة ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : لم يمكث إلا قليلا ثم أُخرج من بطنه عقب الوقت الذى التقم فيه .

والرأى الأخير هو الأرجح لأنه هو الذى يساعد عليه السياق ، لأن الله عطف النجاة بالفاء ، فقال سبحانه وتعالى : فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . والفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، ولأن رحمة الله قريب من المحسنين ، ولأن الله قال فى سياق آخر : فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ... (الأنبياء : ٨٨) . ولأن الله قريب من عباده .

وقد ورد فى الحديث الشريف الذى أورده النيسابورى وغيره من المفسرين : «إن دعاء يونس فى بطن الحوت صعد إلى العرش فسمعته الملائكة ، وكان صوتا ضعيفا ، فشفعوا له ، فأمر الله الحوت فقذفه بالساحل» .

وروى عطاء : أنه حين ابتلع الحوت يونس ، أوحى الله تعالى إلى الحوت : أن قد جعلت بطنك له سجنًا ، ولم أجعله لك طعامًا ، والمراد أن الله ألهم الحوت ذلك ، وحبس جهازه الهضمى عن هضمه ، والله أعلم .

١٤٥ – فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ .

أى : أمرنا الحوت أن يلفظه ويطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض ، وهو عليل واهن البدن خائر القوى مما أصابه .

قال ابن عباس : كبدن الصبى حين يولد ، قيل : إنه نبذه على شاطئ دِجلة قرب مدينة (نينوى) .

١٤٦ – وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ .

أنبتنا عليه مظلةً له كالخيمة تقيه من الحر والبرد ، وأكثر المفسرين على أنها شجرة القرع ، وتسمى (الدُّباء) : القرع العسلى ، وقيل : شجرة الموز يتغطى بورقها ، ويستظل بأغصانها ، فتقيه لفح الشمس ووهجها ، وبرد الصحراء ، ويأكل من ثمارها فتغنيه عن طلب الغذاء من أى جهة أخرى ، وقيل : اليقطين شجرة التين .

والخلاصة : أنها شجرة أنبتت من أجله ، لتقدم له الرعاية ، وكل ما يحتاج إليه ، كمعجزة إلهية .

وذكر الزمخشرى : أنه قيل لرسول الله ﷺ : إنك لتحب القرع ، قال : «أجل هى شجرة أخى يونس ، وإنّها تشدّ قلب الحزين» .

وذكر القرطبى : عن أنس – رضى الله عنه – قال : قُدّم للنبى ﷺ مرق فيه دباء وقديد ، فجعل يتّبع الدُّباء حول القصعة ، قال أنس : فلم أزل أحب الدُّباء من يومئذ[٥٣] – أخرجه الأئمة – .

١٤٧ – وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ .

قيل : أرسله الله إلى قوم آخرين ، فاستجابوا جميعًا لدعوته وآمنوا برسالته .

وقال الأكثرون : هم قومه الذين أرسل إليهم قبل ذلك فكذّبوه ، فتوعدهم بالعذاب ، وتركهم يونس قبل أن ينزل بهم ، فتابوا واستغفروا وندموا ، فتاب الله عليهم وقبل توبتهم ، ولما أرسل إليهم يونس بعد نجاته من الغرق ، ونجاته من بطن الحوت ، ورعاية الله له فى العراء ، آمن به قومه عن آخرهم ، وكان عددهم يزيد على مائة ألف ولا ينقص ، قيل : يزيد عشرة آلاف ، وقيل : عشرين ألفًا ، وقيل : أربعين ألفًا .

قال تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . (يونس : ٩٨) .

١٤٨ - فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ.

أى أن قوم يونس عندما عاد إليهم يونس بعد غرقه ونجاته ، آمنوا به وصدَّقوه واتبعوا رسالته ، فكشف الله عنهم العذاب المُخْزِى المذلّ ، الذى كان قد توعدهم به يونس ، ومتَّعهم الله بصحتهم وأموالهم وحياتهم إلى حين انتهاء آجالهم .

لقد كفر أكثر الناس بالرسول الذى أرسل إليهم ، كقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وفرعون وقومه الذين كذّبوا موسى وهارون ، وقوم عيسى ، وأهل مكة الذين كذبوا محمدًا ﷺ ، فساق القرآن الكثير من قصص الأنبياء والمرسلين ، لتكون عظة وعبرة لهم كما ساق قصة يونس ، وفيها تضرع وتسبيح ، واستجابة من الله ليونس ، وفيها توبة قومه وإيمانهم ، فكشف الله عنهم العذاب ، ومتعهم بحياتهم فى الدنيا ليكون واضحًا للناس عاقبة المكذبين من الهلاك ، وعاقبة المؤمنين من النجاة .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

★ ★ ★

مناقشة المشركين وتفنيد عقائدهم

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

المفردات :

فاستفتهم : فاستخبر كفار مكة توبيخًا لهم ، وسلهم على سبيل الإنكار عليهم .

إفكهم : كذبهم .

أصطفى : أختار ، وهو استفهام توبيخ .

سلطان مبين : حجة واضحة وبرهان على أن الملائكة بنات الله .

الجنة : الملائكة لأنهم يستجنون ، أى : يختفون ويستترون ، أو الجنّ .

تمهيد :

تحدث القرآن الكريم فى سورة الصافات عن عدد من الرسل فذكر جهادهم ، وإخلاصهم ، ونصر الله لهم ، ليعتبر النَّاس بما كان منهم ومن أقوامهم ، وفى الآيات الأخيرة من سورة الصافات مناقشة للمشركين فى عقائدهم الفاسدة ، حيث كان بعض القبائل العربية تزعم أن الله تعالى تزوج من الجن فأنجبت الجن له الملائكة ، واعتقدوا أن الملائكة إناث ، وهم كانوا يكرهون الإناث ، فناقشهم القرآن بحسب زعمهم واعتقادهم ، أى إذا كان الله سيتخذ ولدًا ، فينبغى أن يكون ذكرًا لا أنثى ، والله منزه عن الصاحبة والولد ، أى منزه عن أن يكون له زوجة ، ومنزه عن أن يختار ذريته من الإناث دون البنين ، ثم ناقشهم فى هذه الدعاوى الباطلة ، وسألهم : هل عندكم حجة قوية بذلك ؟ إن كان لكم فأين هى ؟ إن الجن سيحضرون يوم القيامة للحساب والجزاء ، وللعاصى منهم جهنم ، وللطائع الجنة ، والعباد الطائعون لله سينجيهم الله من العذاب ويدخلهم الجنة .

التفسير :

١٤٩ - فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ .

أى : اسألهم يا محمد عن مصدر هذا الزعم الكاذب ، أيليق بهم أن ينسبوا للّه الملائكة ويجعلوهم إناثًا ، وينسبوا البنين إليهم ؟

وفى سورة النجم يقول القرآن الكريم : أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . (النجم : ٢١، ٢٢) .

أى : قسمة جائرة ، حيث جعلوا للخالق الرازق الإناث ، وللمخلوقين الذكور ، والملائكة عباد الله ، ملتزمون بأمر الله ، طائعون له ، لا يستكبرون عن طاعته ، ولا يمتنعون عن الامتثال لأمره .

قال سبحانه وتعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا . (النجم : ٢٧ ، ٢٨) .

١٥٠ - أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ .

إضراب وانتقال من التبكيت بالسؤال الأول ، إلى التبكيت بهذا .

أى : بل أخَلقنا الملائكة إناثًا ، وهم شاهدون لخلقهم ؟ فإن هذه الأمور الغيبية لا تعلم إلا بالمشاهدة ، وهو هنا يناقشهم بمقتضى قولهم وأفكارهم البعيدة عن الحق والواقع ، حيث ارتكبوا ثلاثة أنواع من الكفر:

أحدها : التجسيم لأن الولادة مختصة بالأجسام .

الثاني : تفضيل أنفسهم على ربّهم ، حيث جعلوا أقل الجنسين فى نظرهم له ، وأرفعها لهم .

قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . (الزخرف : ١٧ ، ١٨) .

الثالث : أنهم استهانوا بالملائكة ، وهم عباد مكرمون ، حيث حكموا عليهم بالأنوثة ، ولو قيل لأحدهم : فيك أنوثة ، غضب وثار لكرامته ، ولبس لقائله ثوب النمر .

قال تعالى : وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ١٩) .

والمقصود أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة حتى يكون قولهم هذا عن بينة ويقين .

١٥١ ، ١٥٢ - أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ .

استئناف لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ، وبيان أنّ مبناه الإفك والكذب ، من غير دليل أو مشاهدة ، أو وحى من السماء يفيد ذلك .

والمعنى : ألا إنهم من كذبهم ، وشدة جهلهم ، ليقولون زورًا وبهتانًا : وَلَدَ ٱللَّهُ . أى : اتخذ الله ولدًا ، وهو سبحانه منزه عن الوالدية والولدية ، فليس جسمًا ولا حالاً فى جسم ، وهو واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولدًا ، ولم يولد من أب ، ولم يكن له نظير أو مثيل ، قال تعالى : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ . (الإخلاص : ١ - ٤) .

وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . فى ذلك ، فالناس جميعًا عباد لله . قال تعالى : لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ... (النساء : ١٧٢) .

١٥٣ - أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ .

والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، فأى شيء يحمله - وهو الخالق المختار - أن يختار لنفسه الإناث ، هل فضّل الله البنات على البنين حتى تنسبُوا إليه البنات ، وتختاروا لأنفسكم البنين ؟

١٥٤ - مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

ماذا أصابكم ، أو أى شىء حدث لكم حتى أصدرتم هذه الأحكام الفاسدة ، مع وضوح بطلانها .

١٥٥ - أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

معطوف على محذوف ، تقديره أتجهلون هذه الأمور الظاهرة ، فلا تتذكرون ، أى : أنسيتم دلائل القدرة والتنزيه المركوزة فى كل العقول ، فلا تتذكرون أنه لا يجوز أن يكون لله ولد ، بل يجب أن يكون منزها عن مشابهة الحوادث .

قال تعالى : وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا . (مريم : ٨٨ - ٩٥) .

١٥٦ ، ١٥٧ - أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم إلى تحدّيهم وإثبات كذبهم .

والمعنى :

بل ألكم حجة واضحة ، أو كتاب منزّل من عند الله يفيد أن الملائكة بنات الله ؟ إن كانت لديكم هذه الحجة والبينة ، فأتوا بها إن كنتم صادقين ، وهكذا دخل القرآن عليهم من كل باب ، وحاكمهم إلى الأدلة الحسيّة الملموسة بعد المعقولة .

١٥٨ - وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

ادعى بعض قبائل العرب أن الله تعالى تزوج من بنات سروات الجن فأنجبت له الملائكة ، وهو اعتقاد فاسد ، سيحضرون يوم القيامة ليناقشوا فى الحساب ولينالوا عنه الجزاء .

وروى عن الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهذا النسب الذى جعلوه .

قال مجاهد ، ومقاتل : القائل ذلك هم كنانة وخزاعة ، قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجنّ ، فزوّجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجنّ .

وقال قتادة والكلبي :

قالت اليهود لعنهم الله : إن الله صاهر الجنّ فكانت الملائكة من بينهم ، وتطلق الجنة على الملائكة ، لأنها مستترة لا تُرى ، مثل الجنين مستور فى بطن أمّه ، والمجنون عقله مستور، والمجنّ يستر صدر المحارب ، وجنّ الظلام : ستر ما تحته ، أى : ادعت بعض القبائل العربية أن الله تزوج من الجن ، من بين أمراء الجن وسراتهم ، فاختار بنتا من بناتهم ، فأنجب منها الملائكة ، والملائكة تعلم أن هؤلاء الكفار سيحضرون ويحاسبون .

أخرج آدم بن أبى إياس ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وغيرهم ، عن مجاهد قال : قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصدّيق على سبيل التبكيت : فمن أمهاتهنّ ؟ فقالوا : بنات سروات الجن .

والخلاصة :

إن هؤلاء سيُحضرون إلى القيامة ، ويعذبون فى النار ، حيث ادعوا أن الله تزوج من الجنّ فأنجب منها الملائكة ، تعالى الله سبحانه عن ذلك علوّا كبيرًا .

١٥٩ – سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

تنزه الله تعالى وتقدّس عما يقوله هؤلاء الجاهلون ، فالله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهو منزّه عن أن يكون جسمًا ، أو حالاً فى جسم ، ومُنَزّه عن اتخاذ الصاحبة والولد ، فالخلق كلهم عباده ، والملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وقد سار القرآن الكريم فى مناقشة عقائد المشركين ، وإبطال أفكارهم الباطلة ، بالعقل والحجة ، والبرهان والمنطق .

قال تعالى : أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (الأنعام : ١٠١) .

وقال سبحانه : مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . (المؤمنون : ٩١) .

★ ★ ★

طاعة الملائكة لربهم

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾

المفردات :

بفاتنين : بمضلّين أو مفسدين .

صال الجحيم : داخلها ومُقَاسٍ حرّها .

الصافون : الواقفون فى العبادة صفوفا .

المسبحون : المنزّهون الله عما لا يليق به .

ذكرا : كتابًا ، أو من يذكّرنا بأمر الله أو بكتابه .

تمهيد :

تتبرأ الملائكة ممن جعلها آلهة أو بنات لله ، وتقول : إن الكفار لا يضرُّون إلا أنفسهم ، ولا يستميلون للضلال إلا من خلق أصلاً لذلك ، وعلم الله منه اختيار الضلال ، وتبين الملائكة أنهم عبيد لله مخلصون ، يلتزمون بمنازلهم ، ويصطفون للعبادة ، ويسبحون الله وينزهونه ، وقد كانت العرب تتمنى أن ينزل عليها كتابٌ من السماء ، يذكرها بالله ، ويحدثها عن الأمم السابقة ، ويرشدها إلى أمر دينها ودنياها ، فلما جاءهم محمد ﷺ – وهو خاتم المرسلين ، ومعه أفضل كتاب – كفروا به فسوف يعلمون عاقبة كفرهم .

التفسير :

١٦٠ – إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

لكن عباد الله المؤمنين بالله حقا ، المنزِّهين له عن الصاحبة والولد ، المتبعين لهدى القرآن الكريم ، ناجون من العذاب ، بعيدون عن النار ، وهم من أهل الجنة إن شاء الله .

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ - فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ .

وفى هذه الآيات استخفاف بالمشركين ، حيث إنهم لا يستطيعون فتنة مؤمن عن دينه ، ولا إضلال أحد حتى يتبع مذهبهم ، إلا من كان شقيًا فى الأصل ، مستعدًا للنار والاصطلاء بها بفطرته .

والمعنى :

إنكم أيها الكفار وما تعبدونه من أصنام وأوثان ، أو ملائكة أو جن أو أوهام ، لا تفتنون مؤمنًا أو راسخًا فى الإيمان ، ولا تُضلّون إلا من خلق مستعدًا للضلال ، والاصطلاء بنار الجحيم ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى عن الشيطان : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

قال النحاس :

أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضلين أحدًا ، إلا من قدَّر الله عز وجل أن يضلّ .

١٦٤ - وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ .

هذا من قول الملائكة تنزيهًا لله أن تكون له بنات من الملائكة ، حيث تقول الملائكة : نحن مطيعون لله ، ملتزمون بمنازلنا ودرجاتنا فى طاعة الله وتنفيذ أوامره ، لا نعصى له أمرًا ، ونفعل ما يأمرنا به ، ولا نتقدم أو نتأخر عن الموقع الذى يضعنا فيه ، فنحن خدم مخلصون ، وعبيد مطيعون ، ملتزمون بمنزلتنا .

والآية تشير إلى أن الملك لا يتعدى مقامه إلى ما فوقه ، ولا يهبط عنه إلى ما دونه .

قال مقاتل :

هذه الثلاث آيات : وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . وما بعدها ، نزلت ورسول الله عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل ، فقال النبى ﷺ : «أهنا تفارقنى» ؟ فقال : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى ، وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ... إلى آخر الآيات .

١٦٥ - وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ .

أى : تصطف الملائكة للعبادة صفوفًا منتظمة ، حيث يتمون الصف الأوّل ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، وقد أُمرنا بإتمام صفوف الصلاة ، والانتظام فيها ، والاقتداء فى ذلك بالملائكة .

جاء في صحيح مسلم، عن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد، فقال: «ألا تَصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها»، فقلنا: يا رسول الله، كيف تَصُفُّ الملائكة عند ربِّها؟ قال: «يتمّون الصفوف الأُول، ويتراصُّون في الصَّف»[٥٣].

وأخرج مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الأمم بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدًا، وجعلت لنا تربتها طهورًا إذا لم نجد الماء، وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم، غير المسلمين»[٥٤].

وروى ابن أبي حاتم، وابن جرير، قالا: قال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة، استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قيامًا، يريد الله بكم هَدْىَ الملائكة، ثم يقول: وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ. تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر[٥٥].

١٦٦ - وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ.

أي: ننزه الله عما لا يليق به، وعن دعوى الكفار أن الملائكة بنات الله، أو المعنى: وإنا لنحن المصلُّون.

قال قتادة: ٱلْمُسَبِّحُونَ. أي: المصلّون.

وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن بمعنى الصلاة، أي: الذاكرون لله، القائمون بتنزيهه وذكره، والصلاة له بدون ملل أو فتور، والإنسان لا يخلو من فتور وانشغال بالمعاش، أما الملائكة فلا ينقطعون عن ذكر الله، وكان مسروق يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ.[٥٦].

١٦٧، ١٦٨، ١٦٩ - وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ.

كان المشركون من أهل مكة يتشوقون أن ينزل عليهم كتاب من كُتب السماء، كالتوراة التي أُنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والزبور الذي أنزل على داود، والصحف التي أنزلت على إبراهيم، ويقولون: نتمنى أن ينزل علينا كتابٌ فيه قصص الأولين، وأخبار السابقين، وأحكام وشرائع النبيين، ثم اختار الله لهم خاتم المرسلين، وأنزل عليه كتابًا مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، مشتملاً على القصص والأخبار، والشرائع والآداب، ومشاهد القيامة والحساب والجزاء، مشتملا على الإعجاز، وجمال العرض وبدائع الأخبار، وألوان البلاغة والبيان، لكنهم أعرضوا عن القرآن، وكفروا بالنبي محمد ﷺ، كما قال جل جلاله: وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا. (فاطر: ٤٢).

١٧٠ - فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

فجاءهم الكتاب الذى طالما تمنَّوه ، واشتاقوا إليه ، فقابلوه بالكفر والتكذيب ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وجحودهم .

لقد كان العرب أهل فصاحة وبيان ، وشعر ونثر وحكمة ، وكان القرآن فى الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة والبيان ، وكانوا أعرف الناس بارتفاع قدر القرآن ، وعلو منزلته ، وجلال رتبته ، وأنه فوق طاقة البشر ، لكنهم عاندوا ، فنسبوه للسحر والكهانة والأساطير ، وما هو بقول شاعر ولا ساحر ولا كاهن ، بل هو تنزيل من رب العالمين ، لكنهم كذّبوا بالقرآن الكريم عنادًا ومكابرة .

قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقال تعالى : وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

★ ★ ★

نصر المرسلين

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

المفردات :

كلمتنا : وعدنا الرسل بالنصر ، مثل : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ... (المجادلة : ٢١) . وقد تم فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا .

فتول عنهم : فأعرض عن كفار مكة .

حتى حين : إلى الوقت الذى أمهلوا إليه ، أو إلى بدر أو فتح مكة .

بساحتهم : بفنائهم ، والمراد : بهم .

فساء صباح المنذَرين : فبئس الصباح صباحهم .

سبحان ربك : تنزيها لربك يا محمد عما يصفه به المشركون .

العزة : الغلبة والقدرة .

التفسير :

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ – وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ • إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ • وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ .

وعد الله المؤمنين بالنصر ، وحسن الخاتمة ، وقد يُهزم المؤمنون فى معركة ، وقد يمتحنون فى موقف ، لكن الله وعد الصادقين بالجزاء الحسن فى الدنيا ، أو الآخرة ، فإن استشهدوا فلهم حسن الجزاء فى الآخرة ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وهى أن العاملين المخلصين يستحقون النصر .

قال تعالى : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقال تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ . (غافر : ٥١) .

وتاريخ الكفاح بين المسلمين فى مكة مع المشركين يثبت ذلك ، حيث مكث الرسول ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عامًا ، وكل من آمن به مائتا رجل وامرأة ، ثم رحل إلى المدينة ووضع أساس الدولة ، وخاض غزوات بدر وأحد والخندق والحديبية ، ثم فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، واستمرّ المدُّ الإسلامى فى غزوتى حنين والطائف ، وغزوة تبوك ، وحروب الردّة ، ثم فتح المسلمون بلاد فارس والروم ومصر وشمال أفريقيا ، وقد أصاب المسلمين ليلٌ طويل ، وظلام دامس ، فسقطت بغداد فى يد التتار سنة ٦٥٦ هـ ، واستولى الضعف والعجز على كثير من البلاد الإسلامية ، لكن ذلك لم يمنع المسلمين من أن يهبُّوا فى معركة عين جالوت ، حيث هزموا التتار ، وأعادوهم ناكصين على أعقابهم ، ثم دخل التتار فى الدين الإسلامى .

ثم كانت الحروب الصليبية ، التى أعقبها تقدم صلاح الدِّين بجيش يجمع رجال مصر والشام ، وانتصر فى معركة حطين ، ودخل المسجد الأقصى ، وحمد الله حمدًا كثيرًا .

وفى عصرنا الحاضر نجد المعارك دائرة بين الإسلام والصهيونية وغيرها ، وإذا تأملنا وجدنا أن أقوى أسلحة الأمة هو ما يأتى :

١ – التزامها بدينها وصدق إيمانها وطاعة ربّها .

٢ – ترك الفرقة والاختلاف والبعد عن النزاع والتخاصم .

٣ – الوحدة وضم الصف وجمع الكلمة .

٤ – إعداد العدّة بالعلم والعمل والتفوق العلمى والحضارى .

لقد نصر الله أنبياءه ورسله مثل : إبراهيم ، ونوح ، ويونس ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ،وهزم الكافرين المعاندين .

وإن أعدى أعدائنا هو الذى يلهينا عن عقيدتنا ، وإن باب النصر فى التمسك بهذه العقيدة ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى السلف الصالح ، والأخذ بنصيب وافر من العلوم والتقنية وكل أبواب التفوق ، وهذا هو الإعداد الجيِّد لأسباب النصر ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

قال ابن كثير :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ .

أى : تقدم فى الكتاب الأوّل أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال جل جلاله :

إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ .

أى : فى الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ، ممن كذبهم وخالفهم ، كيف أهلك الله الكافرين ، ونجّى عباده المؤمنين .

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ . أى : تكون لهم العاقبة .

وهذا النصر للمؤمنين فى أغلب الأحيان فى الدنيا ، وباليقين والتأكيد فى الآخرة ، لقد انهزم المؤمنون فى غزوة أحد ، وكان ذلك درسًا عمليًا للمؤمنين فى حياتهم ، وسلوكهم مع الهزيمة والنصر ، بالثبات واليقين والأمل ، وأن رحى الحرب دائرة ، يوم لك ويوم عليك ، وأن الجراح التى تصيبك والآلام تماثلها جراح سابقة ولاحقة عند الأعداء ، لكن العاقبة للمتقين ، والثواب للمؤمنين ، وإن لم تصادف النصر فى الدنيا ، فستلقى الثواب وحسن الجزاء فى الآخرة ، ورضوانًا من الله أكبر .

قال النيسابورى :

ثم بين أنَّ رسل الله وجنده منصورون غالبون عاجلاً وآجلاً ، والأوّل أكثرى ، والثانى تحقيقى يقينى . اهـ .

وهو يقصد أن قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ .

أن النصر كان فى الأكثر للمسلمين ، فقد انهزموا فى بعض الغزوات ، وفى بعض المعارك ، لكن العاقبة كانت للمؤمنين ، فنصر المؤمنين فى الدنيا كان هو الأعم الأغلب ، أمّا النصر فى الآخرة فهو يقينى على التحقيق .

وكلُّ ذلك يفتح الباب أمام الدعاة والهداة ، وقوى الأمة الإسلامية ورموزها وقادتها للأمل والعمل ، حتى لا تصاب الأمة بالإحباط والتردّى ، نحن نشاهد الأمم الكبرى تتقدم علميًا واقتصاديًا ، لكن ذلك يوجب علينا ألا نيأس من المستقبل ، وأن نثق فى قدرات أُمّتنا على استعادة الكرَّة .

وبعض علماء الاجتماع يذكرون أن التطوّر والتقدم دائرى متحرّك ، تقدم المسلمون فى عصر النبوة والعصر الأموى والعباسىّ الأوّل ، ثم تقهقروا ومرّ بهم ليل طويل ، تقدم فيه الغرب وأمريكا وروسيا ، ثم تضعضعت روسيا وتفككت ، وليس ببعيد أن تعود الكرَّة للعالم العربى والإسلامى لاسترداد المجد ، والتفوق والتقدم ، بيد أن ذلك مرهون بالأخذ بالأسباب ، وبالعمل والأمل ، وبالتوكل لا بالتواكل ، والتوكل هو الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله تعالى .

قال تعالى : فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (الجمعة : ١٠) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

وقال ﷺ : «ما أكل أحدٌ طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»[٥٧] .

ويقول تعالى : وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

فعلينا أن نحارب اليأس والقنوط ، وأن نزرع الأمل وحبّ العمل ، والاستشراف لمستقبل أفضل ، ولا يشترط أن نجنى نحن ثمار النصر ، يكفى أن نعمل وأن نبنى ، وأن تُكمل الأجيال القادمة ما وضَعْنا أساسه ، وأقمنا أصوله .

قال ﷺ : «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة يَغْرسها فليغرسها»[٥٨] .

وهذا الحديث يحثنا على العمل والأمل فى سائر الأحوال والظروف ، ودائمًا يعقب الليل ظهور الفجر ، وأنوار الصباح ، وقد انهزمت ألمانيا فى الحرب العالمية ، وكذلك اليابان ، لكن الإصرار والعمل والأمل ، والرغبة فى التفوّق ، جعلهما يستعيدان المجد والمكانة ، ونحن أولى بالأمل فى وجه الله القائل : فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . (الشرح : ٥ ، ٦) .

ويقول تعالى : وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . (النساء : ١٠٤) .

ويقول تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠) .

وفى التفسير : إن الله يمتحن المؤمنين بالشدّة والبلاء ، تلك سنته فى عباده ، قال تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ . (البقرة : ٢١٤) .

فلله حكمة سامية فى اختبار المرسلين ، واختبار عباده المؤمنين ، حتى إذا طال الظلام ، واشتدت عوامل اليأس ، ومرت بعض لحظات من الخوف والتوجُّس ، ومَرّتْ ولو لبرهة لحظات اليأس أو الخوف من تخلّف النصر ، أو تكذيب الأتباع أنفسهم ، عِنْد هذه الشدّة يأتى نصر الله ووعده الصادق فى نصر المؤمنين ، وهزيمة المجرمين المكذّبين .

وصدق الله العظيم : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ .

١٧٤ – فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ .

أى : أعرض عن كفار مكة ، واصبر عليهم ، وانتظر ما سيحلّ بهم ، مثل النصر عليهم يوم بدر ، وفتح مكة سنة ٨ هـ ، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا .

١٧٥ – وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

وأبصر ما يكون عليه حالهم يوم القيامة ، فسوف يرون هذا اليوم ، ويرون صنوف العذاب الذى ينتظرهم فى ذلك اليوم ، والآية محتملة أن يكون ذلك فى الدنيا ، أى : أنظرهم وارتقب ما يصيبهم ، وما يحل بهم من العذاب والنقمة ، بسبب مخالفتهم وتكذيبهم لك .

فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . فسوف يرون ذلك ويشاهدونه .

١٧٦ – أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ .

أى : هم طالما سخروا منك ، ومن تهديدهم بعذاب السماء ، الذى أصاب المكذّبين قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يا محمد ، أرنا العذاب الذى تخوّفنا به ، فنزلت هذه الآية .

١٧٧ – فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ .

فإذا نزل العذاب الموعود بساحتهم ، وحلّ بهم وهم مصرُّون على الكفر ، فبئس صباح المنذَرين صباحهم .

قال النيسابورى فى تفسير الآية :

وكان من عادة العرب أن يغيروا صباحًا ، فسميت الغارة صباحًا ، وإن وقعت فى وقت آخر ، وشبّه نزول العذاب بساحتهم بعدما أُنذِروه ، برجل أنذر قومه بهجوم جيش للأعداء عليهم ، فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، حتى أناخ جيش الأعداء بفنائهم بغتة ، فشن الغارة عليهم ، قيل نزلت فى فتح مكة . ا هـ .

وروى فى الصحيحين ، عن أنس رضى الله عنه قال : لما أتى رسول الله ﷺ خيبر ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى ، قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصونهم ، فقال ﷺ : «الله أكبر فتحت خيبر ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم ، فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ .[٥٩] .

لقد كان النبى ﷺ ينذر قومه بالعذاب ، ليتخذوا طريقهم إلى الإيمان والإسلام ، فكذّبوا نبيهم ، واستحقوا ما نزل بهم يوم بدر أو يوم فتح مكة .

قال الزمخشرى : وما فَصُحت هذه الآية ، ولا كانت لها الروعة التى تحسُّ بها ، ويروقك موردها ، على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريق التمثيل[٦٠] .

١٧٨ – وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ .

أى : أعرض عنهم إلى حين يلقون العذاب ، ولا تهتم كثيرًا بتكذيبهم إياك .

١٧٩ – وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

أى : أبصر ما يستقبلك ويستقبلهم ، فسوف يرون العذاب الذى يستعجلون به ، والآيتان تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، أو المراد بإحداهما عذاب الدنيا ، وبالثانية عذاب الآخرة ، والله أعلم .

١٨٠ – سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

ونلحظ أن السورة ناقشت الكافرين والمكذبين ، فى كفرهم وشبهاتهم ودعواهم ، وتخرُّصهم على الله ، بأنه اتخذ زوجة من الجنّ ، فأنجبت له الملائكة ، لذلك جاءت آخر السورة لتنزّه الله جل جلاله عما لا يليق به .

ومعنى الآية :

تنزّه ربك يا محمد وهو صاحب العزة والجلال ، والمجد والكمال ، عما يصفه به الكافرون من اتخاذ الصاحبة والولد ، تنزّه الله وتعالى عن ذلك علوّا كبيرًا .

١٨١ – وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ .

أى : تحية أمان وتكريم للمرسلين ، الذى بلّغوا رسالات ربّهم ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، حتى أتاهم اليقين ، فعليهم السلام فى الدنيا وفى الآخرة .

١٨٢ – وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

والشكر لله الذى أرسل المرسلين ، وأنزل الكتب ، وبين للناس الطريقين ، وأنعم عليهم بسائر النّعم ، التى لا تعدُّ ولا تحصى ، فلله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، وهذه الكلمات تقال عندما يغادر الإنسان مجلسه ، فيقروُها اقتداء بالنبى محمد ﷺ .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن الشعبى قال : قال رسول الله ﷺ : «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

اللهم لك الحمد ، ولك المنة والفضل ، ولك الثناء الحسن الجميل ، الحمد لله رب العالمين ، حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه ، كما يرضى ربّنا ويحبّ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى إخوانه النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

مجمل ما اشتملت عليه سورة الصافات

١ – التوحيد ودليله فى الآفاق والأنفس .

٢ – خلق السماوات والأرض .

٣ – إنكار المشركين للبعث ، ومحاورة أهل الجنة لأهل النار ، وهم يطلعون عليهم .

٤ – وصف الجنة ونعيمها .

٥ – قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وإسماعيل .

٦ – دفع فرية قالها المشركون ، إذ قالوا الملائكة بنات الله .

٧ – تنزيه الله عن ذلك .

٨ – بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوى الأحلام الضعيفة ، المستعدة للإضلال .

٩ – وصف الملائكة بأنهم صافُّون مسبحون .

١٠ – مدح المرسلين ، وسلام الله عليهم .

١١ – حمد الله ، وثناؤه على نفسه بأنه رب العزّة ، ورب الخلق أجمعين .

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .



كان ختام تفسير سورة (الصافات) مساء يوم الاثنين ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩٩٩ م ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .


تفسير سورة ص

أهـــداف ســـــورة «ص»

سورة «ص» سورة مكية ، نزلت في الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وآياتها ٨٨ آية ، وسميت بهذا الاسم لابتدائها بهذا الحرف .

مقاصد السورة

قال الفيروزبادي :

معظم مقصود سورة «ص» : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى ﷺ ، ووصف الكافرين لرسول الله بالاختلاق والافتراء ، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء ، وظهور أحوال يوم القضاء وعجائب حديث داود وأوريا ، وقصة سليمان ، وذكر قصة أيوب في الابتلاء والشفاء ، وذكر إبراهيم وأولاده من الأنبياء ، وحكاية أحوال ساكني جنة المأوى ، وعجز حال الأشقياء في سقر ولظى ، وواقعة إبليس مع آدم وحواء ، وتهديد الكفار على تكذيبهم للمجتبى[٦١] .

قال تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ . (ص : ٨٧ ، ٨٨) .

قضايا السورة

أثارت سورة «ص» عددًا من القضايا أهمها : قضية التوحيد ، وقضية الوحي ، وقضية الحساب في الآخرة ، وقد عرضت هذه القضايا الثلاث في مطلعها ، الذي يمثل الدهشة والاستغراب من كبار المشركين في مكة ، حين جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى التوحيد ، وساقت السورة شبهات الكافرين حول قضية الوحي .

فقد استكثروا أن يختار الله سبحانه رجلاً منهم لينزل عليه الذكر من بينهم ، وأن هذا الرجل هو محمد ابن عبد الله الذي لم تسبق له رئاسة فيهم ولا إمارة ، فقالوا : أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ... (ص : ٨) .

وبينت السورة لهم أن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد أن يفتحها على من يشاء ، وأنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله رزقه ورحمته على من يشاء .. وأنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ولا حساب .. وفي هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ، وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير

الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع ، وجاء مع القصتين توجيه النبى ﷺ إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين : ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ . (ص : ١٧) .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء ، وصبر أيوب مثل فى الصبر رفيع ، وتصور السورة حسن العاقبة للصابرين .

ونلاحظ أن السياق يجرى فى سورة «ص» فيربط بين أربعة موضوعات رئيسية ، هى : شبه الكافرين ، وقصص الأنبياء ، والمقابلة بين نعيم المتقين وعذاب الكافرين ، ثم قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء إبليس .

١ - شبهات الكافرين

تشتمل الآيات من (١ – ١٦) على شبه الكافرين حول بشرية الرسول ، واختصاصه بالوحى ، وإنكار توحيد الآلهة فى إله واحد ، والرد على هذه المفتريات ، وبيان جزاء المكذبين ، من قوم نوح وعاد ، وفرعون وثمود ، وقوم لوط وأصحاب الأيكة . ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ . (ص : ١٤) .

٢ - قصص الأنبياء

تشتمل الآيات من (١٧ – ٤٨) على قصص وأمثلة من حياة الرسل صلوات الله عليهم .

وفى هذا القصص بيان لآثار رحمة الله بالرسل من قبل ، وتذكير بما أغدق الله عليهم من نعمة وفضل ، وبما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام ، وذلك ردًا على عجب الكافرين من اختيار الله لمحمد رسولاً من بينهم ، وما هو ببدع من الرسل ، وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ، وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ، وفيهم من سخر الله له الريح والشياطين ، كداود وسليمان .. فما وجه العجب أن يختار الله محمدًا الصادق ، لينزل عليه الذكر من بين قريش فى آخر الزمان .

كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه فقد كانوا بشرًا – كما أن محمدًا ﷺ بشر – وكان فيهم ضعف البشر ، وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ، إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم ، وفى هذا ما يطمئن قلب الرسول إلى رعاية ربه له ، وحمايته له من أذى المشركين ، وفى تلك القصص سلوى ومواساة لما لقيه النبى من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ، وفيه دعوة إلى الصبر حتى ينال رضوان الله ، كما ناله السابقون من الأنبياء .

٣ - النعيم والجحيم

تعرض الآيات من (٤٩ – ٦٤) مشهد المؤمنين فى الجنة ، وقد فتحت أبوابها ، وجرت أنهارها ، وكثر حورها وولدانها ، وتنوعت أرزاقها : إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ . (ص : ٥٤) .

كما تعرض مشهد الطاغين فى النار ، وقد اشتد لهيبها ، وتنوع عذابها ، واختصم الأتباع والرؤساء فيها ، وأخذوا يبحثون عن ضعفاء المؤمنين بينهم فلا يجدونهم فى النار ؛ لأن هؤلاء الضعفاء فى الجنة والرضوان .

٤ - سجود الملائكة لآدم

تشتمل الآيات من ٦٥ إلى آخر السورة على تأكيد وحدانية الله ، وشمول قدرته وملكه لما فى السماوات والأرض .

وتستعرض قصة آدم وسجود الملائكة له ، كدليل على أن هؤلاء الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما تتضمن القصة لونا من الحسد فى نفس الشيطان ، هو الذى أبعده وطرده من رحمة الله ، حينما استكثر على آدم فضل الله الذى أعطاه ، وفى هذا إيحاء لهم ألا يستكثروا على محمد فضل الرسالة وتبليغ وحى السماء ، كذلك تصور الآيات المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتى لا يهدأ أوارها ، ولا تضع أوزارها ، والتى يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم فى حبائله ، لإيرادهم النار معه ، انتقامًا من أبيهم آدم ، وقد كان طرد إبليس من الجنة بسبب امتناعه من السجود له ، فالمعركة بين إبليس وذرية آدم معروفة الأهداف ، ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم .

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحى ، وإخلاص الرسول فى تبليغ الرسالة ، لا يبتغى أجرًا ولا يتكلف قولاً ، وإنما يبلغ القرآن ، وسيكون لهذا القرآن أبلغ الأثر فى حياة البشرية .

★ ★ ★

تفنيد عقائد المشركين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

ص : حرف للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة .

ذى الذكر : ذى الشرف ، أو الموعظة .

عزة : حمية واستكبار عن الحق .

وشقاق : ومعاندة ومخالفة لرسول الله ﷺ .

قَرْن : يطلق مجازا على الأمّة .

فنادوا : فاستغاثوا وجأروا .

ولات حين مناص : وليس الوقت وقت فرار وخلاص .

المناص : التأخر والفَوت ، ويطلق على التقدم ، فهو من الأضداد .

عجاب : بالغ الغاية فى العجب ، مثل : طويل وطُوال .

الملة الآخرة : دين النصرانية .

اختـــلاق: كذب وافتراء.

فليرتقوا: فليصعدوا.

في الأسباب: المعارج إلى السماء، ومنه قول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلّم

مهـزوم: مغلوب.

الأحـزاب: المجتمعين لإيذاء محمد وكسر شوكته.

تمهيد:

سورة «ص» سورة مكية، تطوف بالقلب البشرى حول تكذيب المكذبين، وعنت كفار مكة، وتورد جانبا من قصص الأنبياء، وقضية الحساب فى الآخرة، وقصة آدم وإبليس.

وفى مقدمة السورة تُصوّر استغراب أهل مكة ودهشتهم من توحيد الألوهية والربوبية لله الواحد القهار، فقد ألفوا عبادة الأوثان والأصنام، ونجد القرآن يستعرض حجتهم، ويناقش آراءهم.

التفسير:

١ - صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ.

بدأ القرآن الكريم بعض السور بحروف المعجم، مثل: ص، ق، ن، حم، ألم .....

وهى حروف للتنبيه، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة، كذلك القرآن عندما يفتتح بعض السور بهذه الأحرف، يتنبه الكافرون لهذا الأمر العجيب، ثم يقول: وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ.

وقيل: هى حروف للتحدى والإعجاز، وقيل: هى حروف للقسم، باعتبار أن القرآن مكوّن من هذه الأحرف، أى أقسم بـ: ص، وأقسم بالقرآن ذى الذكر.

وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ.

أى: والقرآن ذى الشرف والمنعة والمكانة العالية، أو القرآن المشتمل على تذكير الناس ووعظهم بما ينفعهم فى المعاش والميعاد، ولا منافاة بين القولين، فالقرآن كتاب شريف، والقرآن مشتمل على التذكير والإنذار وأسباب الهداية، وبذلك يسود الناس، وينتقلون من كمٍّ مهمل إلى أمة متحضرة منظمة، لها فكر ونظام، وقوة واحترام.

قال تعالى: وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ. (الزخرف: ٤٤).

أى : إنه شرف لك أن ينزل عليك وحى السماء ، وشرف لقومك إذا اتبعوه وعملوا به ، وجواب القسم محذوف دل عليه السياق ، تقديره : إن القرآن حق ، أو إنه لمعجز ، أو إن محمدًا لصادق ، أو إن البعث حقّ ، ويفهم الجواب من روح القرآن وأفكاره ، فى السابق واللاحق .

٢ - بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ .

معنى الآية مع ما قبلها كما يلى :

وحق القرآن المشتمل على التذكير والعبرة أنه يجب الإيمان به ، لكن الكافرين لم يؤمنوا ، لا لخلل وجدوه فيه ، بل لأنهم فى استكبار شديد عن اتباع الحق ، وَشِقَاقٍ . أى : مخالفة لله ومعاندة ، ومشاقة لرسوله ، ولذلك كفروا به ، والمراد بالعزّة هنا : التكبر والعناد ، كما قال تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ... (البقرة : ٢٠٦) ، أى : الحميّة والاستكبار .

وأصل الشقاق أن يكون كل واحد من الفريقين فى غير شق صاحبه ، فهو يترفع عليه بأن يكون معه فى شق واحد ، لقد كان كفار مكة على جانب من الغنى والجاه والثروة ، فلما جاءهم محمد ﷺ بالإسلام أنِفُوا من اتباعه وهو بشر مثلهم ، لا يتميز عليهم بوسائل الدنيا كالغنى والجاه ، وحقدوا عليه أن يكون اليتيم الفقير ، نبيًا رسولاً ، وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

لقد استكبروا وأخذتهم حمية الجاهلية أن يدخلوا فى دينه ، وكفروا به ، ودانوا للأصنام والأوثان ، وشاقوا الرسول والمؤمنين .

والله حين يصطفى بعض الناس لرسالته ، يختار الرسول لمواصفات إنسانية خلقية .

قال تعالى : ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... (الأنعام : ١٢٤) .

٣ - كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

كثيرًا ما أهلكنا المكذبين من الأمم ، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وحين رأوا العذاب صاحوا بالإيمان والتوبة بعد فوات الأوان ، وليس الحين حين مناص ، وليس الوقت صالحًا للإيمان ، أو الفرار من العذاب ، أو الدخول فى الإيمان .

وكلمة : مَنَاصٍ . من الأضداد ، تطلق على التقهقر والفرار ، كما تطلق على التقدم .

قال ابن عباس :

وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

أى : ليس بحين فرار .

وعن الكلبى أنه قال : كانوا إذا تقاتلوا فاضطروا ، قال بعضهم لبعض : مَنَاصٍ . أى : عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مَنَاصٍ . فقال تعالى : وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

أى : إنهم آمنوا بعد فوات الأوان ، حين رأوا العذاب .

قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ... (غافر : ٨٥) .

وقريب منه رفض إيمان فرعون حين عاين الموت ورأى الغرق بأمّ ناصيته .

٤ - وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ .

هذا العجب من أن يكون الرسول بشرًا مثلهم مرت به البشرية ، وتكلم به الكفار فى حق الرسل ، وقال الذين كفروا لرسلهم : إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ... (إبراهيم : ١٠ ، ١١) .

أراد الله أن يكون الرسول بشرًا مثل الناس ، يحس بإحساسهم ، ويعرف قدراتهم وطاقاتهم ، وما يتقبلونه ويستحسنونه ، وما يطيقونه وما لا يطيقونه ، ويكون الرسول قدوة عملية أمامهم ، يلتزم بما يأمرهم به ، فيكون نموذجًا للعمل بما يأمر به ، والترك لما ينهى عنه ، فالرسول محمد ﷺ كان خُلقه القرآن ، يصلِّى ويصوم ، ويزكِّى ويحج ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وهو صادق أمين مجاهد ، يزور المرضى فى أقصى المدينة ، يتعهد أصحابه ، يرحم الضعفاء ، يعلِّم الرجال والنساء ، ويبلغ وحى السماء ، لكن الكفار رغبوا فى رسالة غامضة تقوم على الأساطير التى كانت تروج بينهم قبل الإسلام ، ورفضوا الدين الواضح الذى يقوم على الحجة والمنطق والوضوح ، واستكثروا أن يكون اليتيم الفقير هو النبىّ الرسول ، وكانوا يلقبون محمدًا قبل الدعوة إلى الإسلام بالصادق الأمين ، فلما جاءهم بالرسالة كفروا به حسدًا وعنادًا ، وقالوا : إنه ساحر يفرِّق بين المرء وقومه ، والمرء وأبيه وأمّه ، وهو كذَّاب لا ينزل عليه الوحى من السماء ، لكنه يدَّعى ذلك .

٥ – أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ .

كانوا يعبُدون آلهة شتى ، مثل اللات والعزّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، وكان القرآن يناقشهم فى عبادة أصنام لا تسمع ولا تجيب ، ولا تنفع ولا تضرّ ، ويستثير عقولهم للتفكير والتأمل ، فذهبوا إلى أبى طالب ، واشتكوا له من حملة محمد على الأصنام ، وتسفيه العقول التى تعبدها ، فأرسل إليه أبو طالب وقال له : أى ابن أخى ، ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ...؟ وتكلم رسول الله ﷺ فقال : «يا عم ، إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب والعجم» ، ففرحوا لذلك وقالوا : ما هى ؟ وأبيك لنعطينّها وعشرًا ، قال : «لا إله إلا الله» ، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ .

ومدار تعجبهم عجز الإله الواحد عن إدارة هذا الكون الكبير الواسع ، وعدم وفاء علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة الموجودة فيه .

ومعنى الآية :

ألفنا عبادة آلهة شتى ، لكل قبيلة إله ، ومحمد يريد منّا أن نعبد جميعًا إلهًا واحدًا ، إن هذا أمر عجيب عجبًا شديدًا ، بل هو غاية فى الغرابة ، وقد بين القرآن لهم أن الغرابة هى عبادة آلهة شتى ، وأن العقل يحتّم أن يكون إله الكون واحدًا ، قادرًا متّصفًا بكل كمال ، منزهًا عن كل نقص .

٦ – وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ .

وانطلق أشراف قريش ، وقد يئسوا من استمالة محمد ﷺ إلى دينهم ، بعد أن وسّطوا عمه أبا طالب ، فقال ﷺ : «والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو تنفرد منّى هذه السالفة» – أى : الرقبة – ، فلما شاهدوا تمسُّكه بدينه يئسوا منه ، وقالوا لبعضهم : اصبروا على عبادة آلهتكم ، فمحمد يريد دعوته ولن يتركها ، فلا أمل فى استمالته إلينا ، وقد سار على ذلك جمهور المفسرين ، وقيل : إن هذا الشيء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر وقيل : إن هذا دينكم ، يُطلب لينتزع منكم ، ويطرح ويراد إبطاله.[٦٢]

٧ – مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ .

عُرفت اليهودية فى بلاد العرب ولم تنتشر بينهم ؛ لأن اليهودية ليست ديانة دعوة ، ولا يعتبر يهوديًا عندهم إلا من كانت أمُّه يهودية ، وعُرفت النصرانية فى بلاد العرب ، وكانت هناك أديرة للرهبان والراهبات تنتشر فى أنحاء الجزيرة العربية ، وسجل الشعر العربى جمال بعض الراهبات ، وانشغال بعض العرب بهنّ ،

فقال أحدهم :

يـا ديـر عـنـتـرة الـمـفـدّى	قـد أورثـتـنـي حـزنًـا وكـدًا

وقال شاعر آخر :

لـو أنـهـا نـظـرت لأحـور راهب	عـبـد الإلـه صرورة الـمـتـعـبِّـد
لـرنا لـبـهـجـتـها وحسن حـديـثـها	ولـخـالـه رشـدًا وإن لـم يـرشـد

لكن المسيحية لم تنتشر انتشارًا كبيرًا بين العرب ، لأنها تأمر بالتسامح والعفو والصفح ، والعربى كان يميل إلى الغارة والعدوان والانتقام .

وقد عرف العرب شيئًا عن اليهودية والنصرانية ، وعرفوا أن النَّصارى يدينون بالتثليث ، ويزعمون أنه الدين الذى جاء به عيسى ، ويقولون : باسم الأب والابن وروح القدس ، إله واحد آمين ، لذلك قاوم مشركو العرب فكرة التوحيد الذى جاء به محمد ﷺ ، وقالوا : ما سمعنا بذلك التوحيد فى ملة النصارى ، وهى الرسالة الأخيرة التى جاء بها عيسى .

إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ .

يعنى : ما جاء به محمد من رسالة الإسلام إن هو إلا افتراء اخترعه من تلقاء نفسه ، وليس وحيًا من عند الله .

وقيل : ما سمعنا بهذا الدين الذي يدعونا إليه محمد ﷺ ، فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا .

٨ - أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ .

كان فى مكة جموع من الأغنياء ، وأصحاب الثراء والجاه والسلطان ، وقد استراحوا لهذه المنزلة ، وما يتبعها من خمر ولهو ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ يتيمًا فقيرًا من بنى هاشم ، حسدوا هذا النبى ، وجحدوا رسالته بغيًا وحسدًا : وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

أى : هلا كانت الرسالة فى أحد أغنياء مكة ، أو أحد أغنياء الطائف .

وقالوا : أما وجد الله غير هذا اليتيم الفقير ليتخذه رسولاً ، وقد أشار القرآن إلى أن الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، وهو يوزع الأرزاق ، والرسالة أسمى رزق ، فاختيار الرسول شأن من شئون الله تعالى ، وليس من شأنهم ، قال تعالى : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . (الزخرف : ٣٢) .

أى : إذا كان الأدنى – وهو المال – قد قسمناه ، فإن الأسمى – وهو الرسالة – أولى ألا يُقسِّمه إلا العلىّ الأعلى .

والمعنى :

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ...

كيف ينزل عليه الوحى من دوننا ، ونحن أهل الفضل والمنزلة ؟

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ...

هم لم يعتمدوا فى إنكار رسالتك على أدلة أو براهين عقلية ، بل قدّموا الشك فى الرسول وفى القرآن ، بدليل قولهم : إن محمدًا ساحر ، ثم قالوا : كاهن ، ثم قالوا : كذاب ، ثم قالوا : أساطير الأولين جمعها ولفّقها ، وادعى أنها كتاب من عند الله ، ولو تأمّلوا فى القرآن تأمل راغب فى الوصول إلى الحقّ ، لزال عنهم هذا الشك والمكابرة والعناد .

بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ .

أى : إنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال ما بهم من الحسد والشكّ .

والخلاصة : إنهم لا يصدّقون إلا أن يمسهم العذاب ، فيضطروا حينئذ إلى التصديق بذِكْرِى .

ويقول النحاة : إن كلمة : لَّمَّا . تؤذن بقرب وقوع ما بعدها .

مثل قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

ولذلك ذكر المفسرون هنا أن معنى : بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ . أن ذوقهم العذاب محقق وقريب الوقوع إن لم يؤمنوا .

وتذكرنا هذه الآية بأن بعض رجال من كبار المشركين كانوا يتسللون ليلاً قرب بيت النبى ﷺ ، ليستمعوا القرآن فى الظلام دون أن يراهم أحد ، وفى الصباح عند انصرافهم يتلاومون على ذلك ، ومنهم : أبو سفيان ، وأبو جهل ، والأخنس بن شريق ، وأن الأخنس بن شريق ذهب إلى أبى جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنّا كفرسى رهان ، قالوا : منّا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى نُدرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه ، فقام

عنه الأخنسُ وتركه ، فهو الحسدُ الذى حمل أبا جهل على الكفر بمحمد ﷺ ، ومقاومة دعوته ، وهو السرّ فى قول من قال : أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ...

٩ - أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ .

هل هم يملكون خزائن رحمة الله القوى الغالب الوهّاب ، كثير العطاء والهبات ؟

لقد اختار الله محمدًا لرسالته وعطائه ، فأعطاه الوحى والرسالة ، وليس لهم أن يعترضوا على عطاء الله لأحد خلقه ، لأن الله هو المالك ، وخزائنه ملء السماوات والأرض ، والاستفهام فى الآية إنكارى ، أى : إذا كانوا لا يملكون خزائن رحمة الله القوى القادر الوهاب ، فليقفوا عند حدودهم ، ولا يعترضوا على رسالة محمد ﷺ ، ولا يقترحوا أن تكون الرسالة إلى أحد أثرياء مكة أو الطائف .

١٠ - أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ .

هل هم يملكون السماوات والأرض وما بينهما ، والاستفهام هنا إنكارى ، مكمل للآية السابقة ، أى : إنهم لا يملكون رحمة ربك العزيز الوهاب ، ولا يملكون السماوات والأرض وما بينهما حتى يتحكموا فى شئون الوحى والرسالة ، ويختاروا الرسالة والنبوة لمن يشاءون ، ويمنعوها عمن يشاءون ، ثم تحدّاهم غاية التحدى فقال : فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ .

أى : إذا كانوا يملكون السماوات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا إلى السماوات العلى ، وليستولوا على عرش الله ، وليدبّروا ملكوت السماوات والأرض .

قال المفسرون :

وقوله سبحانه : فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ . تعجيز لهم ، وتهكم بهم ، واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حَبْلٍ أو نحوه .

وقال ابن كثير :

أى : إن كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليصعدوا فى الأسباب .

قال ابن عباس : يعنى طرق السماء .

وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة[٦٣] .

وقال النيسابورى :

فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ .

أى : فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق ، وقسمة الرحمة ، فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى المقصود . اهـ .

١١ - جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ .

ماذا يمثّل كفار مكة وصناديدها بالنسبة لقدرة الله العلى القدير ، إنهم ، جند مَّا هُنَالِكَ . بعيدًا ، لا يقرب من تصريف هذا الملك ، وتدبير تلك الخزائن ، ولا قدرة له على الاعتراض على مشيئة الله وإرادته ، فليس له حق المُلك ، وليس له حق الاعتراض ، وقد أهلكنا قبلهم جنودًا كثيرة ، كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم فرعون ، فليس ببعيد علينا إهلاكهم .

قال ابن كثير :

هؤلاء الجند المكذِّبون سيهزمون ويغلبون ويكْبتون ، كما كُبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين ، وهذه الآية كقوله جلّت عظمته : أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (القمر : ٤٤ ، ٤٥) . وقد كان ذلك يوم بدر[٦٤] . بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . (القمر : ٤٦) .

★ ★ ★

إنذار ووعيد

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

الأوتاد : جمع وتد ، وهو معروف .

وأصحاب الأيكة : الأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وأصحابها هم قوم شعيب .

وما ينظر هؤلاء : وما ينتظرون .

فــــــــواق : الفواق : الوقت بين الحلبتين .

قـــطـــنـــا : قسطنا ونصيبنا .

التفسير :

١٢ - كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ .

كذبت قبل قومك أمم من المكذبين فحق عليهم عذاب الله فى الدنيا : فقد غرق قوم نوح ، وأرسل الله ريحًا عاتية أهلكت قوم عاد ، وفرعون صاحب الملك الثابت ثبات الأوتاد ، أو صاحب الأهرامات التى تمثل الثبات والاستقرار فى ملك الدنيا كالأوتاد ، أو الذى كان يعذِّب المذنبين بالأوتاد يُشدُّون بها ، ويعذبون عليها ، أو صاحب الجنود الكثيرة الذين يوطدون ملكه كالأوتاد .

والخلاصة : ليس قومك يا محمد أوّل المكذبين ، فقد كذّبت قبلهم أقوام فأهلكناهم ، ومنهم قوم نوح وعاد وفرعون .

١٣ - وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ .

أى : وكذبت ثمود نبى الله صالحًا ، وعقروا الناقة ، قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ❁ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ❁ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ❁ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ❁ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

وَقَوْمُ لُوطٍ ، كذبوا نبيهم لوطًا ، فأصابهم عذاب مهلك .

وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ .

الأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وهم قوم شعيب كذبوا نبيهم ، وخالفوا تعاليم السماء فاستحقوا العذاب المهلك .

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ .

أولئك الكفار ، المتحزِّبون على الرسل عليهم السلام ، كما تحزّب عليك قومك يا محمد .

١٤ - إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ .

ليس لهؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل ، فكانت نتيجة ذلك أن حلّ بهم عقابى ، وثبت عليهم عذابى ، فأغرق قوم نوح ، وعاد أهلكت بالريح العقيم ، وفرعون أُغرق مع جيشه ، وأهلكت ثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالحاصب ، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلّة .

١٥ – وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ .

ما ينتظر هؤلاء المكذبون من أهل مكة ، إلا أن يصيح بهم الملك صيحة واحدة فيهلكوا جميعًا ، ولا يُنتظر بهم سحابة نهار ، أو ظلام ليل ، أو مقدار فواق ناقة ، والفواق : ما بين الحلبتين ، حيث كانت تحلب الماشية فى الصباح ، وفى المساء ، وما بينهما يسمى فَوَاقًا .[١٥] بفتح الفاء وضمها .

أو أن المراد بالصيحة : النفخة الثانية التى ينفخها إسرافيل فى الصور ؛ فيقوم الناس للحساب والجزاء والذهاب إلى الجنة أو النار .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

والمقصود من الآية : تأكيد جزائهم ، وتلقِّيهم لما يستحقُّون ، وأن الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها لن تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط ، يتم بعدها كل شيء يتعلق بالبعث والجزاء .

١٦ – وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ .

القِط : النصيب من العذاب أو النعيم ، ويطلق على الحظ ، والكتاب بالجوائز .

استعرض القرآن أفكارهم عن الألوهية والنبوة والجزاء .

فقال عنهم : أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ... (ص : ٥) .

وقال عنهم : أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ... (ص : ٨) .

وهنا يستعرض سخريتهم بالبعث والجزاء والحساب ، وطلبهم تعجيل نصيبهم من العذاب فى الدنيا قبل الموت .

والمعنى :

عجِّل لنا نصيبنا وقسطنا من الجزاء الأخروى هنا فى الدنيا قبل يوم الحساب ، وهو لون من ألوان التعنّت ، حكاه القرآن عنهم فى سور سابقة ، مثل : وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

ونسب سبحانه وتعالى القول إليهم جميعًا ، مع أن القائل هو النضر بن الحارث الذى تعجل نزول العذاب ، وفيه نزل قوله سبحانه : سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ .(المعارج : ١، ٢) .

وقيل : الذى تعجل نزول العذاب هو أبو جهل ، لكن الجميع قد رضوا بقول هذا القائل ، ولم يعترضوا عليه فنسب إليهم جميعًا ، وقيل : المراد بقوله تعالى : عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ... أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب .

وقيل : المراد : نصيبنا فى الجنة التى وعد بها محمد أتباعه ، وكل هذه الآراء تشير إلى سخريتهم وتطاولهم وغرورهم ، أو التحدّى والتكذيب لما يحدث فى الآخرة .

قال تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧) .

وقال تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

★ ★ ★

قصة داود عليه السلام

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

الأيد : القوة فى العبادة ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا .

أواب : رجاع إلى الله أو مسبِّح ، من قولهم : آب إذا رجع ، قال عبيد بن الأبرص :

وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يئوب

العشى : من زوال الشمس إلى غروبها .

الإشراق : وقت الضحى ، يقال : شرقت الشمس ، أى : طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت وصفت .

محشورة : محبوسة فى الهواء أو مجموعة .

كل له أواب : منقاد ، يسبّح تبعًا له .

شددنا ملكه : قويناه بالهيبة والنصر .

الحكمة : إصابة الصواب فى القول والعمل .

فصل الخطاب : الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل .

تمهيد :

من شأن القرآن تصريف القول ، والانتقال من فن إلى فن ، ترويحًا للسامع ، وتلوينًا فى أسلوب الحديث ، وهنا ينتقل القرآن إلى حكاية قصص بعض الأنبياء تسلية للرسول ، وليرى أن رسل الله تعرضوا للشدائد مثله ، وصبروا حتى جاءهم النصر.

التفسير :

١٧ - ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

أى : اصبر يا محمد على أذى قومك ، وعلى قولهم : سَٰحِرٌ كَذَّابٌ . وقولهم : أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ... وغير ذلك من أقوالهم ، واذكر لهم قصة داود عليه السلام ، صاحب القوة فى الدين ، والرجوع إلى الله تعالى بالصلاة والتسبيح وقراءة الزبور والمزامير.

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، ولا يفرّ إذا لاقى ، وإنه كان أوّابًا»[٦٦] .

أى : رجاعًا إلى الله تعالى فى جميع شئونه ، فكان كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله ، استغفر الله .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، عن أبى الدرداء قال : كان النبى ﷺ إذا ذكر داود وحدّث عنه قال : «كان أعبد البشر» .

والخلاصة : إن داود كان قويًا فى دينه بالصلاة والصيام والعبادة ، وكان رجاعًا توابًا إلى الله .

وفى القرآن الكريم : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

١٨ - إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ .

ذللنا الجبال وطوعناها بحيث إذا سبّح كانت الجبال تسبح معه ، فى وقت العشى : وهو من الزوال إلى الغروب ، وفى وقت الإشراق : وهو وقت صفاء الشمس ونورها وذلك وقت الضحى ، وارتفاع ضوء الشمس ، وتسبيح الجبال كان بلسان المقال لا بلسان الحال ، لأن الله قيد التسبيح بأنه كان فى وقت العشى والإشراق ، وبأنه كان مع داود .

أما التسبيح بلسان الحال فهو موجود فى كل وقت ، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله .

قال تعالى : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

وخصَّ تسبيح الجبال بوقت العشى وبوقت الإشراق ، لأهمية الوقتين ، ففى الأول صلاة العصر ، وفيه تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار ، وفى الثانى وقت صلاة الضحى ، وقد ورد فيها أحاديث كثيرة مشهورة ، حتى قال محمد بن جرير الطبرى : بلغت مبلغ التواتر ، وذكر الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب ، وأقلها ركعتان ، وأدنى كمالها أربع ، فست ، فثمان .

١٩ – وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

أى : وسخرنا له الطير ، حال كونها محبوسة فى الهواء ، تسبّح بتسبيحه ، فإذا مرّت به الطير وهى سابحة فى الهواء ، وسمعته يترنم بقراءة الزبور ، تقف وتسبّح معه ، وفى هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل ، والصوت الجميل الذى يعجب به الحيوان الأعجم ، فيجتمع عند رأسه يظلله ويتحرك بحركته ، كأنما حُشر وجمع من أجل ذكر داود لله .

كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

أى : كلٌّ من الجبال والطير مطيع مرجاع إلى أمره ، يسبح تبعًا له .

٢٠ – وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ .

وقوينا ملكه بكثرة الجند ، وبسطة الثراء ، ونفوذ الكلمة ، والنصر على الأعداء .

وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ . وهى وضع الشىء فى موضعه ، وحسن التأتى للأمور ، أو النبوة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأمور ، وصاحبها : حكيم .

قال تعالى : يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ . (البقرة : ٢٦٩) .

وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ . الخطاب الجامع المانع ، أو الفصل فى الخصومات ، وعلم القضاء ، مثل البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر .

وروى أن فصل الخطاب هو قول : أما بعد ، لأنها تفصل بين المقدمة والموضوع الذى يُتحدث فيه .

قال الآلوسى :

والمراد بفصل الخطاب : علم القضاء والفصل فى الخصومات ، وهو يتوقف على مزيد علم ، ودقة فهم وتفهيم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وإيتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذى هو أساس الملك ، ويلائمه أتم ملاءمة ، قوله تعالى بعد ذلك : وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ... (ص : ٢١) . والله أعلم .

★ ★ ★

خصمان يحتكمان إلى داود

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

وهـل أتـاك : استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده .

نـبـأ : خبر .

الـخصـم : المتخاصمين أو الخصماء ، ويطلق الخَصْم على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث .

تسوروا : التسوُّر : اعتلاء السُّور والصُّعُود فوقه ، مثل : تسنَّم الجمل ، إذا علا فوق سنامه .

المحراب : فى الأصل : صدر المجلس ، ومنه : محراب المسجد ، لأنه فى صدره ، ويطلق على مكان العبادة .

ففزع منهم : الفزع : انقباض يعترى الإنسان من الشىء المخيف .

بغى بعضنا : جار وظلم .

ولا تشطط : الشطط : مجاوزة الحق فى كل شىء ، يقال : شط فلان على فلان فى الحكم ، واشتط ، إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

واهـدنـا : دلَّنا وأرشدنا .

سواء الصراط : الطريق السويّ .

نعجة : هى أنثى الضأن ، وتطلق على المرأة مجازا .

أكفلنيها : اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، والمراد : ملكنيها ، أو اجعلها كفلى ، أى : نصيبى .

وعزّنى : غلبنى .

فى الخطاب : فى المجادلة والمحاجة .

الخلطاء : الشركاء .

فتناه : امتحنّاه وابتليناه .

فاستغفر ربه : سأله المغفرة والصفح .

خرّ راكعا : سقط وهوى ساجدًا .

وأناب : ورجع إلى الله تعالى بالتوبة .

لزلفى : لقربى ومكانة .

مآب : مرجع فى الآخرة .

تمهيد عن فتنة داود عليه السلام

تعرّض داود عليه السلام لفتنة أو محنة ، حيث تسوّر عليه رجلان السُّور ، ووصلا إلى الغرفة التى يتفرغ فيها للعبادة ، وعرضا عليه خصومة بينهما ، وتنبه داود إلى أنه قضى فى الخصومة قبل أن يسمع الطرف الثانى ، فاستغفر الله وتاب إليه ، فغفر الله له ، وجعل له زلفى وحسن مآب ، وقد تعددت الآراء حول فتنة داود وخطيئته ، والقرآن لم يذكر خطيئة هنا ، وحسبنا كتاب الله ، فيه غنية عما فى غيره ، لأن اليهود ادّعت على داود أنه رأى امرأة حسناء جميلة تغتسل ، فلما أحسَّت به أرسلت شعرها فسترها ، فازداد تعلقًا بها ، وذهب إليها وسألها عن زوجها ، فعلم أنه جندى يقاتل ، فطلب من قائد الجيش أن يجعله فى صدر الجيش ، حتى قُتل ، ثم تزوج داود المرأة ، وهى قصة من الإسرائيليات التى أمرنا بالتوقف عن قبولها ، لأن عصمة الأنبياء جزء من عقيدتنا ، فالله تعالى عصم ظواهر الأنبياء وبواطنهم من التلبس بأمر منهى عنه ، وهذه القصة لا تليق بالأسوياء من الناس ، فضلاً عن رسول كرمه الله ، وقال عنه : ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ . (ص : ٢٥) . وتكريم القرآن له يغنينا ، ويجعلنا نثق بكلام ربّنا ، ونرفض اتهام اليهود له بأنه ساق (أوريا) إلى الحرب حتى يقتل ، ولم يحزن عليه ، وتزوج امرأته بعد وفاته ، أو أنه خطبها بعد أن خطبها

أوريا ، ففضل أهلها داود ، أو أنها أعجبته فطلب من زوجها أن يتنازل عنها لداود ، فقبل على استحياء ، وطلّقها ثم تزوّجها داود ، وكلها آراء مدخولة ، تحتاج إلى سند قوى من النقل والعقل ، ولا سند لها من النقل ولا من العقل ، فالنقل يفيد أنّ الله قوّى ملكه ، وأعطاه القول الحقّ ، والمنطق والحكمة وفصل الخطاب ، والعقل يفيد أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختار رسولاً ملكًا ، وأعطاه المواهب الإلهية ، حفظه من التلبُّس بما لا يليق بالرسل الكرام ، وقد ورد الثناء على داود فى الصحيحين بأنه أفضل الناس عبادة وصلاة وصيامًا .

وعن سعيد بن المسيب ، أن على بن أبى طالب قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصّاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد القذف فى حق الأنبياء .

كما روى أنه حدّث بذلك عمر بن عبدالعزيز وعنده رجل من أهل الحق ، فكذّب المحدّث به ، وقال : إن كانت القصة على ما فى كتاب الله ، فالتماس خلافها كذب واختلاق ، فقال عمر بن عبدالعزيز : لَسماعى هذا الكلام أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس .

والأنبياء والمرسلون يجب فى شأنهم العصمة والصدق والأمانة ، والتبليغ والفطانة ، لأن الله جعلهم واسطة بينه وبين الناس ،وأقام بهم الحجة على البشر بأنه بلغهم وحيه وأمره .

قال تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وقال سبحانه : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ... (الأنعام : ٩٠) .

التفسير :

٢١ - وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ .

وهل وصل إلى علمك أيها الرسول الكريم ذلك النبأ العجيب ، وهو تسوّر خصمين السور على داود ، حال كونه متفرغًا للعبادة ، إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فها نحن نقصُّه عليك .

٢٢ - إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ .

فما إن دخلوا على داود حتى فزع خوفًا منهم ، فهو متفرغ للعبادة ، وحوله حراس ، ولم يأتوه من الباب ، ولم يستأذنوا فى الدخول عليه ، ولم يأتوه فى اليوم الذى يجلس فيه للقضاء ، فظن أنهم يريدون به

سوءًا ، كالقتل أو الإيذاء ، لكنهم بادروه مطمئنين ، وقالوا له : لا تخف منّا ، فما أردنا بك سوءًا ، لكن قصدناك لتقضى بيننا فى خصومة ، فنرجو أن تحكم بيننا بالحق والعدل ، ولا تبتعد عن الإنصاف إلى الشطط والجور ، وأرشدنا إلى الطريق السويّ الذى نتبعه ، فقد بغى أحدنا على الآخر ، ويبدو أن الذى كلّم داود وطلب منه الحكم بالعدل ، والبعد عن الجور والظلم ، هو ذلك الخصم الذى شعر بمرارة الظلم وفَداحَتِه ، فلم يتلطف فى القول ، وتجرأ فى أمر داود بالحكم بالعدل والبعد عن الشطط ، وكان نبى الله داود مثالاً يحتذى ، ونموذجًا يقتدى به فى احتمال خطأ الخصوم ، والصبر والاحتمال ، والحلم والابتعاد عن الغضب .

من تفسير القرطبى

قال القرطبى :

فإن قيل : لِمَ فزع داود وهو نبى ، وقد قويت نفسه بالنبوّة ، واطمأنت بالوحى ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ، ومنهم من كان يخاف ، ألا ترى إلى موسى وهارون – عليهما السلام – كيف قالا : إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ . (طه : ٤٥) . أى : فرعون ، فقال الله لهما : لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . (طه : ٤٦) .

ويمكن أن نزيد على كلام القرطبى ما يأتى : إن داود جاء فى أعقاب موسى ، وقد اعتدى بنو إسرائيل على الأنبياء بالقتل .

قال تعالى : سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... (آل عمران : ١٨١) .

وقال تعالى : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... (النساء : ١٥٥) .

٢٣ – إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ .

إن هذا أخى يملك تسعًا وتسعين نعجة ، وأنا أملك نعجة واحدة ، فطلب منّى أن أتنازل له عن نعجتى حتى تكتمل النعاج عنده مائة ، وهو رقم مكتمل ، وجاء بحجج وأدلة قوية غلبنى بها ولم أستطع الردّ عليها ، لقد كانا أخوين فى النسب ، أو فى شركة ، أو فى الدِّين ، أو فى الصحبة ، لكن الغنىَّ كان جشعًا لا يشبع ، فالمفروض أن يساعد الغنى الفقير ويعطف عليه .

قال تعالى : وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ... (النور : ٣٣) .

٢٤ – قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ .

أى : قال داود للشاكى : إنَّ أخاك قد ظلمك حين طلب منك أن تضم نعجتك إلى نعاجه ، فأنت فقير بسيط ، يجب عليه أن يقويك ويزيدك ، لا أن يأخذ منك ، ورغب داود فى مواساة الشاكى فبين له أن كثيرًا من الخلطاء والشركاء يجور بعضهم على بعض فى التعامل ، كما قال المتنبى :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عِفَّة فلعلةٍ لا يظلم

إلا المؤمنين الذين يراقبون الله ، ويرغبون فى صالح الأعمال ، فيبتعدون عن الظلم والطمع والجشع ، وما أقل هؤلاء عددًا ، وأندرهم وجودًا ، كما قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

ولعل هذه القضية ذكَّرت داود بشىء ما طمع فيه من صاحبه ، قد يكون فرسًا جميلاً ، أو أرضًا ، أو أى شىء رغب فى تملّكه وهو النبىّ الملك ، وكانت هذه القضية وسيلة ذكّرته شيئًا ما فعله شبيها بها ، فاستغفر الله عما فعله ، وخرّ ساجدًا ، راجعًا مُنيبًا إلى الله تعالى مستغفرا .

وقيل : إن داود تسرع فى الحكم فقضى للمدَّعِى قبل أن يسمع دفاع المدَّعَى عليه ، ثم تنبّه للأمر فاستغفر الله وخر ساجدًا للّه ، وأناب إليه لأنه لم يسمع شهادة الشهود ، أو لم يسمع قول المدّعى عليه .

وقيل : إن داود عليه السلام احتجب عن رعيته متبتلا ، منقطعا لعبادة ربّه ، فعوتب فى ذلك ، وكانت هذه المحاورة لتذكيره بأن القضاء بين الناس ، والانشغال بشئون الرعية أولى من التبتل والعبادة ، فاستغفر الله لذلك فغفر الله له .

قال ابن عباس : إن داود جزّأ زمانه أربعة أجزاء : يومًا للعبادة ، ويومًا للقضاء ، ويومًا للاشتغال بخواص أموره ، ويومًا يجمع فيه بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، ففاجأوه فى غير يوم القضاء ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفى يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه .

٢٥ – فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ .

أى : قَبِل الله تعالى منه توبته ، ورفع درجته ، وإنَّ له عند الله مآبًا حسنًا ، ومرجعًا كريمًا فى الآخرة ، عند مليك مقتدر ، وتذكرنا هذه الآية بأن النبى ﷺ كان يستغفر الله تعالى فى اليوم والليلة مائةُ مرة ، وأن الأبرار المقربين يرجعون إلى الله ، ويتبتلون إليه ، ويكثرون من التوبة والاستغفار ، وأن الله يحفظ الرسل الكرام من الخطايا والكبائر ، فهم لا يرتكبون إلا خلاف الأولى ، ثم هم يعودون لله تائبين راجعين باكين

مستغفرين ، وقد كان داود كثير السجود ، كثير البكاء ، كثير العبادة ، كثير الرجاء ، وتكفى هذه الآية كدليل على ذلك ، وكلها حنان وعطف ومغفرة فى الدنيا ، وبيان بالزلفى والقربى والجنة فى الآخرة ، مع حسن المآب والمرجع ، وحسن المنزلة عند الله تعالى .

★ ★ ★

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

خليفة : استخلفناك على المُلك فى الأرض ، أو جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق .

سبيل الله : طريق الله الحق ، وصراطه المستقيم .

نسوا يوم الحساب : أهملوه وتناسوه كأنه غير موجود ، وتركوا العمل له .

باطلا : عبثًا ولهوًا .

ويل : هلاك وعذاب يأتيهم من النار .

الفجار : جمع فاجر ، وهو من ينطلق فى المعاصى .

مبارك : كثير المنافع الدينية والدنيوية .

ليدبروا : ليتفكروا .

ليتذكر : ليتعظ .

الألباب : جمع لبّ ، وهو العقل ، وجمعه : عقول ، أى : ليتذكر أصحاب العقول ربّهم .

تمهيد :

أتبع الحق سبحانه وتعالى قصة داود بدعوته ودعوة الناس جميعًا إلى الحكم بالعدل ، والبعد عن الهوى والظلم .

ويقول العلماء : إنك إذا ابتليتَ بشخصٍ معاند مكابر ، لا يفتح قلبه للدليل ، ولا يفتح عقله للمنطق والبرهان ، فمن أساليب السياسة الحكيمة أن تروى له قصةً ، أو تحكى له موضوعًا ، فيفتح مداركه لاستيعابه ، ويسترسل وراءك لمتابعته ، ومن السهل بعد ذلك أن تعيد عليه عرض الموضوع ، فربما ترك المكابرة والعناد .

ولذلك أعاد القرآن هنا عرض قضية التوحيد والحساب ، وقيام الكون كله على طاعة الله وتوحيده ، فبين أن الكون لم يخلق عبثًا ، وإنما ليشهد بقدرة الخالق ، ولولا البعث والجزاء لتساوى الأتقياء والفجَّار ، وقد أنزل الله القرآن للتدبر وإعمال العقل ، فهو كتاب مبارك ، يأخذ بيد العقلاء إلى التأمل والتفكر ، ثم الإيمان بالله واليوم الآخر .

التفسير :

٢٦ - يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ .

تأتى هذه الآيات بعد قوله تعالى : فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ .

فالله غفر له ، وجعل له منزلة عليا ، وأرشده إلى استكمال هذه المنزلة العالية ، أو أمره أمرًا مستقلاً بأن يحكم بالعدل .

ومعنى الآية :

لقد استخلفناك يا داود فى الحكم بين الناس ، وجعلناك رسولاً ملكًا ، جمعت بين الرسالة والملك ، فاحكم بين الناس بالعدل ، وقد تكرر الأمر بالعدل فى القرآن الكريم ، وعلى العدل قامت السماوات والأرض ، والله تعالى هو الحق ، والقرآن نزل بالحق .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ... (النساء : ٥٨) .

وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...

أى : لا تمل عن الحق ولا تحد عنه ، فتتبع هوى نفسك ، فإن اتباع الهوى يبعدك عن طريق الله السوىّ ، وسبيله المستقيم .

واتباع الهوى يطلق على الميل الشخصى ، أو طاعة الشيطان ، أو الخروج عن العدل إلى الظلم ، وقد حذر القرآن الكريم من اتباع الهوى فى كثير من آياته .

قال تعالى : أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجاثية : ٢٣) .

ويقول البوصيرى :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاحذر هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولّى يصم أو يصم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ .

الذين يتركون الحق ، ويضلّون عن سبيل معالمه ، ويرتضون بالباطل ، لهم عذاب شديد يوم القيامة ، لنسيانهم ما فى القيامة من الأهوال العظام التى يشيب لها الوليد ، وأنه يوم الدين ويوم العدالة ، وأن الله سيحاسب فيه كل نفس بما كسبت ، وسيجازى فى هذا اليوم على الإحسان إحسانًا ، وعلى السوء سوءا .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس : ٧ - ١٠) .

ويقول الله تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه النبى ﷺ : «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[١٧] .

٢٧ - وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ .

لم نخلق السماء والأرض ، والفضاء والهواء ، والكون كله باطلاً وعبثًا ولهوًا ، بل خلقناه لحكمة ، وهى معرفة الناس لله وعبادته وطاعته ، وامتثال أمره ، واجتناب نواهيه .

قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (الذاريات : ٥٦) .

أى : ليعرفونى ويعبدونى ويطيعونى .

ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...

بأنهم خلقوا عبثًا ، وسيتركون سدى ، فلا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء ، والآية ردٌّ على المشركين فى إنكار البعث ، ذلك لأن هذا الكون البديع يحتاج إلى إله عادل ، والدنيا ليست دار جزاء ، فلابد من يوم للجزاء العادل ، وإنكار هذا اليوم كفر .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ .

الذين كفروا بالله ، وعزموا على هذا الكفر ، وأصروا على أنهم لو مكثوا فى الدنيا خالدين لاستمرّ كُفْرهم بالله ، فسيكون عقابهم النار ، التى يصلون عذابها فتحرق أجسامهم ، ويأكلون الضريع والزقوم وجمر جهنم وحجارتها ، ثم يُسقون من الحميم الذى يُقطِّع أمعاءهم ، ويشوى وجوههم .

٢٨ – أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ .

على العدل والحق قامت السماوات والأرض ، والكون لم يخلق عبثًا وإنما لحكمة سامية هى معرفة الله وطاعته ، فمن أطاع الله فى الدنيا فله الجنة فى الآخرة ، ومن عصاه فى الدنيا فعقوبته النار فى الآخرة .

وهنا فى هذه الآية إضراب انتقالى .

والمعنى :

بل أنجعل المؤمنين بالله ، الذى عمّروا دنياهم بالأعمال الصالحة ، ونفع البلاد والعباد مرضاة لله ، كالمفسدين فى الأرض ، بالزنا والسرقة والكبر والبطر واتباع الهوى ؟ أم نجعل المتقين لله الخائفين من عقابه الممتثلين لأمره ، كالفجار الذين خرجوا على طاعته ، واستحلوا مخالفته ، وتكبروا على هدى رسله ؟ وتلتقى هذه الآية مع الآية السابقة عليها ، على أن البعث حق حتى يكافأ العاملون المصلحون ، ويعاقب المفسدون الفجار .

٢٩ – كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ .

أى : هذا القرآن كتاب مبين ، أنزلناه من السماء إليك يا محمد ، مشتملاً على البركة والخير ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وقد أنزلناه بواسطة جبريل الأمين ليتدبروا آياته وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، فتخشع قلوبهم ، وتلين أفئدتهم . وقد أنزلنا هذا الكتاب ليستخدم أصحاب العقول عقولهم ، فى تأمل حديث القرآن عن بدء الخليقة ، وعن إبداع الكون ، وعن قصص الأوّلين ، وعن التشريع والأحكام ، والآداب والوصايا ، وعن القيامة وأحوالها ، وبذلك يؤمنون ويهتدون بعد تدبر وتذكر .

والآية كما ترى دعوة إلى استخدام العقل والفكر واللبّ ، وترك التقليد الأعمى ، والتدبر لا يكون بحفظ حروفه وإهمال حدوده ، بل بهما معًا .

قال الحسن البصرى :

قد قرأ القرآن عبيد وصبيان ، لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيّعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا ، وقد – والله – أسقطه كلّه ، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خُلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء والأتقياء ، لا أكثر الله فى الناس من مثل هؤلاء .

. . .

قصص سليمان عليه السلام

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

وهبنا : أعطينا ومنحنا .

نعم : كلمة تدل على المدح والثناء .

أواب : رجَّاع إلى الله بالتوبة والتسبيح .

بالعشي : من زوال الشمس عن كبد السماء إلى آخر النهار .

الصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل هو الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه ، ويقف على مقدم حافرها ، كما قال الشاعر :

ألف الصُّفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا

الجياد : واحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل .

حب الخير : حب الخيل .

توارت : غيبت عن البصر .

المسح : إمرار اليد على الجسم .

التفسير :

٣٠ - وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

أنعم الله على داود بسليمان .

قال تعالى : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ... (النمل : ١٦) .

ووصف الله سليمان بأنه نعم العبد ، أى : نعم العبد المطيع لله ، والعبودية الحقة لله أعلى منزلة .

قال تعالى : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ... (الإسراء : ١) .

ويقول الشاعر :

لا تـدعُنـى إلا بـيـا عـبـدهـا فـإنـه أفضـل أسـمـائـى

إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

رجَّاع إلى الله ، كثير التوبة والاستغفار والذكر ، والرجوع إلى الله تعالى ، وقد كان سليمان كثير الاستغفار والتوبة والدعاء ، ومن ذلك ما حكاه القرآن عنه : قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ . (ص : ٣٥) .

والخلاصة : أنعمنا على داود بسليمان وهو نعم الإنسان ، فهو رجَّاع إلى الله .

٣١ – إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ .

كان سليمان يستعرض خيله ، ليتبين مدى استعدادها للحرب وتأمين المملكة .

ومعنى الآية :

اذكر حين عرضت عليه الخيل الممتازة ، فهى إذا وقفت وقفت على ثلاث أرجل هادئة منضبطة ، وإذا جرت أسرعت سرعة الجياد الأصيلة ، وقد استعرضها سليمان فى وقت العشىِّ من بعد الظهر إلى غروب الشمس .

والخلاصة : استعرض سليمان الخيل الأصيلة فى مساء اليوم .

٣٢ – فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ .

إن سليمان هنا يعترف بأنه يحب الخيل ، وهو يفعل ذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره ، واحتسابًا للجهاد بها ، لا ترفًا ولا رياءً ولا تظاهرًا بحب الدنيا وخيلها ، وفى صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٢٨] .

وقد أقسم الله بها ، وبأصواتها وصهيلها فى قوله تعالى : وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا . (العاديات : ١ – ٥) .

وهو قسم بالخيل تعدو عدوا فتسمى العاديات ، وتصهل ضَبحًا ، ويتطاير الشرر من حوافرها كأنها توقد نارًا عند العَدْو . فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا .

وتغير على العدوِّ فى الصباح ، فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا .

فتثير النقع فى سماء المعركة ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا .

فتتوسط الجموع لتحقيق النصر ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا .

وكأن الله يحفزنا إلى الهمة ، والفروسية والنشاط والجهاد ، حفاظًا على حرماتنا وأوطاننا .

وسليمان عليه السلام كان يحب الخيل ، ويقول : إنى أحب هذا الحبّ ، لأنه عن ذكر ربى وطاعته ، فالإنسان قد يحب شيئًا جميلاً فيحب هذا الحب ، وقد يحب ابنه العاصى ، أو يعشق امرأة لا يتيسر زواجه منها ، فيكره هذا الحب .

وهنا نجد نبى الله سليمان يقول : إنى أحببت حب الخيل عن ذكر ربى وطاعته وامتثال أمره .

حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ .

حتى أسرعت الخيل وغابت عن بصره .

٣٣ – رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ .

السوق جمع ساق ، والأعناق جمع عنق ، أى : قال سليمان لجنده : ردُّوا الخيل علىّ – بعد أن غابت عنه – لأزداد تعرفًا عليها ، وتقديرًا لها ، فلما ردوها عليه ، أخذ يمسح على أرجلها وعلى أعناقها ، تقديرًا لها وحبًا وتكريمًا لها ، وقد فعل سليمان ذلك بنفسه ، وهو الرسول الملك ، ليكون قدوة لأمّته ورجاله فى تكريم الخيل وتقديرها ، لأنها آلة النصر ووسيلة الجهاد .

آراء للمفسرين

كثير من المفسرين ذهب إلى أن سليمان عليه السلام ، استعرض الخيل وانشغل باستعراضها ، والنظر إلى عَدْوِها وسرعتها حتى غابت الشمس ، وانشغل بالخيل عن صلاة العصر .

فقال لجنوده : ردّوا علىّ الخيل ، فلما ردّوها عليه ، أخذ السيف وجعل يقطع أرجلها ورقابها ، لأنه شغلته عن الصلاة ، نجد ذلك فى تفسير النسفى ، وحاشية الجمل على الجلالين ، وغيرهما من كتب التفسير .

لكن الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، رفض هذا الرأى ، ورأى أن سليمان كان يكرِّم الخيل ويختبرها بيده ، تشريفًا لها ، لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدوّ .

كذلك فإن الإمام ابن حزم قد رفض أن سليمان قد قتل الخيل ، لأنها شغلته عن صلاة العصر ، وقال : إن هذه الفكرة خرافة موضوعة مكذوبة ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها ، وإتلاف مال منتفع

به بلا معنى ، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه ، لا على ذنبها ، وبيَّن أن معنى الآيات أن سليمان أحب الخيل طاعة لله ، وأنه أمر بردها فطفق مسحًا بسوقها وأعناقها بيده برًا بها وإكرامًا لها ، وليس فى الآيات ما يشير إلى قتل الخيل ، أو تعطيل الصلاة[٦٦] .

تعليق

إننا فى التفسير نحتاج إلى تحكيم النقل الصحيح ، والعقل السليم ، حتى نجرد تفسير القرآن الكريم من الدخيل ، ومن الإسرائيليات ، ومن الآراء التى تتصادم مع العقل والنقل ، وتسىء إلى رسل الله وإلى روح الأديان .

ومن المفسرين من ادعى أنه طلب ردّ الشمس حتى يصلّى العصر ، وليس لهذا الرأى سند من النقل ولا من العقل ، وكتاب الله غنى عن هذه الأقوال المدخولة ، وكما يقول الإمام محمد عبده : إن الله تعالى لن يسألنا يوم القيامة عما قال الناس فى تفسير القرآن ، وإنما سيسألنا ماذا فهمتم من القرآن ، والقرآن غنى عن الأقوال المريضة فى تفسيره .

نحن فى حاجة إلى أن نلتصق بالقرآن وأن نعود إلى روحه وروحانيته ، وآياته وآدابه وهدايته ، وفيه ما يكفى وما يشفى إن شاء الله رب العالمين .

★ ★ ★

فتنة سليمان وقبول دعائه

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

فتنا : ابتلينا وامتحنا .

جسدا : جسد إنسان .

أناب : رجع إلى ربه .

لا ينبغى : لا يتيسّر .

من بعدى: من دونى .

سخرنا: ذللنا ويسرنا .

رخاء: لينة طيعة له ، لا تمتنع عليه .

أصاب: قصد وأراد .

الأصفاد: القيود والأغلال .

امنن: أنعم على من شئت .

أمسك: احبس وامنع من شئت .

تمهيد :

يمتحن الله عباده لرفع درجاتهم ، وتكفير سيئاتهم ، وتمرينهم على تحمل البلاء ، وتوجيههم إلى الطريق المفيد النافع ، فهى دروس يمتحن الله بها الرُسُل والأنبياء ، ليأخذوا منها العبرة ونور البصيرة .

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٣١) .

ومن ذلك امتحان سليمان ، وفتنته بالاختبار والبلاء ، ثم إنابته ورجوعه إلى الله .

وفى الحديث الصحيح أنه عزم أن يطوف على أربعين زوجة من زوجاته ، يبدأ ذلك من ليلة معينة ، ونسى أن يقول إن شاء الله ، وكان يأمل أن تأتى كل امرأة منهن بولد ، فلم تأت أى واحدة منهن بولد ، إلا واحدة جاءت بسقط ، فوضعته القابلة على كرسيه ، فهذا أقرب الآراء إلى فتنة سليمان عليه السلام .

وقد وردت فى الإسرائيليات قصص كثيرة ، أمرنا أن نضرب عنها صفحا لغرابتها ، وبُعْدها عن النقل الصحيح ، والعقل السليم ، مثل أن سليمان أعطى خاتمه لجرادة وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان لها فى صورة سليمان ومثّل صوت سليمان ، وطلب منها الخاتم الذى أعطاه لها ، فأعطته له ، فصار يتحكم فى الملك ، وسليمان محروم من الملك ، حتى استرد خاتمه ، وقد رفض المفسرون الثقات هذه الآراء[٧٠] .

لقد أمرنا أن نستخدم تراثنا الأمين ، وأن نحكم عقولنا المتخصصة ، أى عقول من درس القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وتاريخ التشريع ، وعلوم الدين الإسلامى ، ليقول كلامًا حكيمًا فى تفسير كتاب الله تعالى .

قال تعالى : فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (الأنبياء : ٧) .

التفسير :

٣٤ - وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ .

اختبرنا سليمان ، وامتحناه امتحانًا شديدًا ، كما يوضع الذهب الأبريز فى النار ، ليتبين جيّده من خبثه.

وقد ورد فى الصحيحين وفى غيرهما : أن سليمان عليه السلام قال : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة ، كلٌّ واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهنّ فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله ؛ لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون .

والذى أخرجه البخارى عن أبى هريرة أنه قال : لأطوفن الليلة على أربعين امرأة[٧١] .

وفى شرح الحديث : «لأطوفن الليلة» : كناية عن الجماع ، قالوا : ولعل المقصود طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولا مانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال ، وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان هى أنه لم يقل (إن شاء الله) وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقيق ما طلبه .

وهذا الحديث الشريف يذكّرنا بالآية القرآنية : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... (الكهف : ٢٣ ، ٢٤) .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أن المشركين سألوا النبى ﷺ ثلاثة أسئلة : عن أهل الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فقال النبى محمد ﷺ : «غدًا أجيبكم» ، ونسى أن يقول إن شاء الله ، فتأخر الوحى خمسة عشر يومًا ، ثم نزلت الإجابة على هذه الأسئلة ، ونزل توجيه السماء لنا جميعًا وللنبى الأمين ، أن نقول : (إن شاء الله) عند العزم على عمل شىء .

والأقرب إلى تأويل الآية ٣٤ من سورة «ص» ما جاء فى الحديث الصحيح السابق ، ويكون تأويل الآية هكذا : اختبرنا سليمان وامتحنّاه ، وكان يأمل أن يرزقه الله سبعين أو أربعين ولدًا ليجاهدوا فى سبيل الله ، ونسى أن يقول إن شاء الله ، فلم تحمِل من نسائه امرأة ، إلا امرأة واحدة جاءت بسقط ، وضعته القابلة على كرسىّ ملكه ، فتيقّظ وتنبّه ، ثم أناب ورجع إلى الله تائبًا مستغفرًا منيبًا .

٣٥ - قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ .

قدَّم سليمان طلب المغفرة من الله ، حتى يكون طاهرًا ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى ، فاحتاج إلى طلب المغفرة ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن هذا فى مقام التذلل والخضوع ، كما قال ﷺ : «إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة» .

وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ .

أى : هب لى ملكًا لا يكون لأحد غيرى لعظمه ، أى أن يكون زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة ، بالغة حدّ الإعجاز ، ليكون ذلك دليلاً على نبوّته ، وقاهرًا للمبعوث إليهم ، ونلحظ أن سليمان قدّم الدعاء بطلب المغفرة ، وأخر الدعاء بطلب الملك ، وقد نتساءل : كيف يهتم رسول أمين بمطالب دنيوية ؟ والجواب : أن سليمان كان مشغولاً بنشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة إلى الممالك المجاورة ، فطلب من الله تعالى أمرًا عظيمًا معجزًا ، ليساعده فى إعلاء كلمة الله ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وتنفيذ شرع الله على الوجه الأكمل .

٣٦ - فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ .

استجاب الله دعاء سليمان ، فسخَّر له الريح تجرى بأمره وتذهب إلى أى مكان يريده ، لينة مذللة حينًا ، وعاصفة قوية حينًا آخر .

قال تعالى فى موضع آخر : وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٨١) .

٣٧ - وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ .

وسخر الله له الشياطين ، وهم مردة الجن وعتاتهم ، سخر له بعضهم فى أعماله ، فاشتغلوا له ببناء المحاريب والتماثيل ، والقصاع الكبيرة ، والقدور الكبيرة الراسية فى مكانها لصعوبة انتقالها ، وسخّر له بعضًا آخر من الجنّ يغوص فى البحر ، ليستخرج له ما يحتويه من اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة .

٣٨ - وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ .

وسخر الله له عقوبة المردة من الجن ، فوضع الأغلال والقيود فى أيديهم ، أو وضع الأغلال فى جماعة منهم مع بعضهم ، والأصفاد : جمع صفد ، وهو ما يوثق به الأسير ، وقد يكون القيد فى يد الأسير مستقلا ، وقد يقيَّد الأسير مع مجموعة من الأسرى .

وقد سخر الله له هؤلاء المتمردين ، ليعملوا له ما يحتاج إليه أيضًا ، وقريب منه المحكوم عليه بالأشغال الشّاقة ، الذى يشتغل بأعمال تُطلب منه ، أو يحكم عليهم بالعزل الانفرادى ، فيقيدون بالأغلال والسلاسل ليُتّقى شرهم ، ونحن لا نعلم حقيقة تلك القيود ، ولا كيف تكون العقوبة ، فعلينا أن نؤمن بأن سليمان لعظم ملكه لم يكتف بتسخير الإنس فى أعماله ، بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليه ، ونتقبل هذا كما قصه القرآن الكريم ، فالعبرة به ماثلة ، ولا نتزيّد فيه .

٣٩ – هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

أعطيناك هذا الملك العظيم ، وسخرنا لك الريح والشياطين ، وسلّطناك على المردة تحبسهم وتقيدهم ، وأبحنا لك العطاء لمن تشاء ، والإمساك عمن تشاء ، فلا نسألك ، ولا نُحاسبك ، ولا عتاب عليك ولا تثريب ، يقول الله ذلك ، وهو يعلم حسن تصرفه فيما فوّضه إليه .

٤٠ – وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ .

ومع هذا الملك العظيم الذى لم يُسخَّر لأحد سواه ، فإن له عند الله الزلفى والقربى والجنة والرضوان ، وحسن المآب فى الآخرة .

قال تعالى : رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ . (البينة : ٨) .

وقد تكررت قصة سليمان وعطاء الله له فى القرآن الكريم .

قال تعالى : وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ * وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ . (الأنبياء : ٨١ ، ٨٢) .

من تفسير المراغى

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ، حيث ادّعت بعض الإسرائيليات أن إحدى زوجات سليمان كانت تسجد لوثن هى ووصيفاتها ٤٠ يومًا دون علم سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود ، دسُّوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون ، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم ، كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم وآخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب . اهـ .

* * *

قصص أيوب عليه السلام

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

تمهيد :

مرت قصة داود وسليمان ، وقد أنعم الله عليهما بالنبوة والملك ، وطائفة من النِّعم ، وهذه قصة أيوب وقد ابتلاه الله بالمرض ، وفقد الأبناء ، وتفرُّق الأتباع ، ووسوسة الشيطان ، حتى كان الرجل يقول لصاحبه : إن طول مرض أيوب دليل على أنه قد ارتكب معصية كبيرة ، فعاقبه الله عليها بهذا المرض الطويل المؤلم ، وقد مدَّ أيوب يده إلى الله فى أدب وترحّم ، فشكا حاله ولم يطلب شيئًا ، وترك للّه أن يمنّ عليه باللطف والفضل .

التفسير :

٤١ - وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .

هذه الآيات مواساة لرسول الله ﷺ ، وفيها قدوة وأسوة ، حتى يقتدى الرسول محمد ﷺ بأيوب فى صبره ، وفى دعاء ربّه ، وتقتدى به الأمة من بعده .

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ...

أى : واذكر لنفسك ولأمتك عبدنا أيوب ، كنموذج فى الصبر على البلاء ، واحتمال المصائب فى النفس والولد ، والأهل والأتباع .

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .

وقد نسب ما أصابه إلى الشيطان تأدبًا مع الله تعالى .

وقال فى سورة الأنبياء : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . (الأنبياء : ٨٣) .

أى : أصابنى البلاء فى صحتى ، وأولادى ، وتفرّق أتباعى ، وكان أيوب فى صحة وعافية ، وأبناء أصحاء مجتمعين حوله ، وزوجة مطيعة ، وأتباع مخلصين ، وحاول الشيطان أن يوسوس له بأنه فى نعمة

عظيمة تغرى بالزهو والغرور ، فازداد لله شكرًا ، فابتلى الله أيوب بالمرض فشكر ، وابتُلِيَ بفقد الأولاد فصبر ، وابْتُلى بتأخر زوجته عليه فى تلبية طلبه ، فأقسم لئن شفاه الله ليضربنّها مائة ضربه ، ومع طول مدّة البلاء نجد أيوب صابرًا مؤمنًا محتسبًا ، لكنّه لم يصب بمرض منفرٍ ، لأن الله أرسل الأنبياء ليبلُغوا رسالته للناس ، وحفظهم من الأمرض المعدية والمنفّرة ، ولعله ابتلى بمرض جلدى أو سطحى ، وقد حاول الشيطان الوسوسة له ، ليغريه باليأس والقنوط ، كما وسوس الشيطان لبعض أتباعه بأن أيوب لو كان نبيًّا حقًّا لما مرض هذا المرض الطويل ، وكان لأيوب تابِعون مُخلِصون ، فقال أحدهم للآخر : لولا أن أيوب أذنب ذنبًا عظيمًا ، لما عاقبه الله بهذه العقوبة . وبلغ هذا الكلام أيوب ، فاشتكى لله تعالى ما به .

أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .

والنُّصْب : المشقة والتعب ، أى : وسوس لى الشيطان فى النعماء ، ووسوس لى فى البأساء ، وأنا ألجأ إليك يا ربّ ، وأتحصن بالرجاء إليك ، والرحمة فى فضلك وعفوك وعافيتك ، والشيطان لا ينال من الإنسان إلا ما يقدمه من وسوسة وتزيين .

وقد بين الشيطان أنه سيحاول إغواء عباد الله ، مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ... (الأعراف : ١٧) .

وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن للشيطان طيفًا ووسوسة وفتنة ودعوة ، وحذّر المؤمنين من الاستجابة لهذه الدعوة .

قال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٦) .

وقال سبحانه : لا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقال عز وجل : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقد ورد أن الشيطان قال للّه : إن أيوب يعبدك لأنه سليم البدن ، عنده المال والذرية ، والزوجة والبيوت والأموال ، ولو فقد شيئًا من ذلك ما عبدك ،وفقد أيوب صحته فشكر الله وصبر ، وفقد أولاده فسجد لله وشكر وصبر ، وفقد المال والمنزلَ ، وساءت العلاقة مع الزوجة ، فصبر صبرًا جميلاً ، ولجأ إلى الله راغبًا فى رحمته وعفوه ، وفى أن يصرف عنه وسوسة الشيطان وكيده ، وإن كان الشيطان لا ينال من عقيدة الأنبياء ، ولا من عباد الله الصالحين بأكثر من الوسوسة والتزيين .

قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ . (النحل : ٩٩ – ١٠٠) .

٤٢ – ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ .

أي : حرِّك الأرض برجلك ، واضربها بها ، يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه فيبرأ الظاهر ، وتشرب منه فيبرأ الباطن .

من تفسير المراغي

جاء في تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ما يأتي :

وفي هذا إيماء إلى نوع المرض الذي كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية ، كالإكزيما والحِكَّة ونحوهما ، مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء ، لكنه ليس بقتَّال ، وقد شفي باطنه وظاهره بماء العيون ، كما نرى في العيون التي في البلاد التي أنشئت فيها الحمامات في أوروبا ومصر وغيرها ، واستعملت فيها مشاتي ومصحات للأمراض الجلدية ، والأمراض الباطنية ، كمياه فيشي وسويسرا وحلوان . ا هـ .

تعقيب

والأستاذ أحمد مصطفى المراغي يحاول أن يقرِّب لنا أسباب الشفاء ، بأنَّه قريب من استخدام مياه متخصصة في علاج الأمراض ، وإذا تأملنا أسلوب القرآن اتضح لنا أن الشفاء كان بفضل الله ، وهو معجزة لشفاء نبي مرسل .

وقد كان هناك اتجاه في تفسير الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، ومن تأثر بهما ، يحاول تقريب المعجزات إلى الأفهام ، فأفاد الشيخ محمد عبده أن عيسى عليه السلام كان روحًا أو روحانية غالبة ، والرياح تؤثر في الأشجار فتخلعُها ، وكان من تأثير روحانية المسيح أنه كان يلمس الطين المصنوع كهيئة الطير فتدب فيه الحياة ، وتكلم عن السحر بأنه وهم وخيال لا حقيقة .

وهناك من العلماء من يرى غير ذلك ، وحجَّته أن المعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد المبعوث بالرسالة ، تصديقًا له في دعوته ، مثل : سفينة نوح ، وناقة صالح ، وشفاء أيوب ، وعصا موسى ويده ، وشفاء المسيح للأعمى والأبرص ، وإعجاز القرآن الكريم ، وكلها أمور خارقة للعادة ، لا طاقة للبشر بفعل شيء منها ، ولا نرى من الحكمة تقريب المعجزة من أعمال الناس[٧٢] ؛ لأن أعمال الناس تعتمد على أسباب علمية أو طبية ، أو غير ذلك ، أمَّا المعجزة فتعتمد على قدرة الله ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (البقرة : ٢٨٤) .

٤٣ - وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ .

أى : شرب أيوب من ماء العين واغتسل ، فعاد سليم الظاهر والباطن ، ولم نكتف بهذا بل وهبنا له أهله ، فجمعناهم معه بعد أن كانوا متفرقين ، أو شفيناهم بعد أن كانوا مرضى .

وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ .

بأن رزقناه بعد الشفاء أولادًا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفًا .

رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ .

أى : يسرنا له المنن والعطاء ، والشفاء لأولاده واجتماعهم ، وزواجهم وتناسلهم ، بحيث تضاعف عددهم ، وكثرت لديه البركات والخيرات ، لطفًا وفضلاً ، ومنة ونعمة ، وليعلم العقلاء والفضلاء أن الصبر والشكر يعقبه مضاعفة الثواب ، والفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر .

عسى فرج يأتى به الله إنه ... له كل يوم فى خليقته أمر

وفى القرآن الكريم : فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب . (الشرح : ٥ - ٨) .

٤٤ - وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

كان أيوب فى مرضه قد كلّف زوجته بأمر ، فأبطأت عليه ، فأقسم بالله لئن شفاه الله ليضربنها مائة ضربة ، ثم تمّ الشفاء ، ورغب فى أن يبرّ بقسمه ، وفى نفس الوقت كانت زوجته وفيّة له فى محنته ، تعطف عليه ، وتتألم لألمه ، وتغمره بعطفها وحنانها وخدمتها ، بعد أن تفرق عنه الأهل والأصحاب ، فأمره الله أن يأخذ حِزْمة من حشيش أو ريحان ، يختلط فيها الرطب باليابس فيها مائة عود ، فيضرب زوجته ضربة واحدة ، فيبرّ فى يمينه ولا يحنث ، وفى نفس الوقت ييسّر على زوجته الصابرة الوفية .

قال تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ...

حيث أمره الله أن يتحلل من قسَمه بأهون شىء عليه وعليها ، والضغث فى اللغة : القبضة من الحشيش ، اختلط فيها الرطب باليابس ، وقيل : هى قبضة من عيدان مختلفة ، يجمعها أصل واحد .

إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

يأتى هذا الثناء من العلى القدير ، تقديرًا لصبر أيوب وثباته ، ورجوعه إلى ربه ، ولا يقال إنه اشتكى ، لأن الشكوى لله تعالى تضرع ودعاء ومناجاة ، فقد قال يعقوب : إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ... (يوسف : ٨٦).

ومن دعاء النبى ﷺ بعد أن آذاه أهل الطائف : «اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يارب العالمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربّى ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى ، أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخر ة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحلّ علىّ غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، عافيتك هى أوسع لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

وتضرع يونس فى بطن الحوت ، وظلام البحر ، وظلام النفس : فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) .

لقد تعرض الأنبياء والمرسلون لكثير من الآلام فى الدنيا ، فكانوا يرفعون أكفّهم إلى الله ، يشتكون البلاء ويسألون الله العافية ، لقد وضع فى النار إبراهيم ، وأُضجع للذبح إسماعيل ، واشتد البلاء بأيوب ، وبكى يعقوب : وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ . (يوسف : ٨٤) .

وخرج موسى من مصر خائفًا يترقب قال : ربى نجنى من القوم الظالمين ، واشتد الجوع والمعاناة بموسى ، فقال : رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ . (القصص ٢٤ : ٢٥) .

وتعرض المسيح لمحاولة قتله وصلبه ، قال تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ... (النساء : ١٥٧) .

وكانت حياة النبى محمد ﷺ فى مكة والمدينة ملحمة طويلة من العمل والأمل والأحزان ، والدعاء الذى حفلت به كتب السُّنَّة ، فقد اشتكى إلى الله حين قُتل سبعون من القراء عند بئر معونة ، وألحف إلى ربه فى الدعاء عند الهجرة ، وعند غزوة بدر ، وفى غزوة الأحزاب جثا ﷺ على ركبتيه فى ليلة باردة شاتية ، وقال : «اللهم رب الأرباب ومسبب الأسباب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب العالمين ، يا جار المستجيرين ، يا أمان الخائفين ، يا ملاذ المضطرين ، انصرنا عليهم يا رب العالمين ، فأرسل الله ريحًا عاتية ، خلّعت خيام الكافرين ، وكفأت قدورهم ، وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ففرّوا مذعورين .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . (الأحزاب : ٩) .

فاللجوء إلى الله والشكوى إليه ، والتضرع والدعاء ، عبادة وتذلل وإنابة .

وفى الحديث يقول النبى ﷺ : «عجبت لمن ابتلى بثلاث كيف يغفل عن ثلاث : من ابتلى بالمرض كيف يغفل عن دعاء أيوب لربه : أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . (الأنبياء : ٨٣) .

ومن ابتلى بالغم كيف يغفل عن دعاء يونس : لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) .

فإن الله تعالى يقول : فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء : ٨٨) .

ومن ابتلى بالأعداء كيف يغفل عن قول المؤمنين : حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . (آل عمران : ١٧٣) .

فإن الله يقول : فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . (آل عمران : ١٧٤) .

والخلاصة :

إن شكوى أيوب إلى ربه ، دعاءٌ وتضرع وإنابة ، وقد استجاب الله دعاءه ، وفرّج كربه ، وأنعم عليه بالشفاء ، ويسر له التواصل مع زوجته الصابرة ، ثم أثنى عليه ثناء خالدًا أبد الآبدين ، فقال : إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

لقد وجدناه صابرًا محتسبًا ، نعم العبد المطيع لربه ، إنه أوّاب كثير الأوبة والرجوع والذكر والتسبيح لله رب العالمين .

من دعاء أيوب

روى أن أيوب كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكتْ يمينى ، ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيًا ومعى جائع أو عريان .

★ ★ ★

ذكر مجموعة من المرسلين

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

أولى الأيدى : أصحاب القوى فى طاعة الله .

الأبصـــار : واحدها بصر ، ويراد به هنا : البصيرة والفقه فى الدّين ومعرفة أسراره .

أخلصناهم : جعلناهم خالصين لنا .

بخالصة : بخصلة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكر الدار الآخرة والعمل لها .

المصطفين : جمع مصطفى ، وهو المختار من بنى جنسه .

الأخيــار : واحدهم خيّر ، وهو المطبوع على فعل الخير .

تمهيد :

بعد أن عرض سبحانه وتعالى قصص داود وسليمان وأيوب بشىء من التفصيل ، أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكلهم من الأخيار ، الذين عمروا دنياهم بالأعمال الصالحة ، فاصطفاهم الله وذكر مآثرهم .

التفسير :

٤٥ - وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ .

على طريقة القرآن الكريم فى أن يبسط القول حينًا ، ويجمله حينًا آخر ، فقد أجمل الحديث هنا عن عدد من الرسل الكرام ، لهم مواقف خالدة فى الصبر والجد والعمل ونفاذ البصيرة .

ومعنى الآية :

واذكر لقومك أيها الرسول ، أو تذكر أنت المواقف الكريمة لعبادنا :

(أ) إبراهيم الخليل ، الذى حطم الأصنام ، وألقى فى النار ، وأضجع ابنه للذبح امتثالاً لأمر الله ، وبنى الكعبة ، وأخلص فى الدعاء أن يبعث الله فى الأمة العربية رسولاً يتلو عليها الآيات ، ويعلمها الكتاب والحكمة .

(ب) إسحاق بن إبراهيم ، فقد صبر على طمع قومه وجشعهم ، فكان يحفر الآبار ليسقى دوابّه ، ويروى زرعه ، فيأتى هؤلاء العصاة أكلة السحت والحرام ، فيأخذونها منه فيتركها لهم ، ويحفر غيرها وهكذا ، ثم ما عاناه من تقدم السنّ ، ووهن العظم ، وفقد البصر .

(جـ) يعقوب حفيد إبراهيم ، قال تعالى : فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ . (هود : ٧١) . أى : بشرناها بالابن وابن الابن ، ونُسب يعقوب إلى إبراهيم لأنه تربّى فى بيت إبراهيم ، وهو حفيده ، ويعقوب هو الملقب بإسرائيل وقد رزق اثنى عشر ولدًا ، أحدهم يوسف صاحب الرؤيا المشهورة ، وفيها : إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ . (يوسف : ٤) .

وسارت قصة يوسف بعد ذلك فوضع فى السجن ، وصار على خزائن الدولة ، واحتاج إخوته إلى الميرة والطعام ، فجاءوه لطلب الميرة ، ثم جاءوا ومعهم بنيامين ، ثم جاءوا المرة الثالثة عند الجهد والحاجة ، وعَرفُواْ يوسف ، وأرسل معهم قميصه وعادوا بأبيهم وخالتهم ، وخرُّوا ساجدين ليوسف ، فقال يوسف : هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ... (يوسف : ١٠٠) .

أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ .

أى : هم أصحاب القوة فى الدين ، والبصيرة النافذة فى الدعوة إليه ، وهؤلاء هم الصفوة الذين أدركوا سر وجودهم ، فشغلوا أنفسهم بالعمل للدين ، والتفكر والتبصر فى هداية الخلق إلى طريق الحقّ .

٤٦ – إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ .

إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا ، عاملين بأوامرنا ونواهينا ، لاتصافهم بخصلةٍ جليلة الشأن ، لا يساويها غيرها من الخصال ، وهى : تذكُّرهم الدار الآخرة فى كل أعمالهم فهى مطمح أبصارهم ، وغاية آمالهم وأهدافهم ، فى كل ما يأتون وما يذرون ، ليفوزوا بلقاء ربهم ، وينالوا رضاه فى جنات النعيم .

٤٧ – وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ .

لقد اصطفيناهم واخترناهم على علم بهم ، وهم أخيار أطهار ، عمل الخير جبلة وطبيعة فيهم .

قال تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . (الحج : ٧٥) .

٤٨ – وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ .

واذكر لقومك أو لنفسك هؤلاء الأخيار الذين صبروا وصابروا ، وكانوا مثالاً يحتذى فى الصبر والمروءة ، والتضحية والفداء .

وقد ذكر فى هذه الآية ثلاثة من الأخيار الذين يعملون الخير والبر والطاعة والمعروف ، وهم :

١ – إسماعيل عليه السلام ، فقد كان مثالاً للطاعة لأبيه ، والصبر على البلاء ، ومعاونة أبيه على تنفيذ أمر الله .

قال تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ .(الصافات : ١٠٢) .

وقال ﷺ : «أنا ابن الذبيحين»[٧٣] .

الذبيح الأول : إسماعيل ، فقد أمر الله إبراهيم بذبح إسماعيل ، ثم وفّى إبراهيم واستعد للذبح ، ففداه الله بذبح عظيم .

والذبيح الثاني : عبد اللّه والد النبى ﷺ ، فقد نذر عبدالمطلب إذا رزقه الله عشرة من البنين ليذبحنّ أحدهم قربانًا ، ورزق فعلاً ذلك ، وجاءت الهواتف تطلب من عبد المطلب الوفاء بالنذر ، وخرجت القرعة على عبد الله والد النبى ، ثم اقترحت عرّافة باليمن أن يقدموا فدية عن عبد الله هى مائة من الإبل ، وهى مقدار دية القتيل ، فقدموا هذه الفدية ، ونجا عبد الله ليكون أكرم والدٍ لأكرم مولود .

٢ – اليسع عليه السلام ، وقد استخلفه إلياس على بنى إسرائيل فصبر على جهلهم وسفاهتهم وظلمهم وكفرهمْ ، ثم اصطفاه الله رسولاً .

٣ – ذو الكفل عليه السلام ، وهو نبىٌّ مرسل عند الجمهور ، وكان من شأنه أنه جابه الظُّلم ، وتصدّى لقوم طاردوا عددًا كبيرًا من أنبياء بنى إسرائيل ، وتعقبوهم ليقتلوهم ، فكفلهم ذو الكفل ، وآواهم غير مبالٍ بعسف الظالمين وكيدهم .

٤٩ – هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ .

هذه الآيات التى ذكرنا فيها هؤلاء الرسل الكرام ذكر وشرف ، وتخليد لذكرى هؤلاء الرسل أو المجاهدين فى الدنيا .

قال ابن عباس : هذا ذكر من مضى من الأنبياء .

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ .

وإن الله أعطى المتقين الذكر الحسن فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة حسن المآب والمرجع فى الجنة إن شاء الله .

★ ★ ★

نعيم أهل الجنة

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ ﴾

المفردات :

جـنـات عـدن : جنات استقرار وثبات ، من قولهم : عَدَن بالمكان ، أى : أقام به .

متكئين : مُسْنِدين ظهورهم أو جنوبهم إلى شيء ، معتمدين عليه فى حال قعودهم .

قاصرات الطرف : حابسات عيونهنّ على أزواجهن .

أتراب : لدات على سن واحدة .

نفاد : انقطاع .

تمهيد :

فى هذه الآيات بيان لنعيم المتقين فى الجنة ، ثم يأتى بعد ذلك بيان لعذاب الكافرين ، ومن شأن القرآن أن يقارن بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، ليزداد الإنسان رغبة فى الجنة ، ورهبة من النار ، وللتنويع والتصريف فى آيات القرآن الكريم ، فمن الناس من يستميله الوعد بالنعيم ، ومنهم من يرهبه الخوف من عذاب الجحيم .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا . (طه : ١١٣) .

التفسير :

٥٠ - جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ .

أى : لهم جنات إقامة وخلود دائم بلا موت ، قد فتّحت أبوابها قبل قدومهم إليها ، زيادة فى تكريمهم وحسن استقبالهم .

الحرف فى القرآن

الحرف الواحد فى القرآن الكريم يشير إلى معنى ، ويستتبع معنى ، ومثال ذلك ما ورد فى آخر سورة الزمر ، حين تحدّث القرآن فى الآيتين (٧١ ، ٧٢) من سورة الزمر عن أهل النار قال : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ...

أى أن الأبواب لا تفتح إلا عند قدومهم ، إذلالاً لهم بالوقوف ولو قليلاً على الباب ، كالمساجين تفتح أبواب السجن إثر قدومهم .

وقال تعالى فى وصف أصحاب الجنة فى الآيات (٧٣ – ٧٥) من سورة الزمر : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ...

فالواو هنا تفيد أنهم يدخلون الجنة والحال أن أبوابها قد فتحت قبل قدومهم تكريمًا لهم ، كما يستقبل الضيف العزيز بتفتيح الأبواب فى قصر الضيافة قبل قدومه .

لهذا قال الله تعالى هنا :

جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ .

فتحت أبواب الجنة تكريمًا لأصحابها حتى يدخلوها على أحسن حال وأجمل هيئة .

٥١ – مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ .

يجلسون جلسة المستريح المُنعَّم المكرم ، معتمدين فيها على أرائك أو وسائد من ديباج ، فى هيئة المطمئن الآمن الفرح المسرور ، وهم فى هذه الحالة من الحبور والسرور والرضا ، يطلبون من ربّهم أن يمدّهم من ألوان الفاكهة ، وأصناف الشراب ، فيستجيب الله لهم ، ويعطيهم جميع ما يطلبون .

قال تعالى : لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ . (يس : ٥٧) .

٥٢ – وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ .

وعند أهل الجنة زوجات ، قصرن أبصارهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى سواهم ، أو قصرن أبصار أزواجهن عليهنّ لجمالهن الفائق ، وهؤلاء الزوجات أَتْرَابٌ . أى : لدات متشابهات ، متساويات فى السنّ ، فى حسن يوسف ، وكلهن شابات ، أبناء ٣٣، ليس بينهن عجوز ، وذلك يستدعى محبة بعضهن لبعض ، وفى ذلك راحة لأزواجهن ، فإن تباغض الضرائر بسبب الفوارق فى الحسن بينهنّ يُنغص عيش الأزواج ، فلذا تشابهن فى الحسن والطباع ، حتى تصفو الحياة فى الجنة ، وقيل : إن التساوى بينهن وبين أزواجهن ، وذلك أشمل وأكمل ، وأبعث على قصر الزوجات أبصارهن على أزواجهنّ .

قال تعالى : وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ . (الصافات : ٤٨ ، ٤٩) .

ومعنى : عِينٌ . واسعات العيون حسانها ، كأنهن بيض النعام ، تكنّه النعامة بريشها من الريح والغبار.

قال ابن عباس :

والآية فى الزوجات الآدميات . ا هـ .

أى : إن الله يعيد إلى الزوجات والأزواج الشباب والجمال والمساواة فى السنّ ، فهم جميعًا أبناء ٣٣ .

٥٣ - هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ .

أى : هذا هو الجزاء الذى وعدتم به أيها المتقون جزاء إيمانكم وعملكم الصالح ، من أجل يوم الحساب والجزاء ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

٥٤ - إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ .

إن هذا الرزق والنعيم والجزاء الحسن فى الجنة ، هذا النعيم دائم لا ينقطع ، موفور لا ينقص ، وفى معنى هذه الآية :

قال تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . (التين : ٦) . أى : غير منقوص .

وقال سبحانه : مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ... (النحل : ٩٦) .

وقال تعالى : عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ . (هود : ١٠٨) . أى : غير مقطوع .

وقال تعالى : أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ . (الرعد : ٣٥) .

ونلاحظ أن القرآن الكريم عندما تحدث عن النار قال : أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... (الكهف : ٢٩) .

أى أن سور النار مغلق على أهلها ، وقال عن الجنة : مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ . (ص : ٥٠) .

★ ★ ★

عذاب أهل النار

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

المفردات :

الطاغين : المجاوزين الحدّ ، والمراد بهم : الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذّبوا رسله .

شر مآب : قبح مرجع .

يصلونها : يدخلونها ويقاسُون حرّها .

المهاد : الفراش ، وزنا ومعنى .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

الغساق : عصارة أهل النار ، وعن ابن عباس : الزمهرير ، يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين ، أي : سال دمعها .

وآخر : وعذاب آخر .

من شكله : من مثل المذاق في الشدة والفظاعة .

أزواج : أجناس .

فوج : جمع كثير من أتباعكم في الضلال .

مقتحم معكم : داخل معكم ، والاقتحام : ركوب الشدّة ، والدخول فيها .

لا مرحبا بهم : لا رحبت عليهم الأرض ولا اتسعت .

صالو النار : داخلون فيها .

فبئس القرار : بئس المقرُّ جهنم .

الأشـــرار : الأراذل الذين لا خير فيهم ، يريدون بذلك المؤمنين .

سـخـريـا : مسخورًا ومستهزأ بهم .

زاغت عنهم : مالت عنهم .

تـخـاصـم : تنازع .

تمهيد :

يصف القرآن جهنم ، كأنّ العين تنظر إليها ، فأهلها يشربون الحميم الحار ، والغسّاق عصارة أهل النار ، أو البارد الزمهرير ، وهناك أصناف أخرى من العذاب تحت بنود متعددة ، ونجد حوارًا بين القادة والزعماء من أهل جهنم وأتباعهم ، فالقادة لا يرحبّون بأتباعهم ، لأنهم من أهل جهنم ، ولن يستفيدوا منهم شيئا ، والأتباع يقولون لهم : بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ . أنتم السبب فى شقوتنا وضلالنا ، ودخولنا جهنم فبئس المستقرّ والقرار جهنم ، وتضرع الأتباع إلى الله أن يزيد الرؤساءَ ضِعفًا من النار ، جزاء إضلالهم للآخرين ، ويبحث أهل النار عن الفقراء الضعفاء من المؤمنين ، أمثال : بلال ، وصهيب ، وعمار بن ياسر ، وأبيه وأمه ، هؤلاء الذين سخروا منهم ومن فقرهم ، ولم ينظروا إليهم فى الدنيا نظرة احترام ، بل تجاوزوا النظر إليهم ، وزاغت الأبصار عنهم إهمالاً لشأنهم ، والنتيجة أن هؤلاء الفقراء ينعمون بألوان النعيم فى الجنة .

التفسير :

٥٥ - هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ .

تقدم الحديث عن أهل الجنة ، وما يلقون من ألوان النعيم ، وهنا يتحدث عن عقوبة الظالمين ، فمهد لذلك بقوله سبحانه : هَـٰذَا ، أى الأمر هذا ، فهو خبر لمبتدأ محذوف .

قال ابن الأنبارى : هَـٰذَا . وقف حسن ، ثم تبتدئ : وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ .

ومعنى الآية :

الأمر هذا الذى ذكر فى جزاء المتقين ، وإن للطغاة الذين كذبوا الرسل لشر مرجع يئوبون إليه .

٥٦ - جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ .

أى : هم يدخلون جهنم فيَصْلَوْن حرَّها ، ويقاسون لهيبها ، فبئس الفراش فراش النار ، ونظير الآية قوله تعالى : لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ... (الأعراف : ٤١) .

٥٧ - هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ .

أى : العذاب هذا فليذوقوه ويتجرّعوا مرارته ، صنف منه ماء حارٌ يشوى الوجوه ، يسمى الحميم .

قال تعالى : وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

وصنف منه ماء بارد لا يستطاع شربه لبرودته ، يسمى الغسّاق أو الزمهرير ، كما فسّره ابن عباس .

وقال آخرون : الغسّاق صديد أهل النار يسيل من أجسادهم .

وقيل : الغسّاق عذاب لا يعلمه إلا الله .

قال الحسن رضى الله عنه :

إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابًا فى قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة ، فالغسّاق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى .

٥٨ - وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ .

ولهم عذاب آخر من شكل هذا العذاب ، فى الشدّة والفظاعة ، أصناف وأجناس ، كالزقوم والسموم .

٥٩ - هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ .

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية :

إن القادة إذا دخلوا النار ، ثم دخل بعدهم الأتباع ، تقول الخزنة للقادة : هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحبًا بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم .

قال النابغة :

لا مرحبا بغدٍ ولا أهلاً به ... إن كان تفريق الأحبة فى غد

ونلاحظ دقة التعبير فى الآية ، فالفوج جمع غفير ، ومقتحم معكم ، داخل النار كرها وعلى غير اختيار ، وإنما يساق سوقًا إلى جهنم فى ذلة ومهانة .

والرحب : السّعة ، تقول مرحبًا ، أى : أتيت سعة وأهلا ، فاستأنس ولا تستوحش ، بخلاف لا مرحبا ، فإنها على العكس ، وهى تشير إلى أنهم لا يريدون لقاءهم ، فصدورهم لا تتسع لهم ، لأنهم صالو النار

مثلهم ، فلا منفعة فى لقائهم تقتضى الترحيب بهم ، وهنا يتضح أمامنا أنّ أهل النار قد تقطعت الصِّلات بينهم ، وفقدوا المودة والتناصر والتعاون الذى كان يربط بينهم فى الدنيا ، لأن الغشاوة قد أزيحت عن العيون ، ووجدوا ما عملوا حاضرًا ، ولا يظلم ربك أحدًا .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ... (الأنعام : ٩٤) .

ويقول تعالى : ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ . (الزخرف : ٦٧) .

٦٠ - قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ .

ردّ الأتباع على الرؤساء قائلين : بل أنتم الذين لا مرحبا بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم ، وهل أصابنا ما أصابنا إلا بسببكم ، فأنتم دعوتمونا فى الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم ، وصرنا جميعًا فى جهنم ، فبئس المستقر والنزل والقرار لنا ولكم جهنم ، وهذا التلاعن بين أهل النار ، كل واحد منهم يلقى التبعة على الآخر ، ويحاول أن يتنصل من المسئولية ، يصوّره قوله تعالى : كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٣٨ ، ٣٩) .

والقرآن بهذا يفتح العيون والأبصار ، وينبه الطغاة والكفار ، من هول يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يسند الإنسان فيه كبير أو أمير ، إنما ينفع الإنسان فى هذا اليوم القلب السليم ، والعمل المستقيم .

قال تعالى : يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء : ٨٨ ، ٨٩) .

٦١ - قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ .

عندما شاهد الأتباع جهنم وعذابها ، وما فيها من أغلال وعذاب ، تضرّعوا إلى الله تعالى أن يزيد العذاب فى النار للقادة والكبار ، الذين كانوا سببًا فى إضلالهم وكفرهم فى الدنيا ، ودخولهم النار فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم على لسانهم : رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا . (الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨) .

٦٢ - وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ .

وقال الطاغون والكافرون بعضهم لبعض : ما لنا لا نرى رجالاً من الفقراء والأراذل والضعفاء ، كنّا نعدّهم من الذين لا خير فيهم ولا منفعة لهم ، يعنون فقراء المؤمنين ، الذين احتقروهم وازدروهم ، ثم تفقدوهم فى النار فلم يجدوهم ، فقالوا :

٦٣ - أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ .

أمن أجل أننا سخرنا منهم فى الدنيا ، واحتقرناهم بالازدراء والتعالى عليهم ، وغض الطرف عن النظر إليهم ، ولم يكونوا أهلاً لذلك بل كانوا خيرًا منا ، فدخلوا الجنة وتنعموا بنعيمها ، أم هم فى النار معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟

٦٤ - إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ .

إن الذى قصصناه عليك أيها الرسول الكريم ، من تخاصم الأتباع والمتبوعين ، وندم كبار الكفار حين يرون أنفسهم فى جهنم ، يتعرضون لأشد ألوان العذاب ، بينما فقراء المسلمين وضعفاؤهم فى جنات النعيم وظهور الأسى والندم ، ولات ساعة مندم ، هو حق تخاصم أهل النار وتنازعهم .

روى القرطبى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى :

مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ .

يريدون أصحاب محمد ﷺ ، يقول أبو جهل : أين بلال ، أين صهيب ، أين عمّار ؟ أولئك فى الفردوس ، واعجبًا لأبى جهل ، مسكين ، أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمّه ، وأسلم أخوه ، وكفر هُوَ ، قال القائل :

ونورًا أضاء الأرض شرقًا ومغربًا ... وموضع رجلى منه أسودُ مظلمُ

★ ★ ★

النبأ العظيم

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

القهار : الغالب .

نبأ عظيم : خبر عظيم ، وهو نزول وحي السماء على أمة ، لإحيائها وبعثها بعثًا جديدًا بفكر جديد .

الملأ الأعلى : جماعة الملائكة اختصموا مع إبليس في شأن آدم .

تمهيد :

تأتي هذه الفقرة تأكيدًا لما مرّ في أوّل السورة من تنبيه للقرآن : صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . حيث تنبّه على عظمة القرآن ، وأهمية الوحي في التعليم ، والتوجيه والإرشاد ، والإسعاد والرقيّ .

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ .

وهو يتحدث عن الملائكة وآدم وإبليس ، وهي أمور غيبية ، ما كان للنبي الأميّ علم بها ، إلا عن طريق الوحي .

وتمهد الآيات لقصة آدم وإبليس ، ولمحاورة ومناقشة بين الحق سبحانه وتعالى وإبليس ، تصوّر الحكمة في خلق الخير والشرّ في هذه الحياة ، وتنبِّه البشر إلى رغبة الشيطان في إضلالهم ، وأنه لا ملجأ للإنسان في هذه الدنيا إلا الاعتصام بفضل الله ، والتمسك بكتابه وهديه ، والالتجاء إلى عنايته وفضله ورعايته وتوفيقه .

التفسير :

٦٥ ، ٦٦ - قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ .

قل يا أيها الرسول لأهل مكة إنما أنا منذر من الله تعالى ، أخوفكم عذابه ومخالفته ، وآمركم بطاعته واحترام وحيه وكتابه ، ولست ساحرًا ولا كاهنًا ولا كذابًا كما تدعون ، إنما أنا رسول من عند الله ، أحمل لكم وحي السماء ، ولا أملك الهداية ، ولا أستطيع أن أجبركم عليها .

قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

وقال تعالى : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ... (الشورى : ٤٨) .

أما الأصنام التى تعبدونها فليست بآلهة ، لأنها لم تَخْلُق ولم تَرْزُق ، ولا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ، فضلاً عن أن تنفع غيرها .

وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .

ليس هناك من إله سوى الله تعالى ، الواحد الأحد الفرد الصمد ، ٱلْقَهَّارُ . الذى قهر كل شىء وغلبه بعزته وجبروته ، فهو خالق الكون ، وهو رافع السماء ، وباسط الأرض ، وهو العزيز الغالب ، الغفار لمن تاب ورجع إليه .

رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ .

فالله تعالى قد وصف نفسه فى الآيتين بخمس صفات :

١ – أنه الإله الواحد لا شريك له .

٢ – القهار الذى قهر كل شىء بقدرته .

٣ – رب السماوات والأرض وما بينهما ، حيث رفع السماء وبسط الأرض ، وسخّر الهواء والفضاء ، والرياح والسحاب والأمطار ، والنبات والليل والنهار .

قال تعالى : لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ . (طه : ٦) .

٤ – العزيز الغالب الذى لا يغلب .

٥ – الغفار الذى يفتح بابه للتائبين ، ويغفر للمذنبين .

قال تعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

٦٧ – قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ .

إن خبر الوحى وإرشاد السماء ، واختيار رسول ليكون واسطة بين الله وبين خلقه نبأ عظيم ، وأمر خطير ، أن تُكلِّم السماء الأرض ، وأن يتفضل الله على عباده بأن يرسل محمدًا ﷺ مبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، إن هذا الوحى فى حد ذاته شرفٌ للإنسانية كلها ، حيث اختار الله من بينها يتيمًا فقيرًا أميًّا ، وأنزل عليه الوحى من السماء لهداية الناس وإرشادهم .

٦٨ – أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ .

لكنَّ أهل مكة أخذهم الغرور والكبر ، ومنعهم حب الذات والعظمة الكاذبة من أن يتبعوا هذا الرسول ، رغم عظم الأمانة ، وفضل ما يحمله .

قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وليت أمتنا تعيد النظر في أمر هذا الكتاب وهديه وتشريعاته وآدابه وصفاته ، لتتجه نحوه قراءة وحفظًا ، وتدبرًا وشرحًا ، وعملاً به واقتداء ، وتتمثله سلوكا وخُلقًا ، إذًا لعاد إليها المجد والخير والبركة والسعادة الحقيقية .

٦٩ – مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى : ولولا الوحى ما كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى ، يعنى فى شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

قال القرطبي :

الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدّى ، وقد اختصموا فى أمر آدم حين خلق ، فقالوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... (البقرة : ٣٠) .

وقال إبليس : أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ . (ص : ٧٦) .

وفى هذا بيان أن محمدًا ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى . ا هـ .

وقال ابن كثير :

مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى : لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى فى شأن آدم ، وامتناع إبليس عن السجود له ، ومحاجته ربّه فى تفضيله عليه . ا هـ .

٧٠ – إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : ما ينزل الوحى علىَّ من السماء ، إلا بسبب أنى رسول من عند الله أبلغكم دعوته ، وأحذركم عقابه وأقدم لكم هذا التحذير واضحًا جليًا مبينًا ، وخص الإنذار بالذكر مع أنه ﷺ مبشر ونذير ، لأنهم لما خالفوا

رسالته ودعوته ولم يستجيبوا له ، كانوا أهلا لأن يكون لهم نذيرًا مبينًا ، محذرًا لهم من مخالفة الوحي ، مبينًا وموضحًا لهم عاقبة الإعراض عن هدى السماء .

★ ★ ★

قصص آدم عليه السلام

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

المفردات :

الملائكة : أجسام من نور قادرة على التشكل ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

بشرا من طين : هو آدم عليه السلام .

سويته : أتممته وعدَّلته وأتممت خلقته.

ونفخت فيه من روحي : ومنحته الحياة ببث الروح فيه ، والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه .

فقعوا له : فخروا له ، أو اسقطوا له .

ساجدين : سجود تحية لا سجود عبادة .

كلهم أجمعون : سجدوا جميعًا في وقت واحد .

إبليس : هو أبو الجن ، وعاش مع الملائكة فنسب إليهم .

لما خلقت بيدي : لمن خلقته بنفسي من غير توسط أب ولا أمّ .

استكبرت أم كنت من العالين : أتكبرت الآن من غير استحقاق ، أم كنت ممن علا ، واستحق التفوق والترفع عن طاعة الله ؟ وهو استفهام توبيخ .

رجـــيـــــم : مرجوم مطرود من الرحمة .

لـعـنـتـي : طردي .

أنـظـرنـي : أمهلني .

يـبـعـثـون : يبعث الناس .

إلى يوم الوقت المعلوم : يوم النفخة الأولى .

لأغـويـنـهـم : لأضلنّهم .

المخلصين : الذين أخلصتهم للعبادة .

تمهيد :

تقدمت قصة آدم عليه السلام فى سور : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، وفيها ذكر بدء الخليقة ، أى بدء خلق آدم ، وتكليف الملائكة بالسجود له ، وسجود الملائكة جميعًا فى وقت واحد ، وامتناع إبليس عن السجود ، ولوم الحق سبحانه لإبليس على امتناعه عن السجود ، وادعاء إبليس أنه خير من آدم، فقد خلق من نار ترتفع إلى عنان السماء ، وخلق آدم من طين منخفض ، وجهل أن الطين أمين ينمّى النّبات ، ويحتفظ بالأمانات ، أما النار فتحرق الأمانة وتخونها ، ثم إن السجود امتثال لأمر الله ، وطاعة له ، وتمرين على التواضع والامتثال للعلي القدير ، والابتعاد عن الحقد والحسد والكبر ، وقد تكررت القصة لتكرار العظة والعبرة ، وتذكير كفار مكة بأنه ما حمل إبليس على ذلك سوى الحسد والكبر ، وما حملهم على الكفر بمحمد ، والبعد عن اتباعه إلا الحسد والكبر ، وتذكير لنا بالحذر من وسوسة الشيطان واتباعه .

التفسير :

٧١ - إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ .

أى : اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنسانًا من طين هو آدم عليه السلام ، وقد مر فى سورة البقرة أنه سيكون خليفة فى الأرض ، وأن الملائكة تمنّت أن تكون الخلافة فى الأرض للملائكة لا لآدم ، وقد علّم الله آدم الأسماء كلها ، أى أودع فى فطرته القدرة على التفكير ، واستنباط المجهول من المعلوم ، واستخدام العقل والفكر واللب والفؤاد ، والابتكار والتطوير ، بخلاف الملائكة فهم عباد مكرمون ، مجبولون على الطاعة والامتثال لأمر الله تعالى ، ونطق آدم بالأسماء فيه دليل على قدرة هذا الإنسان على التعلّم والتعليم المستمر ، ولهذا وصل الإنسان إلى القمر ، بينما القرود لا تزال على الشجر .

٧٢ – فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ .

فإذا أتممت خلقه وسويته وعدَّلته ، فخروا له ساجدين ، سجود تحية لا سجود عبادة ، وقد كرَّم الله الإنسان بهذه الروح فهى نفخة تكريم ، أكرم الله بها هذا الإنسان ، وبذلك صار أهلاً لمناجاة الله ، وعبادته والتبتّل إليه ، وذكره وشكره ، وكلما سما بهذه الروح زاد صفاءً ونقاءً ، وطهرًا وبركة وتوفيقًا ، وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدى إلىّ بشىء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته ، كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألنى لأعطينه»[٧٤] . (رواه البخارى) .

٧٣ – فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

فسجد جميع الملائكة فى وقت واحد لآدم ، خضوعًا لأمر الله ، وتعظيمًا لهذا الإنسان ، الذى نفخ الله فيه من روحه .

٧٤ – إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

لكن إبليس لم يسجد لآدم ، وامتنع عن السجود كبرًا وحسدًا ؛ فصار من الكافرين ، وقد كان إبليس من الجن ، قال تعالى : إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ... (الكهف : ٥٠) .

وقد أقام مع الملائكة فنسب إليهم ، ولما صدرت الأوامر للملائكة بالسجود شملت من يقيم معهم ، لكن طبيعته غلبت عليه ، فامتنع عن السجود لآدم ، وادعى أنه خير من آدم ، أى : لو كان مثلى لما سجدت له ، فكيف أسجد له وأنا خير منه ؟ وما علم أنه يسجد امتثالاً لأمر الله ، الذى أراد تكريم آدم بالسجود فوجب ذلك عليه ، والله يصطفى من خلقه ما يشاء ، وهو سبحانه : لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ . (الأنبياء : ٢٣) .

ولما عصى إبليس وكفر بذلك «أبعده الله عز وجل ، وأرغم أنفه ، وطرده من باب رحمته ، ومحل أُنسه ، وحضرة قدسه ، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض»[٧٥] .

٧٥ – قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ .

أى : قال له ربّه : ما الذى صرفك وصدّك عن السجود لمن خلقته بذاتى من غير واسطة أب وأم ؟

قال القرطبى : أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا لآدم ، وإن كان الله خالق كل شىء ، كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه .

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ .

أى : أستكبرت الآن على ربك ، أم كنت قديمًا من المتكبرين المتعالين ؟ وهو استفهام توبيخ وإنكار له ، لامتناعه عن السجود .

٧٦ – قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ .

أى : قال إبليس : أنا أفضل من آدم ، فقد خلقتنى من نار وخلقت آدم من طين ، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ وما علم اللعين أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فأطاعت والتزمت ، وبهذه الطاعة ظلّت فى منزلتها السامية .

٧٧ – قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

أى : اخرج من الجنة ، أو من السماء ، أو من الخلقة النورانية المطيعة ، إلى خلقةٍ مظلمة عاصية .

فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

أى : مرجوم مطرود من رحمة الله وفضله ، وعنايته وهدايته .

٧٨ – وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

وإن عليك لعنتى وغضبى إلى يوم القيامة ، فأخرجه الله من الجنة مذءومًا مدحورًا ، أو أخرجه الله من صورة المتقين ، إلى صورة المردة العصاة المطرودين من رحمة الله .

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ – قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ .

طلب إبليس من الله إمْهاله حيًّا ، إلى يوم تبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء ، يريد بذلك الفرار من الموت ، فأخبره الله أنه سيؤخر ويؤجل موته إلى يوم الوقت المعلوم للّه وحده ، وهو يوم النفخة الأولى ، التى يصعق فيها جميع الخلائق .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

فشاء الله – لحكمة يعلمها هو – أن يستجيب لإبليس فى تأخير موته إلى يوم النفخ فى الصور ، حيث يموت جميع الخلائق .

٨٢ ، ٨٣ – قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ .

عندما اطمأن إبليس إلى بقائه حيًا إلى يوم النفخة الأولى فى الصُّور ، تجرأ على الله ، وأقسم بعزة الله وجبروته ، ليزينن المعاصى لآدم وذريته أجمعين ، لكن العباد الذين أخلصهم الله له ، ليس له عليهم سلطان ، وقد ترك إبليس غوايتهم ، لا تفضُّلاً منه أو زهدًا ، ولكن عجزًا عن إغوائهم ، لأن الله يحفظهم ويحصِّنهم ضدّ غوايته .

قال تعالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

٨٤ ، ٨٥ – قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

قال سبحانه وتعالى الحق والأمر الثابت ، ولا يقول سبحانه سوى الحق ، فهو سبحانه الحق ، ولا ينطق إلا الحق : والله لأملأن جهنم من جنسك ، وممن اتبعك من ذرية آدم أجمعين .

٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ – قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ .

قل أيها الرسول لقومك : لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، وما أنا دَعِيٌّ كذاب أتكلّف القول بالرسالة وأدّعيه ، بل أنا رسول حقًا ، وما هذا القرآن إلا ذكر ورسالة وتذكير من الله تعالى للناس أجمعين ، ولتعرفنّ خبره وأثره وفضله بعد وقت من الزمان ، حين يظهر فضل القرآن ، ويسطع نوره فى المشارق والمغارب ، وتفتح البلاد ، وتنضوى تحت علمه بلاد الفرس والروم ، ومصر ومعظم بلاد المعمورة فى ذلك الحين ، أو المراد : ستعلمون صدق القرآن عند موتكم ، وعند البعث والحشر والحساب والجزاء .

وكان الحسن البصرى يقول : يا ابن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين . ا هـ .

(اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام يا رب العالمين) .

* * *

خلاصة ما تضمنته سورة «ص»

١ – صَلَفُ المشركين وإعراضهم عن الحق ، مع ضرب الأمثلة لهم بالأمم الماضية التى حادت عن الحق فهلكت .

٢ – إنكارهم لرسالة محمد ﷺ وما اشتملت عليه .

٣ – قصص داود وسليمان ، وأيوب ، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وبعض أسماء النبيين الآخرين .

٤ – وصف نعيم أهل الجنة .

٥ – وصف عذاب أهل النار ، وتلاعن بعضهم بعضا .

٦ – قصص آدم عليه السلام .

٧ – قصة إبليس – لعنة الله عليه – وامتناعه عن السجود لآدم ، وقسمه ليغوين بنى آدم .

٨ – القرآن ذكر للعالمين .

* * *

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (ص) ، صباح يوم الأربعاء ١٢ جمادى الآخرة ١٤٢٠ هـ ، الموافق ١٩٩٩/٩/٢٢ م بمدينة المقطم ، بالقاهرة .

اللهم لك الحمد ، ولك النعمة ، ولك الشكر ، ولك الثناء الحسن الجميل ، على نعمائك وفضلك ورحمتك وتوفيقك ، اللهم لك الحمد كالذى نقول وخير مما نقول ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *



تفسير سورة الزمر

أهـداف سـورة الـزمـر

سورة الزمر مكية ، نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٧٥ آية .

نزلت بعد سورة سبأ ، وقد سميت سورة الزمر بذلك الاسم لقوله تعالى فى آخرها : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ... (الزمر : ٧١) ، وقوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ... (الزمر : ٧٣) .

وللسورة اسمان : سورة الزمر،وسورة الغرف ، لقوله تعالى : لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ... (الزمر : ٢٠) .

أدلة التوحيد

سورة الزمر تهز القلب هزًّا ، وتسكب فيه مؤثرات الإيمان بالله ، وتستعرض أمامه أدلة القدرة الإلهية ، والجزاء العادل فى الدنيا والآخرة ، وتفتح باب الرجاء الآمل فى رحمة الله ورضوانه ، ومن آياتها الشهيرة قوله تعالى : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣) .

ومنذ افتتاح السورة إلى نهايتها وهى تؤكد على قضية التوحيد الخالص ، ففى مطلع السورة : أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ... (الزمر : ٣) .

وفى خلال السورة نجد لمسات متوالية للقلوب والأفئدة ، تعرض عليها أدلة القدرة ومشاهد الكون ، وخلق الليل والنهار ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، وبدء الخليقة ، ومراحل خلق الجنين ، وطبيعة النفس فى اللجوء إلى الله فى الضراء ، والإعراض عنه فى السراء ، مع أن الموت قائم على رءوس العباد .

ظل الآخرة

مشاهد الآخرة تظلل السورة وتسيطر على ختامها ، حيث نجد الملائكة حافين من حول العرش ، ونرى المؤمنين يساقون إلى الجنة أفواجًا وجماعات فى تكريم إلهى ، وسلام ونعيم فى الخلود ، ونرى الكفار يساقون إلى جهنم زمرًا فى مهانة وإذلال .

«وظل الآخرة فى السورة يتناسق مع جوها ، وأهداف اللمسات التى تأخذ القلب البشرى بها ، فهذه اللمسات أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش ، ومن ثم نجد الحالات التى ترسمها للقلب البشرى هى حالات ارتعاشة وانتفاضة وخشية ، نجد هذا فى صورة القانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وفى صورة الذين يخشون ربهم ، حيث تقشعر جلودهم لهذا القرآن ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، كما نجده فى التوجيه إلى التقوى ، والخوف من العذاب والتخفيف منه ، ثم نجده فى مشاهد القيامة ، وما فيها من فزع ومن خشية ، وما فيها كذلك من إنابة وخشوع»[٧٦] .

فقرات السورة

١ – التوحيد الخالص :

فى الآيات الأولى من السورة حث على إخلاص العبادة لله ، ثم نهى عن اتخاذ الأنداد والأولياء ، ثم نجد القرآن يلمس القلوب فيبين قدرة الله فى خلق الناس من نفس واحدة ، وتزويجها من جنسها ، وخلق الأنعام أزواجًا كذلك ، وخلقهم فى بطون أمهاتهم فى ظلمات ثلاث ، ومنحهم خصائص جنسهم البشرى أول مرة ، ثم منحهم خصائص البقاء والارتقاء . وقد استغرقت هذه الفقرة الآيات من (١ – ٧) .

٢ – أنواع الإنسان وحالته :

فى الفقرة الثانية نجد أن الآيات من (٨ – ٢٠) قد لمست القلوب لمسة أخرى ، وهى تعرض على الناس صورتهم فى الضراء وصورتهم فى السراء ، وتريهم تقلبهم وضعفهم وقلة ثباتهم على نهج إلا حين يتصلون بربهم ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

ثم وجهت الآيات النبى ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ، وإعلان خوفه من معصية الله ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم ، وبيان عاقبة هذا الطريق وذلك يوم يكون الحساب .

٣ – مظاهر القدرة :

فى الآيات من (٢١ – ٣٥) لفتة إلى حياة النبات فى الأرض عقب إنزال الماء من السماء ، ثم نهاية النبات فى فترة وجيزة ، وكذلك شأن الدنيا ، ثم تشير الآيات إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور ، مع تصوير لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله .

ثم تضرب الآيات مثالاً لمن يعبد إلهًا واحدًا ، ومن يعبد آلهة متعددة ، وهما لا يستويان مثلاً ، ولا يتفقان حالاً ، كما لا يستوى العبد الذى يملكه سادة متنازعون ، والعبد الذى يعمل لسيد واحد لا يتنازعه أحد فيه .

ثم تضع حقيقة واقعة ، وهى تعرض الناس جميعًا للموت والفناء ، الرسول والمرسل إليهم ، وسيتنوع الجزاء يوم القيامة ، فيُجازى الكافرون فى جهنم ، ويُجازى الصادقون المصدقون جزاء المحسنين .

٤ – نقاش متنوع :

فى الآيات من (٣٦ – ٦١) نلمس قدرة القرآن الفائقة على إقامة الحجة وإقناع الإنسان ، وأخذ السبيل على النفس البشرية حتى لا تجد بدا من الإذعان والانقياد ، وقد تناولت هذه الفقرة التوحيد من جوانب متعددة فى لمسات متنوعة ، تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن ، وموقفه إزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ، واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة ، ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية ، ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى يوم القيامة ، ويمضى فى طريقه ثابتًا واثقًا مستقيمًا .

يتلو هذا بيان الرسول ﷺ أنه ليس وكيلاً على العباد فى هداهم وضلالهم ، إنما الله هو المسيطر عليهم ، الآخذ بناصيتهم فى كل حالة من حالاتهم ، وليس لهم من دونه شفيع فإن الشفاعة لله جميعًا ، وإليه ملك السماوات والأرض وإليه المرجع والمصير .

ثم تتعرض الآيات لوصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد ، وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك ، وتعقب على هذا بدعوة الرسول ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة وترك أمور المشركين لله ، وتَصوُّرهم يوم القيامة يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه ، وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف !

وتعرض الآيات موقف الإنسان فى حال الهلع والجزع ، ثم فى حال النعمة والرخاء ، فهو إذا أصابه الضر دعا الله وحده، فإذا وهبه الله النعم والرخاء ادعى دعاوى عريضة ، وقال : إنما أوتيته على علم عندى ، هذه الكلمة التى قالها من سبق من المتبطرين والمتكبرين فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وهو قادر على أن يبطش بكل جبار عنيد ، وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله تجرى وفق حكمته وتقديره ، وهو وحده الباسط القابض بيده الخلق والأمر .

ثم فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة ، ودعا العصاة إلى الإنابة والاستقامة ، واتباع منهج الحق والعدل من قبل أن يأتى يوم الحساب فتندم كل نفس ظالمة ، وتتمنى أن تعود إلى الدنيا لتستدرك ما فاتها ، وفى هذا اليوم تظهر الكآبة فى وجوه الكافرين ، ويظهر الفوز والسرور فى وجوه المؤمنين .

٥ – الله مستحق للعبادة دون سواه :

تعرض الآيات الأخيرة فى السورة من (٦٢ – ٧٥) ألوان قدرة الله وجلاله وتفرده بالملك والتصرف فى كل شىء ، وإذا تبينت لنا آثار هذه القدرة ظهرت أمامنا دعوة المشركين للنبى إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ، مستغربة مستنكرة ، فكيف يعبد معه سبحانه غيره ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض ؟ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ . وهم يشركون به ، وهو وحده المعبود القادر القاهر. وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ . فهى فى تصرفه وملكه كما يتصرف الإنسان فيما هو داخل قبضته . وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ... (الزمر: ٦٧) .

وستطوى هذه السماوات وتبدل بقدرة الله ، وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهدًا فريدًا من مشاهد القيامة ، ينتهى بموقف الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم . وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (الزمر: ٧٥) .



سورة الزمر

سورة مكية ، نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، أى بعد الإسراء وقبل الهجرة ، وقد نزلت تهزّ القلب هزًّا ، وتقدم أدلة التوحيد ، وتأخذ بيد الإنسان إلى التوبة والإنابة ، وتفتح أبواب التوبة على مصاريعها ، وتحذّر من الإصرار على الذنوب إلى أن يأتى الموت ، ويتمنى الإنسان العودة إلى الدنيا ، ليستدرك ما فاته فلا يستجاب له ، ثم تعرض فى نهاية السورة مشاهد القيامة ، وتقدّم المتقين إلى الجنة ، وحمدهم لله رب العالمين .

الدّين الخالص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

الكتاب : القرآن ، تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ : مبتدأ ، مِنَ ٱللَّهِ : خبر .

العزيز الحكيم : العزيز فى ملكه ، الحكيم فى صنعه وتدبير خلقه .

مخلصا له الدين : مفردًا إياه بالعبادة فلا تشرك بعبادته أحدا .

ألا لله الدين الخالص : العبادة الخالصة .

أولياء : شركاء ، وهى الأصنام .

زلفى : قربى ومنزلة ، وتشفع لنا عند الله .

كـــاذب كـــفـــار : كاذب على الله ، كفّار بعبادته غير الله .

ســـبــحــانــه : تنزيهًا له عن الولد والشريك .

الــقــهـــار : الشديد القهر ، يغلب ولا يُغلب .

تمهيد :

بدأ الله عددًا من السور بما يفيد أنه سبحانه الذى أنزل الكتاب بالحق ، وأتبع ذلك بذكر صفات الله سبحانه .

ففى سورة يس : تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ . (يس : ٥) .

وفى هذه السورة : تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . (الزُّمر : ١) .

وفى أول سورة فصلت : حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ . (فصلت : ١ ، ٢) .

وفى أول سورة الجاثية : حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . (الجاثية : ١ ، ٢) .

وفى أول سورة الأحقاف : حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . (الأحقاف : ١ ، ٢) .

وهذه البدايات تؤكد تنزيل القرآن من عند الله على رسوله محمد ﷺ ، واتصاف الله بصفات العزّة والحكمة والرحمة ؛ أى أنه سبحانه قوى غالب حكيم رحيم ، فهو أهل للألوهية ، وأهل لأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى .

التفسير :

١ – تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ .

بهذه البداية البليغة بدأ الله تعالى سورة الزُّمر ، والزُّمَر جمع زمرة وهى الفوج المتبوع بفوج آخر ، فما أعظم الوحى والتنزيل الذى نزل به جبريل على النبى الأمين ، من الله العزيز الغالب الحكيم ، فى أفعاله وتصرفاته ، ومن ذلك اختياره محمدًا ﷺ لتبليغ رسالته للنّاس أجمعين .

٢ – إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ .

الله تعالى يخبر نبيّه ﷺ ويخبر النّاس أجمعين من خلاله ، أنه سبحانه الذى أنزل الكتاب على رسوله بالحق والصدق ، مشتملاً على شرائع الإسلام وعباداته ومعاملاته ، وهى شرائع نافعة مفيدة ، ما تمسكت بها أمة إلا صعدت إلى مدارج العلياء ، وما حادت عنها أمة إلا هوت إلى الحضيض ، وقد أمر الله

رسوله بإخلاص العبادة لله وحده ، وتجريد العبادة عن كل شريك ، وإخلاص النية لله سبحانه ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك .

وفي الحديث القدسي : «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه»[٧٧] .

وقد كان العرب يتخذون أصنامًا على شكل تماثيل للملائكة والأنبياء والصالحين ، ويدَّعون أن الله أعظم وأكبر من أن يتجهوا إليه بالعبادة مباشرة ، فهم يتقربون إلى تماثيل الأولياء والصالحين ، رجاء أن يشفعوا لهم عند الله ، وأن يكونوا وسطاء عند الله في تقريبهم إليه ، ولذلك تكررت آيات القرآن في نفي الشفاعة عن هذه الأصنام ، وبيان أن الله واحد أحد لا شريك له ، وأن أحدًا من الأصنام والأوثان لا يشفع عند الله إلا بإذنه ، وهو سبحانه يحيط بهذه المعبودات ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن ملكه يشمل السماوات والأرض ، وسهل هين يسير عليه حفظ الكون كله ، فهو قريب من عباده ، ولا يحتاج إلى واسطة أو شريك ، نجد ذلك واضحًا في آية الكرسي : ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ . (البقرة : ٢٥٥) .

وروى الحسن ، عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس ، فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لا يقبل الله شيئًا شورك فيه» ثم تلا رسول الله ﷺ : أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ...

٣ - أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ .

الدين الخالص والعبادة الخالصة التي لا تشوبها شائبة شرك ، هي العبادة المقبولة عند الله تعالى ، وأما من اتخذوا الأصنام والأوثان ، وعبدوا الملائكة والجنّ ، والشجر والبقر ، والنجوم والكواكب والشمس والقمر ، فكل هؤلاء يدَّعون أنهم يعبدون هذه التماثيل والمخلوقات ليكونوا شفعاء ووسطاء لتقريبهم عند الله ، وهذا كذب وزور ، فالله أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وهو سيحكم بين عباده يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا ، وسينطق سبحانه بالحق في شأن عباده الشركاء والوسطاء ، فيُدخِلُ المؤمنين المخلصين الجنة ، ويعاقب المشركين بدخول النار .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ .

لا يهدى إلى دينه من اختار الضلالة وزعم أن لله ولدًا ، وأن الأصنام والآلهة المدّعاة تشفع له وتقربه إلى الله ، وهذا كذب وكفر بالله الواحد الأحد ، المستحق للعبادة ، المنزّه عن الشريك والمثيل .

٤ – لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .

لقد جعلوا لله ولدًا ، وجعلوا الملائكة بنات الله ، وادعوا أنه سبحانه تزوج من سراة الجن فأنجبوا له الملائكة ، واتخذوا تماثيل الكواكب والملائكة والأنبياء والصالحين الذين مضوا ، وتوجهوا بالعبادة إلى هذه المخلوقات ، وهى عاجزة عن جلب الخير لنفسها ، أو دفع الضرّ عنها ، فكيف تحقق ذلك لغيرها ، والآية تقول لهؤلاء المشركين : سنسلم جدلاً أن الله أراد أن يتخذ ولدًا ، فكان الأوفق أن يختار الأفضل وهو الذكر لا الأنثى ، والأمر كما ترى استدراج لهم إلى التفكير السليم ، فالله كامل كمالا مطلقًا ، وقديم قدمًا مطلقًا ، والولد صنو أبيه ، والولد لا يكون إلا حادثًا ، ومن هنا استحالة الوالدية عليه .

أى : لو أراد اتخاذ ولد ، لاتخذه ابنًا ذكرًا على سبيل تقدير المستحيل .

سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .

تنزه الله تنزهًا مطلقًا عن أن يتخذ ولدًا ، أو شريكًا فى الألوهية ، لأن الولد مخلوق لله ، والمخلوق لا يسمى ولدًا لخالقه ، ولا يصلح لذلك ، فضلاً عن أن يكون شريكًا له ، فهو سبحانه واحد أحد فرد صمد ، قادر مقتدر ، قهر الكون والكلّ بملكوته وجبروته وقدرته ، فهو غنى عن الشريك والنظير والمثيل ، منزّه عن الولد والوالد .

وقد روى البخارى فى صحيحه ، أن النبى ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : يكذّبنى ابن آدم وما ينبغى له أن يكذبنى ، ويشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ، فأما تكذيبه لى فقوله : ليس يعيدنى كما بدأنى ، وأما شتمه لى فقوله إن لى ولدًا»[٧٨] .

والآيات تؤكد ما سبق فى القرآن الكريم ، من تقرير الألوهية والوحدانية ، وصدق نبوة محمد ﷺ ، وبطلان الشرك ، والتنديد بالشرك والمشركين .

★ ★ ★

دلائل القدرة الإلهية

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

بالحق : بالحكمة والصواب .

يكور الليل على النهار : يلفّه فيخفيه ، من كار العمامة وكورها على رأسه إذا لفّها ، أو من كوّر المتاع : ألقى بعضه على بعض . والمراد : يذهب الليل ، ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس .

وسخر الشمس والقمر : ذللهما لمراده ، وجعلهما منقادين له .

أجل مسمى : يوم القيامة .

ثم جعل منها زوجها : حوّاء .

ثمانية أزواج : الإبل والبقر والغنم والمعز ، ولكل واحد من الأربعة ذكر وأنثى .

في ظلمات ثلاث : ظلمات البطن ، والرحم ، والمشيمة .

ولا تزر وازرة وزر أخرى : ولا تحمل نفسٌ مذنبة ذنب نفس أخرى .

التفسير :

٥ – خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ .

خلق السماوات وما فيها ، وخلق الأرض وما عليها ، بالحق والعدل والإنصاف لأغراض ضرورية ، وحكم ومصالح ، وجعلهما فى أبدع نظام ، وهذا يدلّ على كمال القدرة الإلهية ، واستغنائه عن الشريك والولد .

يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ...

يُغشى الليل النهار فتأتى الظلمة فيستريح الناس وينامون ، ويُغشى النهار مكان الليل ، فيحل به النور ، فتنشط الخلائق ويعملون لما خلقوا من أجله .

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ...

ذلل وطوّع الشمس والقمر ، حيث جعلهما يجريان فى مدارهما ، فيترتب على تذليلهما وجود النهار تارة ، والليل تارة أخرى ، والفصول الأربعة : الربيع ، فالصيف ، فالخريف ، فالشتاء ، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا الدوران فيه من الفوائد والمصالح للعباد ما لا يقدّر قدره ، من ذلك معرفة عدد السنين والحساب .

أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ .

فهو العزيز القادر على عقاب المقصّرين ، الغفار للتائبين النادمين .

٦ – خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

خلقكم من نفس واحدة ، هى آدم عليه السلام ، وخلق من آدم حواء من قصيراه .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ... (النساء : ١) .

وخلق الله لنا من الأنعام ثمانية أزواج ، هى : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والماعز ، وخلق من كل صنف ذكرًا وأنثى ، فالجمل والناقة ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والتيس والمعزة .

يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ...

يخلق الإنسان والحيوان فى بطن الأمهات ، خلقًا متدرجًا متطورًا من حال إلى حال ، أى : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظامًا ، ثم يكسو العظام لحمًا ، فإذا هو إنسان كامل .

فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ...

هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، ثلاثة أغشية يحفظ الله فيها الجنين ، حيث يكون فى قرار مكين ، مستقرًا فى غشاء يحميه ويحافظ عليه ، حتى يتم الخلق ويَنْزِل وليدًا إلى الحياة .

وبعد أن قدّم أدلة على الألوهية والوحدانية ، والقدرة البالغة ، والإرادة النافذة فى خلق الكون وخلق الإنسان والحيوان ، أتبع ذلك بفذلكة أو نتيجة فقال : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

هذا الإله القادر الخالق ، المبدع للكون والإنسان والحيوان ، هو الله ربكم وخالقكم ومالك الملك والمتصرف فيه ، خلقًا وإيجادًا ورعاية وحفظًا ، لا إله سواه ، ولا شريك له ولا ندّ له ولا مثيل .

لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

فكيف تصرفون عن طاعته وعبادته إلى طاعة الشيطان ، أو الكفر وعبادة الأوثان .

٧ - إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

إن تكفروا بالله فإن الله غنى عنكم وعن عبادتكم ، ولا تضرّه معصيتكم ، ولا تنفعه طاعتكم ، ومع هذا فهو حريص على مصلحة عباده ، ولا يرضى لعباده الكفر ، رحمة بهم حتى لا يتعرضوا لغضبه وعذابه ، وإن تشكروا يرضه لكم ، وإذا آمنتم رضى عنكم .

وفى الحديث القدسى الذى رواه الإمام مسلم ، يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا ...»[٣٩] .

وفى القرآن الكريم : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...

ولا تحمل نفس ذنب نفس أخرى ، وقد كان رؤساء الكفر يقولون لأتباعهم : ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ... (العنكبوت : ١٢) .

وقد بين القرآن أن الإنسان مسئول عن عمله ومحاسب عليه ، قال تعالى : كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

وقال تعالى : يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . (عبس : ٣٤ – ٣٧) .

فالإنسان المذنب يتحمل ذنوبه وحده ، ولا يتحمل ذنب آخر ، إلا إذا كان مسئولاً عنه ، فإنه يتحمل شيئًا من المسئولية ، كالأب المنحرف الذى يغرى أولاده بالانحراف ، فيتحمل الأب ذنبه ، وذنب إرشاد أولاده إلى السوء ، أو وقوعهم فى الرذيلة .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ... (التحريم : ٦) .

وفى النهاية سيعود الخلائق إلى ربهم فيحاسبهم ، ويخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها ، فهو سبحانه مطلع على السرائر ، خبير بالسر والعلن .

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ...

أى : الموت والبعث والحشر والحساب والجزاء .

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ...

فيخبركم بأعمالكم تمهيدًا للحساب والجزاء عليها .

إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

إنه مطلع على ما تكنّه السرائر وما تخفيه الضمائر ، وفيه تهديد للعاصى وبشارة للطائع .

* * *

تناقض الكفار واستقامة المؤمنين

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

ضــــــــــــر : شدة من البلاء والفقر.

مــنــيــبــا إلــيــه : راجعًا إليه .

خــولــه نــعــمــة : أعطاه وملكه نعمة عظيمة ، والأصل : أعطاك خَوَلاً - بفتحتين - أى : عبيدًا وخدمًا ، ثم عمم لمطلق العطاء .

الــــــقــــــانت : المطيع ، أو الذى يطيل القيام فى صلاته .

آنــاء الــلــيــل : ساعاته : أوله ووسطه وآخره ، أو جوفه .

وأرض الله واسعة : فهاجروا فيها ، ولا تقيموا مع من يقترف المعاصى .

التفسير :

٨ - وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ .

من شأن الإنسان أن يذكر ربّه ويتضرع إليه فى البأساء والشدة ، وأن يلجأ إليه عند المرض والمصاب والأمر الجلل ، ثم إذا أنعم الله عليه بالنعم المتعددة ، نسى الشدّة التى لجأ إلى الله من أجلها ، أو نسى الربّ الذى دعاه فى البأساء ، وأخذ يتقرب إلى الأنداد والشركاء ، التى يضلّ بها عن سبيل الله وطريقه ، وهنا يهدد الله المعرضين عنه بالعذاب الشديد فى الآخرة ، وينذر المُعرض بأن ما يتمتع به فى الدنيا ، من جاه أو مال

أو سلطان عرض حائل ، ثم عند الموت يجد النار أمامه ، جزاء كفره ، أو جزاء تضرّعه إلى الله فى الضرّاء ، ثم الإعراض عنه عند النعماء .

والآية عامة ، واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر ، وقيل : المراد بالآية عتبة بن ربيعة وأبو جهل .

وعلى هذا يكون معنى الآية : وإذا مسّ الإنسان الكافر ضرٌّ وبلاء أو مرض وبأساء ، دعا الله تعالى وحده مخلصًا له فى العبادة والتضرع ، ثم إذا منّ الله عليه بالنعماء والرخاء ، نسى الدعاء الذى كان يدعو به ، أو نسى من كان يدعوه من قبلُ ، أو نسى الضرّ الذى كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه ، وجعل لله أوثانًا وأصنامًا وشركاء ، يعبدهم ضالاً عن طريق الله تعالى ، فقل له يا محمد : تمتع بكفرك متاعًا قليلاً ، مدة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ، أما فى الآخرة فمآلك جهنم لعبادة غير الله ، أى : قد أبيت أن تستمر على دعاء الله ، والإخلاص له فى النعماء والرخاء ، فاستمتع بهذا الكفر الذى أنت فيه تمتعًا قليلاً ، لا ينجيك من عذاب النار فى الآخرة .

٩ – أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ .

أهذا الكافر الذى سبق ذكره فى الآية السابقة ، يستوى بالمؤمن القانت الخاشع لله فى جوف الليل ، حال كونه ساجدًا لله يتضرع إليه ، وقائمًا يقرأ القرآن فى تضرع وحب وخشية لله ، لأنه يخاف عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة الله تعالى ، فقد جمع بين الخوف والرجاء ، وهما جناحان يطير بهما المؤمن فى ملكوت الرياضة الروحية ، وسلوك منازل الآخرة ، فالخوف إذا زاد عن حدّه صار يأسًا : إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

والرجاء والأمل بدون عمل طمع بدون حقّ ، وفى الحديث النبوى : «ليس الإيمان بالتمنّى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل ، ألا وإنَّ أقوامًا غرتهم الأمانّى ، خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظن بالله ، وكذبوا على الله ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل» .

وقال تعالى : فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . (الأعراف : ٩٩) .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...

هل يستوى العالم والجاهل ؟ أى : وكما لا يستوى العالم والجاهل ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى .

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ .

أى : إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة ، وإنما ينتفع بأمثلة القرآن أصحاب القلوب المستنيرة ، والعقول الخالصة من شوائب الخلل .

قال ابن كثير :

وينبغى أن يجمع المؤمن بين الخوف والرجاء ، وفى الشباب يغلب الخوف على الرجاء ، وفى الشيخوخة يغلب الرجاء على الخوف ، وكذلك عند الاحتضار يكون عظيم الأمل فى رحمة الله وفضله .

روى الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن أنس رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت فقال له : «كيف تجدك» ؟ فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو وأمّنه الذى يخافه»[٨٠] .

وقرأ ابن عمر : أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ... فقال : ذاك عثمان ابن عفان رضى الله عنه – أخرجه ابن أبى حاتم .

وذلك لكثرة صلاة عثمان بالليل وقراءته ، قال الشاعر : يقطع الليل تسبيحًا وقرآنًا .

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير :

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأوّلها أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو القنوت والسجود والقيام ، وأما العلم ففى قوله : هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ وهذا يدلّ على أنّ كمال الإنسان محصور فى هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية ، والعلم والمكاشفة هو النهاية ، وفى الكلام حذف تقديره : أمّن هو قانت كغيره ؟ وإنما حَسُن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر ، ثم مثّل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم . اهـ .

١٠ – قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يا من آمنتم بالله ربًا ، ضمُّوا إلى الإيمان بالله تعالى ، التقوى ومخافة الله ومراقبته .

والتقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : هى ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

وقيل : هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطا .

وقيل : هى الاجتهاد فى عمل الطاعات ، والابتعاد عن اقتراف المعاصى .

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ...

للذين أحسنوا عملهم ، وراقبوا ربَّهم حسنة فى الدنيا ، من رضوان الله وتوفيقه ورزقه وعنايته ، أو لمن أحسن فى هذه الدنيا حسنة فى الآخرة ، ويمكن أن يراد الاثنان معًا ، أى : للمؤمنين المحسنين حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة .

وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ...

أى : فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان ، ولا تقيموا فى أرض لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله .

قال المفسرون : نزلت فى جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة ، والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة[٨١] .

إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يكافأ الصابرون الذين صبروا على هجرة الأهل والوطن ، مكافأة لا يهتدى إليها حِساب الحُسَّاب ، أى بغير تقدير ، أى : حين يكافأ أهل الطاعات كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، والجهاد وصلة الرحم وإكرام الجار والعطف على المساكين ، يكافأ هؤلاء على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فإن أهل البلايا والصبر على البأساء يلقون جزاءهم بدون حصر وبدون عدد .

قال الأوزاعى : ليس يوزن لهم ولا يكال ، إنما يغرف غرفًا .

وقال ابن جريج : بلغنى أنهم لا يحسب عليهم ثواب عملهم قطّ ، ولكن يزادون على ذلك .

وقال السدّى : يعنى فى الجنة .

لقد كان القرآن يأخذ بيد المؤمنين ، فيحثهم على الثبات والصبر ، والمجاهدة فى تحمل مشاق الهجرة ومتاعبها ، واحتمال البلايا فى طاعة الله ، وكان الرسول الأمين وصحابته الأبرار قدوة عملية فى الثبات والتضحية .

وفى الحديث الشريف : «تنصب الموازين لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ، ولا تنصب لأهل البلايا ، بل يصب عليهم الأجر صبًّا ، حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» .

★ ★ ★

الإخلاص

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

مخلصا له الدين : أى : اعبده عبادة خالصة من الشرك والرياء موحّدا له .

أول المسلمين : أول من خالف دين آبائه ، وخلع عبادة الأصنام ، أو أول المسلمين من هذه الأمّة .

مخلصا له دينى : طاعتى وعبادتى .

فاعبدوا ما شئتم : أمر تهديد وتوبيخ لهم ، أى : ستلقون حتمًا جزاء كفركم .

الخاسرين : الكاملين فى الخسران ، ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ . بالضلال ، وَأَهْلِيهِمْ . بدخولهم النار .

عن ابن عباس : ليس من أحد إلا خلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله .

المبين : البيّن الواضح .

ظلل : طبقات كثيرة من النار فوقهم كهيئة الظلل ، جمع ظلّة ، وأصلها : السحابة تظلّ ما تحتها .

ومن تحتهم ظلل : ومن تحتهم طبقات من النار ، والمراد أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجوانب .

التفسير :

١١ – قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها من آيات لإعلان عقيدة التوحيد ، خالصة نقية من الرياء والشرك ، ومن عبادة غير الله ، كالملائكة أو الأصنام والأوثان .

وخلاصة معنى الآية :

قل لهم يا محمد : أمرنى ربى سبحانه وتعالى أن أعبده عبادة خالصة ، نقية من الشرك أو الرياء .

١٢ – وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

وكذلك أمرنى ربى أن أكون أول المسلمين من هذه الأمة ، فقد أنزل الله علىّ الوحى ، وخصنى بالرسالة ، لأدعو نفسى والناس أجمعين إلى توحيد الله بالعبادة ، ونبذ عبادة غير الله ، من الأوثان والأصنام ، فأنا أول من خالف دين آبائه وأجداده فى نبذ عبادة الأصنام ، وأنا أعتز بذلك وأفتخر به ، أن أكون قدوة لكل مسلم ، ومقدمة لكل مؤمن ، قال تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا . (الأحزاب : ٢١) .

١٣ – قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

تتكرر هنا أدلة التوحيد ، والدعوة إليه ، وتأكيد عبادة الله وحده ، فى إخلاص وإنابة ، والابتعاد عن عبادة الأوثان ، وسبب ذلك أن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ : ألا تنظر إلى أبيك وجدّك وسادات قومك ، يعبدون اللات والعزّى ؛ فنزلت ردًا عليهم .

أى : إنى لن أقرب الشرك ، ولن أعبد الصّنم ، ولن أميل إلى دينكم وعبادتكم الأوثان ، لأنى أخاف ترك الإخلاص ، والميل إلى الشرك ، فأتعرض لعذاب يوم عظيم ، وهو يوم القيامة ، ولسان حاله يقول : إذا كنت أنا أخاف هذا الخوف ، من الميل إلى عبادة الأوثان ، فأنتم أولى بهذا الخوف ، وأجدر أن تهربوا من الشرك إلى توحيد الله سبحانه وتعالى .

١٤ – قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى .

تتدرج الآيات وتتتابع فى تأكيد توحيد الله وحده ، وإخلاص العبادة له ، وترك عبادة ما عبده الآباء والأجداد ، والهلع والخوف من التقرب للأصنام ، فإن ذلك شرك ، يعرض صاحبه لعذاب يوم القيامة ، وأهوال هذا اليوم العظيم ، وفى قمة هذا التوجّه نجد هذه الآية ، وخلاصتها : إنى أعبد الله لذات الله ، لا خوفًا من النار ، ولا طمعًا فى الجنة ، وإنما عبادة له ذاته ، وإخلاصًا لوجهه ، لا رياء فى عبادتى لله ولا سمعة ، ولا ميل لغيره ولا إشراك .

وكان من دعاء المؤمنين فى الحج ، والنبى ﷺ يسمعه فلا ينكره :

لبيك حقًّا حقًّا تعبدًا ورقًّا

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ . (البينة : ٥) .

وكان من دعاء رابعة العدوية : إلهى .. غارت النجوم ، ونامت العيون ، وبقيت أنت يا حىّ يا قيوم ، إلهى .. أغلقت الملوك أبوابها ، وسكن كل حبيب إلى حبيبه ، إلهى فأنت حبيبى ، ولو طردتنى عن بابك ما طُردت لعلمى بعظيم فضلك ، وعميم جودك ، إلهى .. إن كنت أعبدك شوقًا إلى الجنة فاحرمنى منها ، وإن كنت أعبدك خوفًا من النار فاحرقنى بها ، وإن كنت أعبدك لك ذاتك لأنك تستحق العبادة ، فلا تحرمنى من نور وجهك الكريم يا رب العالمين .

ومن شعرها :

أحبك حبين حبٌّ الهوى	وحبٌّ لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى	فشغلى بذكرك عمّن سواكا
وأمّا الذى أنت أهل له	فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وقد بدأ أبو حامد الغزالى باب الإخلاص فى كتاب «إحياء علوم الدّين» بقوله : أما بعد .. فالناس هلكى إلا العاملين ، والعاملون هلكى إلا المخلصين ، والمخلصون على خطر عظيم .

وبيّن أبو حامد الغزالى أن الإخلاص هو أكسير العبادة ، وروحها وسرُّ قبولها ، والإخلاص هو التوجّه إلى الله وحده بالعمل ، بدون رياء ولا سمعة ، وإذا عظُم الإخلاص فى قلب المؤمن أصبح يقينًا بأن المطلع عليه هو الله وحده ، فلا يلقى بالا لمن يراه من الناس ، بل يعظُم توجهه وإخلاصه ، ويقينه بأن الله حسبه وكافيه ، وهذه مرتبة الإحسان ، وهى أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدى إلى بشىء أحبَّ إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألنى لأعطينه ...»[٨٧] .

١٥ – فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ .

وهذا أمر تهديد ووعيد ، أى : أنا أخلصت عبادتى له وحده ، وسرت فى طريق التوحيد والإخلاص لله تعالى وحده بالعبادة ، فاعبدوا أنتم ما شئتم من الأصنام والأوثان والشركاء من دون الله ، فستلقون عقاب ذلك يوم القيامة ، قل لهم يا محمد : إنَّ الخاسرين كمال الخسران ، هم الذين خسروا أنفسهم ، حيث حرموها من الإيمان بالله تعالى ، ومن سماع القرآن ، ومن هدى محمد ﷺ ، كما أنهم خسروا أهليهم ، حيث أرشدوهم إلى الكفر والشرك ، أو حُرموا من الحور العين فى الجنة ، أو حرموا أهليهم الذين أعدهم الله لهم فى الجنة لو آمنوا بالله وأطاعوه .

أخرج عبدالرزاق ، وعبد بن حميد ، عن قتادة قال : ليس أحد إلا قد أعدّ الله تعالى له أهلاً فى الجنّة إن أطاعه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، أنه قال فى الآية : خسروا أهليهم من أهل الجنة ، وكانوا قد أُعدّوا لهم لو عملوا بطاعة الله .

أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ .

إن هذا لهو الخسارة الفادحة الظاهرة ، أن تخسر نفسك فلا تكون مصطلحًا عليها ، بل ترغمها على الكفر ، وتهرب منها إلى الشرك ، وأن تخسر أهلك وزوجك وذريتك ، فترشدهم إلى الكفر والمعصية ، وأنت حادى الطريق ، وأنت الراعى المسئول عن رعيته ، فبدلا من أن تقدم لها الهداية ، قدمت لها الغواية ، فحرمت سعادة الدنيا والآخرة ، وحرمت مع أسرتك نعيم الجنة وأهلها ويحبوحتها ، وصرت أهلاً للعذاب الشديد بين صفائح جهنم .

١٦ – لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ .

هؤلاء الخاسرون تمام الخسارة ، يعذّبون بين صفائح جهنم ، فالنار تظللهم من فوقهم ، تهكمًا بهم ، فالأصل أن الإنسان يتظلل بالمظلة والشجرة ، والسحابة الواقية من الحر وشدّته ، وهؤلاء تظلّهم طبقات جهنم من فوقهم ، وطبقات جهنم من تحتهم ، وسمّى ما تحتهم ظللا ، مشاكلة لما فوقهم، أو لأن ما تحتهم من طبقات النار ، يظلل فئة أخرى تعذّب تحتهم ، فينظر الإنسان فوقه فلا يجد إلا النار ، وتحته فلا يجد إلا النار ، كما أن النار تحيط به عن يمينه وعن شماله ، وعن سائر الجهات التى حوله .

قال تعالى : يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (العنكبوت : ٥٥).

وقال تعالى : لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ . (الأعراف : ٤١).

ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى ذكره الله عقوبة للخاسرين الكافرين ، مما يحذّر الله به عباده ، ويخوّفهم من هذه النهاية البائسة ، ويضع أمامهم هذا المنظر الرهيب ، منظر إنسان قد خسر نفسه ، وخسر أهله ، وهو يعذّب بين طبقات النار ، ولا يجد وسيلة للهرب أو الفرار ، يا عباد – أى يا كل عبادى – خافوا عذابى واتقوا غضبى ، وسيروا فى طاعتى ، وابتعدوا عن الكفر والشرك ، والمراد بالفقرة الأخيرة : المؤمنون ، لأنهم هم المنتفعون بهذا التوجيه ، وعممه آخرون فى المؤمن والكافر ، أى : يا كل من يتأتى منه العبودية لله ، اتقوا غضبى وعذابى ، وقيل : هو خاص بالكفار . ا هـ .

والأولى أن يقال إنه خطاب عام للناس كلّ الناس ، وللعباد كل العباد بأن يتقوا الله ويراقبوه .



سعادة المؤمنين

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

الطاغوت : الأوثان والمعبودات الباطلة ، والمراد به : الشيطان .

وأنابوا إلى الله : رجعوا إليه وتابوا .

البشرى : الثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون ، والبشرى اسم لما يُعطاه المبشر .

فيتبعون أحسنه : أى : يأخذون بالواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن ، أو يختارون العفو ويتركون العقاب ، مع أنه جائز ، أو ينتقدون الردىء ، ويختارون الأحسن .

أولـو الألبـاب : أصحاب العقول السليمة .

كلمة العذاب : إشارة إلى قوله تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٥) .

لهم غرف : منازل رفيعة عالية فى الجنة ، قد أُعدَّ بناؤها قبل يوم القيامة .

التفسير :

١٧ – وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ .

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ، وقد تحدث فيما سبق عن الخاسرين وعذابهم فى النار ، وهنا يتحدث عن الذين أقبلوا على الله تعالى ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، وطاعة الشيطان ، فقال : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ...

أى : ابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، وعن طاعة الشيطان .

وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ...

ورجعوا إلى الله مؤمنين قانتين ، هؤلاء يستحقون النجاة والفوز والبشارة بالجنة .

لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ .

أى : يبشرهم القرآن بالثواب الجزيل ، ورضوان الله عليهم فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة .

وقيل : البشرى هى أن الملائكة تنزل عليهم عند الموت ، تبشرهم بأن الله تعالى سيحفظهم فى ذرّيتهم فلا يخافون عليهم ، وسييسر لهم دخول الجنة ، ونعيم القبر .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ – ٣٢) .

والخلاصة :

أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند خروج الروح ، فتبشرهم بأن الله يحفظهم فى ذريّاتهم ، فلا يخافون عليهم ، وتبشّرهم بنعيم القبر ونعيم الجنة ، وبولاية الله لهم فى الدنيا وفى الآخرة .

قال ابن إسحاق :

نزلت الآية السابعة عشرة من سورة الزُّمَر فى عثمان ، وعبدالرحمان بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة ، والزبير ، رضى الله عنهم ، سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه ، وذكّرهم بالله فآمنوا .

وقيل : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، كانوا يقولون فى الجاهلية : (لا إله إلا الله) ، لكن علماء القرآن يقولون : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أى أننا لا نقصر الآيات على هؤلاء الأشخاص . بل نقول : كل من هجر عبادة الأوثان ، وابتعد عن السير وراء الطاغوت والطغيان ، وأطاع الله وحده لا شريك له ، منيبًا إلى الله تعالى ، يستحق البشرى بالأخبار السَّارة ، فبشر أيها الرسول عبادى المؤمنين .

١٨ - ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ .

هؤلاء نفوسهم طيبة ، وقلوبهم طيبة ، يستمعون الأقوال المتعددة ، فتلتقط نفوسهم الكلم الطيب والفكر الحسن ، والذكر المفيد ، وتترك الردىء ، فالنفوس الحسنة تبحث عن القول الحسن ، والفكر الحسن ، والتوجّه الحسن ، وكل ما يدعو إلى الخير ، ويرغّب فى الفضيلة ، ويحث على الاستقامة ، أمَّا النفوس الخبيثة فإنها تبحث عن القول الردىء ، والتفكير الخبيث ، لأن الطيور على أشكالها تقع .

وقيل : المراد بالآية توجيه المؤمنين إلى أن يكونوا نقادًا فى الدِّين ، يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران ، حرصوا على ما هو أقرب عند الله ثوابًا ، وأرجى قبولاً .

وقيل : هم الذين يستمعون أوامر الله ، فيتبعون أحسنها ، مثل : القصاص أو العفو ، والانتصار وأخذ الحق أو الإغضاء والتجاوز ، وإظهار الصدقة وإخفائها .

قال تعالى : وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... (البقرة : ٢٣٧) .

وقال سبحانه : إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... (البقرة : ٢٧١) .

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ .

أى : هؤلاء المتصفون بالصفات الجميلة ، والقلوب الخيِّرة ، التى تختار الأحسن والأولى والأفضل ، هم الذين هداهم الله لمعرفة دينه ، واختيار ما يرضيه ، وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة البعيدة عن اتباع الهوى .

١٩ – أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ .

كان النبى ﷺ حريصًا على هداية قومه ، من أمثال أبى جهل وأضرابه ، ممن عبدوا الطاغوت وأطاعوا الشيطان ، وكفروا بالإسلام ، فاستحقوا الضلالة والشقاء ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، حيث قال تعالى : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ‌* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٤ ، ٨٥) .

لقد اختار الضلالة على الهدى ، فوجبت عليه كلمة العذاب ، وهى قسم الله أن يملأ جهنم من الشيطان وأتباعه ، فاستحق ذلك الوعيد ، واستوجب الخلود فى جهنم ، ولم يعد ممكنًا لك يا محمد أن تنقذه من النار التى استحقها بعدالة الله تعالى .

والمعنى :

إنك يا محمد لا تقدر على هدايته فتخلِّصه من النار ، والمقصود : طب نفسًا وقرّ عينًا ، ولا تجزع لإعراض قومك ، فإن العذاب سيصيبهم جزاءً وفاقًا ، وفى هذا المعنى نجد قوله تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ‌* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

وقوله سبحانه : طسٓمٓ ‌* تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ‌* لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ١ – ٣) .

وقول الله عز وجل : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... (القصص : ٥٦) .

وقوله تعالى : ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . (المدثر : ١١) .

وقوله عز وجل : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

من تفسير الفخر الرازى

ذكر الفخر الرازى عند تفسير هذه الآية ثلاث مسائل ، نترك ما قاله فى المسألتين الأولى والثانية ، وننقل هنا ما قاله فى المسألة الثالثة وهو ما يأتى :

احتج القاضى بهذه الآية على أن النبى ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال : لأنه حق عليهم العذاب ، فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والاستبعاد ، فيقال له : لا نسلّم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب ، وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... (النساء : ٤٨) . ومع قوله : إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ... (الزمر : ٥٣) ، والله أعلم[٨٣] .

٢٠ - لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ .

لكن الذين خافوا عذاب الله ، وراقبوا الله وأخلصوا له العبادة ؛ أعد الله لهم في الجنة غُرَفًا مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ . وهي قصور عالية ، ذات طبقات مزخرفات ، قد تمَّ بناؤها بحالة تشرح الصدر وتسرُّ العين ، فالأنهار تجرى من تحتها لكمال بهجتها ، وزيادة رونقها ، وهذا وعد الله للمتقين المؤمنين ، ووعد الله ثابت لا ينقض ولا يخلف .

قال ابن عباس : غرف الجنة من زبرجد وياقوت .

وروى الإمام أحمد بسنده ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وصلَّى بالليل والناس نيام»[٨٤] .

ونلاحظ أن النار دركات ، وأن الجنة درجات ، والآية تنطوى على ما أعد الله للمتقين من كرامة ومنزلة ونعيم مقيم ، فى جنات مبنية بيد الرحمان وقدرته ، تجرى من تحتها أنهار من خمر ، وأنهار من عسل ، وأنهار من لبن ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

★ ★ ★

الهداية للإسلام

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

فسلكه ينابيع : أي : أدخله في الأرض فصار جاريًا تحتها ، ينبع منها فكان بذلك ينابيع .

مختلفا ألوانه : ما بين أخضر وأبيض وأحمر وأصفر ، وأنواعه من بر وشعير وذرة وفول وعدس .

ثم يهيج فتراه مصفرا : ييبس فتراه أيها الرائى بعد الخضرة مصفرًا .

حطاما : فتاتًا متكسرًا .

شرح الله صدره للإسلام : وسع صدره للإسلام حتى فرح به واطمأن إليه .

فهو على نور : بصيرة وهدًى ومعرفة بالله وشرائعه .

ويل : عذاب .

للقاسية قلوبهم : قلب قاسٍ ، أى : صلب لا يرق ولا يلين .

من ذكر الله : من قبول القرآن ، فلم تؤمن به ولم تعمل بما فيه .

أحسن الحديث : القرآن الكريم .

متشابها : يشبه بعضه بعضا فى النظم والحسن والإحكام .

مثانى : واحدها مثنى ، من التثنية ، أى : التكرار .

تقشعر : ترتعد وتضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد .

تلين : تسكن وتطمئن عند ذكر آيات الرحمة .

التفسير :

٢١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ .

ألم تر أيها النبى ، ويا كلّ من تتأتّى منه الرؤية ، أن الله تعالى يسبب الأسباب لنزول الأمطار ، مثل شروق الشمس ، وإرسال أشعتها على المحيطات ، وتصاعد البخر إلى السماء ، ووجود السحاب الذى تحركه الرياح ، ثم يتساقط مطرًا ، فينزل جانب منه فى باطن الأرض ، ثم تتفجر منه الينابيع والعيون والأفلاج ، التى تسقى الزروع المختلفة الألوان ، فمنها الأخضر ومنها الأحمر ومنها الأبيض ومنها الأصفر ، وكذلك الزروع المختلفة الأنواع كالقمح والذرة والأرز ، والفول والعدس والبرسيم والقثاء ، والبطيخ والشمّام والخيار والدبّاء والخضراوات ، وغير ذلك من الأصناف والألوان ، التى تبهج النفس ، وتقدم الغذاء والفاكهة والطعام للإنسان والحيوان والحشرات والطيور ، وغيرها من الزواحف وسائر المخلوقات ، وبذلك يعمر الكون وتستمر الحياة ، ويتعظ أولو الألباب وأصحاب العقول ، بأن الماء تسبب فى إنبات الزروع المختلفة ، وأنها نبتت ثم اخضرت ، وصارت بهجة للناظرين فترة محدودة ، ثم يبست واصفرت وتكسرت ، وصارت حطامًا ، وكذلك الحياة الدنيا تنتهى فى وقت محدد ، ويعقبها البعث والحشر والجزاء .

قال تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا . (الكهف : ٤٥) .

٢٢ - أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

دلَّت الآية السابقة على بديع القدرة فى إنزال الماء ، منه ما يكون أنهارًا تجرى ، كالنيل والفرات ودجلة ، ومنه ما ينزل فى الأرض فيكون وسيلة لتكوين الينابيع ، وسقى الزرع والنبات المختلف الألوان والأنواع ، الذى يعيش فترة أخضر يانعًا ، ثم يذبل ويصفرّ ويكون حطامًا ، والقلوب المتفتحة هى التى تتأثر بيد القدرة الإلهية ، وتشاهد هذه القدرة فى كل مظاهر الحياة والنماء ، فى بسمة الوليد وانفلاق الصباح وسطوع الشمس ، وحركة الظلام وتحرك النبات ، ونمو الإنسان من ضعف إلى قوة ثم وصوله إلى المشيب والموت .

وفى هذه الآية نجد أيضًا أن من الناس من حلّت فيه بركة الله وهدايته ، فشرح صدره للإسلام ، وأنار قلبه بالقرآن والسنّة المطهرة والموعظة الحسنة ، فترى قلبه حيًا بذكر الله ومراقبته وخشيته ، فهو على نور وهداية من الله تعالى .

وجواب الاستفهام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى به ، كمن ضاق صدره وامتنع عن الإسلام ؟

أى : هل يستوى المؤمن والكافر ؟ أو هل يستوى الأحياء والأموات ؟

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ . (فاطر : ١٩ ، ٢٢) .

فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ...

العذاب الشديد لأصحاب القلوب الصماء القاسية كالصخر ، التى لا تلين لذكر الله ، ولا تتسع لسماع القرآن ، ولا لنداء الرحمان ، بل يزيدها سماع القرآن إعراضًا وبعدًا وكرهًا وكفرًا .

وبعض المفسرين قال : إن ، مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ . معناها : عن ذكر الله ، فهى قلوب غافلة عن القرآن والإيمان ، وأسباب الهداية والتوفيق ، لأنها قاسية صلبة لا تلين لذكر الله .

أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ .

أى : إن هؤلاء الكافرين الضالين قد غلبهم الضلال واستهواهم الكفر ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فهم فى ضلال واضح ، وعمى عن الحق والنور والهدى .

قال تعالى : أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ... (الأنعام : ١٢٢) .

قال ابن عباس : من شرح الله صدره للإسلام أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : قلنا : يا رسول الله ، قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ... كيف انشرح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح» ، قلنا : يا رسول الله ، وما علامة ذلك ؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[٨٥] .

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، عن ابن عمر ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، أى المؤمنين أكيس ؟ قال : «أكثرهم للموت ذكرًا ، وأحسنهم له استعدادًا ، وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع» ، قالوا : فما آية ذلك يا نبى الله ؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله تعالى : اطلبوا الحوائج من السُّمحاء ، فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم ، فإنى جعلت فيهم سخطى»[٨٦] .

وقال مالك بن دينار :

ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

٢٣ – ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ .

عن ابن عباس : أن قومًا من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، حدثنا بأحاديث حِسَان ، وبأخبار الدَّهر ، فنزلت هذه الآية .

والمعنى :

الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن من السماء ، فهو سبحانه الذى أنزله ، فنعم الذى أنزل ، ونعم الكتاب المنزَّل ، فهو أحسن الحديث ، حيث أنزله مشتملاً على دلائل التوحيد والوعظ والإرشاد ، والقصص وأخبار الأولين ، والتشريع والآداب ، وأخبار البعث والحساب ، والصراط والميزان ، والجنة والنار .

مُّتَشَٰبِهًا . يشبه بعضه بعضًا فى إحكامه وسمو بيانه ، ودقه بنيانه ، وليس فيه خلل ولا ضعف ولا اضطراب ، ولا ركاكة أسلوب، بل كلّه يشبه بعضه بعضًا فى قوّته وجزالته ، وإحكامه وسمو معانيه .

مَّثَانِيَ . يثنى ويكرر فى قصصه وأخباره ووعظه ووعده ووعيده ، لحكمة إلهية يقتضيها السياق ، وتحتاج إليها الخلائق ، مع الجزالة والإعجاز ، لا تُملّ إعادته ، بل كلما تكرر حلا ، فهو يأتى بمناسبة جديدة فى كل قصة ، وتوضع القصة فى سياق مناسب .

قال تعالى : صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . (ص : ١) .

وقال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وهذا الكتاب إذا سمعه المؤمنون ، وأصغى إليه المتقون ، وتأمّله الذاكرون ؛ وجلت قلوبهم ، واقشعرت جلودهم من خشية الله تعالى ومخافته ، حيث ترتعش القلوب ، وتبكى العيون من خوف العذاب والوعيد ، ومن خوف غضب الله وعقابه .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...

فمن هيبة القرآن وجلاله ، إذا سمع المتقون قوارع آياته ووعيده : أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم ، وإذا سمعوا وصف الجنة ونعيمها ، ورحمة الله واتساعها ، وآيات الرجاء فى فضل الله ، ومحبته لتوبة العباد ؛ تبدل خوفهم إلى رجاء ، وخشيتهم إلى رغبة فى فضل الله .

قال تعالى : ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ...

فما أصدق هذه القلوب ، وما أيسر هذه الشفافية والاستجابة لآيات الله ، حيث نجد الخوف والبكاء والأنين عند آيات الوعيد ، ونجد الأمل والانشراح والرجاء عند آيات الرحمة والوعد وذكر الجنان والنعيم .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله .

قال القرطبي في تفسير الآية :

مُتَشَٰبِهًا . يشبه بعضه بعضًا في الحسن والحكمة ، ويصدّق بعضه بعضًا ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف .

وقال قتادة : يشبه بعضه بعضًا في الآي والحروف ، وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، لما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب ، وإن كان أعم وأعجز .

ثم وصفه فقال : مَّثَانِيَ . تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام ، ويثنى للتلاوة فلا يملّ .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...

تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد .

ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ...

أي : عند آية الرحمة ، وقيل : إلى العمل بكتاب الله والتصديق به ، وقيل : إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ . يعني : الإسلام .

قال زيد بن أسلم : قرأ أبي بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه فرقّوا ؛ فقال النبي ﷺ : «اغتنموا الدعاء عند الرِّقة فإنها رحمة»[٨٧] .

وعن العباس ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما يتساقط عن الشجرة البالية ورقها»[٨٨] .

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ...

ذلك الكتاب هداية الله لعباده ، أو هذا الفضل والتوفيق ، والخوف من الوعيد ، والرجاء والأمل في الرحمة ، هداية السماء يهدى بها الله من يشاء من المتقين .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ .

ومن قسا قلبه وأعرض عن الله تعالى سُلب الهداية والتوفيق ، وعاش في الضلال بسبب الإصرار والعناد ، وهذا ليس له من هاد يهديه بعد الله أبدًا .

والمقصود :

إن القلوب قلبان :

١ - قلب قابل للهداية ، تحلُّ فيه هداية السماء ، وفيه الرقة والرحمة والخشوع والإيمان .

٢ - قلب غير قابل للهداية ، وفيه القسوة والصلابة ، والإعراض عن ذكر الله ، والكفر بهدى السماء .

قال الفخر الرازى :

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ .

أى : من جعل قلبه قاسيًا مظلمًا بليد الفهم ، منافيًا لقبول هداية الله ، فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ . فلن يستطيع أحد هدايته ، أو يؤثر فيه حتى يهتدى . اهـ .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر : ٢١) .

وقال ابن كثير :

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ...

يصف الله المؤمنين بأنهم يلزمون الأدب عند سماع القرآن ، كما كان الصحابة رضى الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك .

تلا قتادة - رحمه الله - هذه الآية فقال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله عز وجل ، بأنهم تقشعر جلودهم ، وتبكى عيونهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا فى أهل البدع ، وهذا من الشيطان[٨٩] .

★ ★ ★

عذاب الكافرين

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

يتقى بوجهه : يتلقى العذاب بوجهه لا شيء يقيه منه ، أهذا كمن أمنَ ؟

سوء العذاب : أقساه وأشدّه .

وقيل للظالمين : أى : المشركين فى جهنم .

ذوقوا ما كنتم تكسبون : جزاء كسبكم الشرّ والفساد .

من قبلهم : من قبل أهل مكة .

من حيث لا يشعرون : من الجهة التى لا يخطر ببالهم إتيان الشرّ منها .

الخزى : المسخ والذلّ والإهانة .

لو كانوا يعلمون : لو كانوا يعلمون ذلك ما كذبوا ولا كفروا .

التفسير :

٢٤ – أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الكافرين ، ونعيم المتقين .

وهنا يقول : أفمن يلقى فى النار موثوقًا بالحبال قد ربطت يداه بالحبال ، فاضطر أن يستقبل النار بوجهه ، كمن هو آمن سعيد مطمئن بالجنة ونعيمها ؟!

ويجوز أن يراد بالوجه الجسم كله ، فهو يسحب فى النار على وجهه ، ويُهان أعز جزء عليه وهو الوجه، فالإنسان فى الدنيا يدافع عن وجهه بيديه ، وفى الآخرة يلقى الكافر فى النار مكتوفًا .

قال عطاء وابن زيد : يرمى به مكتوفًا فى النار ، فأوّل شيء تمسّ منه النار وجهه .

وقال مجاهد : يجرّ على وجهه فى النار . اهـ .

قال تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ . (القمر : ٤٨) .

وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

للكافرين في جهنم عذاب بين طبقات النار ، ومعه مهانة وتقريع من الملائكة لهم ، حيث تقول لهم الملائكة : تذوقوا ألوان العذاب ، جزاء كفركم بالله ، واجتراح المعاصي ، وتكذيب الرسل ، فالجزاء من جنس العمل .

٢٥ - كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

كذبت أمم رسلها من قبل كفار مكة ، وكانوا في أمن ودعة ونعمة وعافية ، لا يتوقعون نزول العذاب الشديد بهم ، وبينما هم قارّون آمنون مطمئنون ، جاءهم العذاب من حيث لا يتوقعون قدومه ، فجاءهم ضحى وهم يلعبون وعند القيلولة والهدوء ، أو في ظلام الليل وسكونه ، وذلك مثل غرق قوم نوح ، وغرق فرعون وجنوده ، والعذاب المهلك لعاد وثمود .

قال تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . (محمد : ١٣).

٢٦ - فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

من شأن القرآن أن يعرض عذاب الآخرة مشاهدًا ، كأنما يراه الإنسان واقعًا أمامه ليتَّعظ ويعتبر ، وهنا يقول : لقد ذاق الكفار ألوان العذاب في الدنيا .

قال تعالى : فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (العنكبوت : ٤٠) .

لقد أصابهم العذاب المادّي ، وأذاقهم الله مع ذلك الخزى والهوان والذل في الحياة الدنيا ؛ حيث أصبحوا مثلا وعبرة يعتبر بها في الدنيا ، وفي الآخرة عذاب أكبر ، وأهوال جسام ، حيث يجدون في النار ألوان العذاب والهوان والقهر والإذلال .

لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ . ذلك علمًا يقينًا ما كذّبوا ولا كفروا ، أو لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئًا لعلموا ذلك واعتبروا به .

قال الفخر الرازي:

وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

يعني أن أولئك ، وإن نزل عليهم العذاب والخزي كما تقدم ذكره ، فالعذاب المدّخر لهم في يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذي وقع ، والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب [٩٠] .

★ ★ ★

أدلـة التوحيـد

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

المفردات :

ضرب مثلا : تشبيه حال عجيبة بأخرى ، وجعلها مثلاً لها .

متشاكسون : مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم .

سلما لرجل : خالصا لسيد واحد .

بل أكثرهم لا يعلمون : لا يعلمون الحق فيتبعوه .

ميّت : بالتشديد ، من لم يمت وسيموت ، (ميْت بالتسكين ، من فارقته الروح ومات بالفعل).

تختصمون : في يوم القيامة أمام الله تعالى ، يتخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم ، يقال : اختصم القوم ، أي : خاصم بعضهم بعضا .

التفسير :

٢٧، ٢٨ – وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

وصف الله القرآن الكريم في الآية الثالثة والعشرين من هذه السورة بخمس صفات ، وهنا ذكر الله تعالى أنه اختص هذا الكتاب بما يأتي:

ضرب فيه الأمثال : فبيّن أحوال الأمم السابقة ، وبيّن ما أصاب المكذبين من الهلاك ، وما أصاب المؤمنين من الفوز والتمكين فى الأرض ، كما ضرب الأمثال للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وللكلمة الخبيثة – وهى كلمة الكفر والفسوق – بالشجرة الخبيثة ، وضرب مثلا للذين آمنوا بامرأة فرعون ، وضرب مثلا للذين كفروا بامرأتى نوح ولوط .

وفى القرآن جانب من الأمثلة التى جمعت المعنى الكثير فى الألفاظ القليلة ، مثل : هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ . (الرحمن : ٦٠) . ومثل : إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) . ومثل : فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ... (البقرة : ٢٥٨) . ومثل : إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... (الإسراء : ٧) .

كما قارن القرآن بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، وقارن بين هدوء المؤمن واطمئنان قلبه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وحيرة الكافر وتشتته بين عدد من الأصنام والأوثان ، وسيأتى مزيد توضيح لذلك فى الآية التاسعة والعشرين من سورة الزمر .

كما شبه القرآن إنزال الماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، بإحياء الموتى عند البعث والنشور ، أى أن القرآن دخل على الناس من كل باب ، فقدم لهم عقيدة التوحيد ، وقدَّم الأدلة المتعددة على صحة هذه العقيدة ، وذكر قصص السابقين وأمثالهم ، وضرب المثل بظلم بعض القرى وكفرها وإهلاكها ، ونوع الأمثال فشبه الإيمان بالنور والبصر والظلّ والحياة ، وشبه الكفر بالظلام وبالعمى ، وبالحرور وبموت القلوب ، وكان ذلك تحريكا للعقل ، وتنبيها للفؤاد ، وتذكيرًا للغافلين .

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . أى : كى يتعظوا ويتنبهوا ويتذكروا الإيمان ، فيكون سبيلا إلى الفلاح فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة .

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

أنزلنا قرآنا ناطقًا باللغة العربية ، سليما من العوج والنقص ، غاية فى البلاغة والفصاحة ، سليما فى لَفْظه وفصاحته وبلاغته وجزالة ألفاظه ، سليما فى معانيه من الدعوة إلى توحيد الله وإقامة العبادات والمعاملات والآداب والأحكام ، فقد سلم مبناه ومعناه وليس فيه عوج ولا اضطراب ، ولا نقص أو خلل فى ألفاظه ، ولا عيوب فيما اشتمل عليه من معانٍ ، ليكون القرآن وسيلة إلى تقوى الله تعالى ، والخوف منه ، والتقوى غاية المنى من كل تشريع .

قال تعالى : وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ... (الطلاق : ٢، ٣)

٢٩ - ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ .

هذا أيضًا من أمثلة القرآن الموضحة التي يشبه فيها حالاً عجيبة بأخرى مثلها .

ومعنى الآيـة :

ضرب الله مثالا للمشرك والموحد ، فالمشرك صفته صفة عبد يملكه أشخاص متعددون متنازعون مختلفون ، يكلفونه بأعمال متعددة في وقت واحد ، وإذا طلب من أحدهم مالا أو طعاما أو كساء ، أو غير ذلك مما يحتاج إليه ، أحاله على المالك الآخر ، فيصاب بالإحباط والتشوش ، إذ لا يدرى من الذى يطيع ، وعلى من يعتمد من هؤلاء المالكين له ، هذا شأن المشرك بالله ، الذى يعبد أصنامًا شتّى لا تنفعه ولا تفيده ولا تدفع عنه ضرًا ، فهو فى حالة إحباط وتشوش ، كاسفا باله قليل الرجاء ، أما المثل الآخر فهو حالة رجل سلم لرجل ، أى عبدٍ لا يملكه إلا رجل واحد ، يكلفه بمطالبه فى نظام وترتيب ، ويتكفل المالك الواحد بما يحتاج إليه العبد من طعام وشراب وكساء وغير ذلك ، وهذا مثال للمؤمن الذى يعبد ربًا واحدًا ، يلجأ إليه فى البأساء ، ويشكره في النعماء ، ويؤمن به وحده ، ويعبده وحده لا شريك له ، ويتكفل الله تعالى به ويرعاه الله القوى القدير .

هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ .

هل يستوى من توزّع بين عدة ملاكٍ متشاكسين ، يقول له أحدهم : اذهب إلىّ مكان كذا ، فيقول الثاني : لا تذهب لأنى أريدك فى عمل كذا ، وبين عبد ملكيته سالمة وخالصة لشخص واحد ، أوامره مرتبة وهذا المالك متكفل برعاية عبده ، وسدّ حاجاته .

والجواب : لا يستويان .

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ . أى : الثناء الجميل والشكر العظيم له تعالى ، على أنه رب واحد ، وإله واحد ، لا إله غيره ولا رب سواه .

بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ .

بل أكثر المشركين لا يعلمون عدم تساوى الرجلين ، ولا يدركون هذا الفرق بينهما ، فيشركوا مع الله غيره .

٣٠ – إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ .

كان الكافرون يستطيلون عمر النبى ﷺ ، ويقولون : غدًا يموت فنستريح منه ، أو نشمت فيه ، فأكد القرآن هنا أن الموت لاحق بالنبى ﷺ ، ولاحق بالكفار المشركين ، فلا داعى لأن يشمت فانٍ فى فانٍ ، فالموت سيدرك محمدًا ، وسيدرك أعداء محمد .

٣١ – ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .

أى : تعاد الخصومة التى بينك وبينهم يوم القيامة أمام الله تعالى ، فتشهد يا محمد بأنك بلَّغت الرسالة ، وأدَّيت الأمانة ، وأنهم قد كذبوا بالحق ، وكفروا بالله ورسوله ، ويعتذرون بما لا طائل تحته .

وقد أورد ابن كثير وغيره من المفسرين ، طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، تفيد أن التخاصم يوم القيامة يكون بين المؤمن والكافر ، وبين الظالم والمظلوم ، وأن الله تعالى يعيد الخصومة التى كانت فى الدنيا بين المتخاصمين مرة أخرى لتحقيق العدالة الكاملة الحقة ، ومعاقبة الظالمين ، ومكافأة المؤمنين .

جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى :

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .

يعنى تخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم .

وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله ، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا من خواص الذنوب ؟ قال : «نعم ، ليكرَّرن عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذى حق حقه» . فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد .

وأخرج مسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون من المفلس»؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال ﷺ : «المفلس من أمَّتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار»[٩١] .

وفى البخارى ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٩٢][٩٣] .

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يجاء بالحاكم الجائر الخائن يوم القيامة ، فتخاصمه الرعية ، فيفلحون عليه ، فيقال له : سدّ ركنا من أركان جهنم»[٩٤] .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الثالث والعشرين ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثالث والعشرون)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

(١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٣/١٦٠ .

(٢) (إن) حرف نفي ، و(كلٌّ) مبتدأ ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، و(لما) بمعنى إلا ، و(جميع) خبر المبتدأ ، و(محضرون) خبر ثان .

(٣) إذا أقبل الليل من ها هنا :

رواه البخاري في الصيام (١٩٥٤) ومسلم في الصيام (١١٠٠) من حديث عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ« إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم».

(٤) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، المجلد الخامس ص ٢٩٦٨ .

(٥) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف بمصر ، ص ٦٥٥ (الهامش) .

(٦) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، المجلد الخامس ص ٢٩٦٩ .

(٧) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٣/١٦٤ .

(٨) د. محمد سيد طنطاوي ، تفسير سورة يس ، ص ٤٦ نقلاً عن : حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥١٨ .

(٩) (أكلته) بضمّ الهمزة اللقمة ، وبالفتح للمرة من الأكل ، وانظر تفسير الآلوسي وغيره .

(١٠) ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦) وفي الفتن (٧١٢١) ومسلم في الفتن (٢٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها».

(١١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ج ٤ ص ١٩٤٤ ، وانظر فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٩٠ ، ومفتاح السنة للدكتور عبد الله شحاتة ص ٤٣ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٦ م .

(١٢) (هم) مبتدأ ، (وأزواجهم) معطوف عليه ، و(متكئون) خبر المبتدأ .

(١٣) إن في الجنة شجرة يسير الراكب :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾».

(١٤) انظر تفسير ابن كثير، حيث قال ابن كثير : وفي إسناده نظر .

(١٥) تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة :

رواه البخارى فى، الجهاد (٢٨٨٧)، وفى الرقاق (٦٤٣٥)، وابن ماجة فى الزهد (٤١٥٣، ٤١٣٦) من حديث أبى هريرة.

(١٦) بعدا لكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك»؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول: يارب ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول: بلى قال: فيقول: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقى قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل».

(١٧) وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٦٥) من حديث مصعب قال: كان سعد يأمر بخمس ويذكرهن عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بهن: اللهم إنى أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا – يعنى فتنة الدجال – وأعوذ بك من عذاب القبر.

(١٨) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٣/١٦٩ .

(١٩) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف – مصر ، ص ٦٥٨ هامش .

(٢٠) أنا النبى لا كذب :

رواه البخارى فى المغازى (٤٣١٦) ومسلم فى الجهاد (١٧٧٦) من حديث أبى إسحاق قال: قيل للبراء وأنا أسمع: أوليتم مع النبى ﷺ يوم حنين فقال: أما النبى ﷺ فلا كانوا رماة فقال: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

(٢١) لولا أنت ما اهتدينا :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٣٧) ومسلم فى الجهاد (١٨٠٣) من حديث البراء رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول:

لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلنا
فأنزلن سكنة علنا ... وثبت الأقدام إن لاقنا
إن الألى قد بغوا علنا ... إذا أرادو فتنة أبنا

(٢٢) هل أنت إلا إصبع دميت :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٩) من حديث جندب بن سفيان أن رسول الله ﷺ كان فى بعض المشاهد وقد دميت إصبعه فقال:

هل أنت إلاإصبع دميت ... وفى سبيل الله ما لقيت

(٢٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٣/ ١٧٠ .

(٢٤) الجرير : الحبل الذى يربط به .

(٢٥) أى : فلا غيرة لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خسف .

(٢٦) فى بعض الروايات أنه العاص بن وائل ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل غير ذلك ، لكن الروايات متفقة على موضوع القصة ، وإن اختلفت فيمن خاصم الرسول ﷺ .

(٢٧) انظر تفاسير ابن كثير ، والنسفى ، وأبو السعود .

(٢٨) أى فى اعتقاد نسب بينه سبحانه وبين الجنة والملائكة ، فى قولهم : الملائكة بنات الله ، وهو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ والمراد بالجنة : الملائكة أو الجن .

(٢٩) وقرأ بعضهم بتنوين لفظ (زينة) ونصب لفظ (الكواكب) على أنه مفعول به لفعل محذوف ، أى : أعنى الكواكب ، ففيها ثلاث قراءات .

(٣٠) أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر:

رواه مسلم فى السلام (٢٢٠٢) وابن ماجة فى الطب (٣٥٢٢) من حديث عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ : «ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» .

(٣١) أعوذ بكلمات الله التامة:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، والترمذى فى الطب (٢٠٦٠)، وأبو داود فى السنة (٤٧٣٧)، وابن ماجة (٣٥٢٥)، وأحمد (٢١١٣، ٢٤٣٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

(٣٢) ومن طوارق الليل والنهار:

رواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٧٣) من حديث يحيى بن سعيد أنه قال: أسرى برسول الله ﷺ فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رسول الله ﷺ رآه فقال له جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال جبريل: فقل: أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ فى الأرض وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمان.

(٣٣) اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم:

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٨٤) بلفظ: «إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده»، ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك.

(٣٤) من سن في الإسلام سنة حسنة:

رواه مسلم في العلم (١٠١٧) وفي الزكاة (٢٥٥٤)، والدارمي في المقدمة (٥١٢، ٥١٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجة في المقدمة (٢٠٣)، وأحمد (١٨٦٧٥، ١٨٧٠١، ١٨٧١٨، ١٨٧٢٠) من حديث جرير بن عبدالله البجلي. ورواه أحمد (١٠١٧٨، ١٠٣٧٠) من حديث أبي هريرة. ورواه أحمد أيضاً (٢٢٧٧٨) من حديث حذيفة، ورواه ابن ماجة في المقدمة (٢٠٧) من حديث وهب بن عبد الله.

(٣٥) إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا:

رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٤، ٣٥٣٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

(٣٦) العلات: الضرائر، شبه الرُسل بأبناء الضرائر، أمهاتهم متعددة، وأبوهم واحد، وكذلك الرسل رسالاتهم متعددة، ودينهم واحد، يدعو إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، فالله سبحانه وتعالى أرسلهم جميعًا، وتميز كل رسول بهداية قومه، ودعوتهم إلى مكارم الأخلاق، ومحاربة الرذائل المتفشية بينهم.

(٣٧) الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣) وأحمد في مسنده (٩٠١٧) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

(٣٨) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق:

رواه أحمد في مسنده (٨٥٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٣٩) أخرجه ابن أبي حاتم، وروى بعضه الترمذي، وانظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٣/١٧٩.

(٤٠) تفسير الآلوسي ٢٣ / ٩٢، وهذه الأقوال يمكن مناقشتها، فالأمر في الآخرة لا يقاس بمقياس الدنيا، إن الحديث عن أصحاب الجنة، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فإذا اشتهى مؤمن من أهل الجنة أن يرى قرينه في أهل النار، فسيراه بقدرة الله وتيسيره.

وإذا كان من عِنْده علم من الكتاب قد استطاع إحضار عرش بلقيس في طرفة عين لنبي الله سليمان، واستطاع ذو القرنين بتيسير الله أن يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها، واستطاع الهدهد أن يستكشف مملكة سبأ، وأن يوصّل خطاب سليمان إلى بلقيس، وكل هذا في الدنيا بتيسير الله وتوفيقه، والأمر في الآخرة ميسور أيّ ميسور، ولا يحتاج إلى إجهاد الآلوسي نفسه لتلمّس معرفة كيفية اطلاع مؤمن في الجنة على كافر في النار، يكفي أنه قول الله، والله على كل شيء قدير.

(٤١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٣/ ١٨١.

(٤٢) أورده ابن كثير في تفسيره، عند تفسير الآية ٥٦ من سورة يس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ (يس: ٥٥، ٥٦).

(٤٣) أشد الناس بلاء الأنبياء:

بوّب به البخاري في كتاب المرضى، ورواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجة في الفتن (٤٠٢٣) ، وأحمد. (١٤٨٤، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠) ، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٣) ، من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤٤) قرأ غير واحد من السبعة ، (اللهُ ربُّكم) ، برفع لفظ الجلالة على أنه مبتدأ ، ورفع (ربُّكم) على أنه خبر .

(٤٥) اشتهرت بتسميتها (بحيرة لوط) وهي قريبة من شرق الأردن ، انظر مختصر تفسير ابن كثير : محمد الصابوني ٣/ ١٩٠ .

(٤٦) المقصود الاتعاظ بالهالكين مثل ثمود قوم صالح ، ومثل قوم لوط .

(٤٧) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخاري في الصلاة (٤١٥) وفي أحاديث الأنبياء (٣١٢، ٣١٣)، وفي المغازي (٤٠٧٦، ٤٠٨٦) ، وفي تفسير القرآن (٤٣٣٣) ، ومسلم في الزهد (٥٢٩٢، ٥٢٩٣) ، وأحمد (٤٣٣٣، ٤٩٧٤، ٥٠٩٠) . من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين...» الحديث.

(٤٨) ملعون من عمل بعمل قوم لوط:

رواه أحمد في مسنده (١٨٧٨) والترمذي تعليقا في الحدود (١٤٥٦) من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من غير تخوم الأرض، ملعون من كمه أعمى عن طريق، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط».

(٤٩) إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن:

رواه الترمذي في الرضاع (١١٦٤) والدارمي في الطهارة (١١٤١) من حديث علي بن طلق قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا أحدث أحدكم في الصلاة فلينصرف وليتوضأ ثم يصلي». وقال رسول الله ﷺ: «لاتأتوا النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحيي من الحق». وقال الترمذي: حديث علي بن طلق حديث حسن وسمعت محمدا يقول:لا أعرف لعلي بن طلق عن النبي ﷺ غير هذا الحديث الواحد ولا أعرف هذا الحديث من حديث طلق بن علي السحيمي وكأنه رأى أن هذا رجل آخر من أصحاب النبي ﷺ. وروى وكيع هذا الحديث. ورواه ابن ماجة في النكاح (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٣٥١) من حديث خزيمة بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيي من الحق – ثلاث مرات – لا تأتوا النساء في أدبارهن».

(٥٠) وفي بضع أحدكم صدقة:

رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبي ذر أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

(٥١) تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

قال العجلوني في كشف الخفاء: رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه، وكذا القضاعي عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ: كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى فقال: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله...» الحديث، وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» وفيه: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»، وأورده الضياء في المختارة وهو حسن، وله شاهد رواه عبد ابن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه بلفظ: «يا ابن عباس احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبراني وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال في المقاصد: وقد بسطت الكلام عليه في تخريج الأربعين.

(٥٢) فلم أزل أحب الدباء من يومئذ :

رواه البخاري في البيوع (٢٠٩٢) من حديث أنس بن مالك قال: إن خياطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه قال أنس بن مالك: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام فقرب إلى رسول الله ﷺ خبزا ومرقا فيه دباء وقديد، فرأيت النبي ﷺ يتتبع الدباء من حوالي القصعة قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ.

(٥٣) ألا تصفون كما تصف الملائكة :

رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠) وأحمد في مسنده (٢٠٤٥٦) من حديث جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس اسكنوا في الصلاة» قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقا فقال: «أراكم عزين» قال: ثم خرج علينا فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها»، فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف».

(٥٤) فضلنا على الناس بثلاث :

رواه مسلم في المساجد (٥٢٢) من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء». وذكر خصلة أخرى.

(٥٥) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني، وفيه طائفة أخرى من الأحاديث النبوية .

(٥٦) ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد :

يشهد لهذه اللفظة ما رواه أحمد في مسنده (٢١٠٠٥) والترمذي في الزهد (٢٣١٢) من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم على – أو إلى – الصعدات تجأرون إلى الله»، قال: فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد.

وأخرجه الضحاك في تفسيره، ورواه ابن عساكر بنحوه، وأصله في الصحاح، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ٣/١٩٣.

(٥٧) ما أكل أحد طعاماً قط خيرا من أن يأكل من عمل يده:

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٣) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤١٧) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «أن داود النبى عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده». ورواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٢) من حديث المقدام رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

(٥٨) إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة:

رواه أحمد فى مسنده (١٢٥٦٩) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل».

(٥٩) الله أكبر خربت خيبر:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٤٥) ومسلم فى الجهاد (١٣٦٥) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج إلى خيبر فجاءها ليلا وكان إذا جاء قوما بليل لا يغير عليهم حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبى ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين».

(٦٠) انظر كشاف الزمخشرى، وتفسير النيسابورى ٢٣/ ٧٢، ومختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٤، ١٩٥.

(٦١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ تحقيق الأستاذ محمد على النجار ج ١ ص ٤٠٠.

(٦٢) تفسير الآلوسى.

(٦٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٣/ ١٩٨.

(٦٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى.

(٦٥) يجوز فى قوله تعالى: ﴿ما لها من فواق﴾ أن تكون ما نافية و﴿لها﴾ يرفع فواق على الفاعلية لاعتمادها على النفى، أو أن تكون جملة من مبتدأ وخبر، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لـ ﴿لصيحة﴾، و﴿من﴾ مزيدة.

(٦٦) أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٣١) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما».

(٦٧) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى:

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجة (٤٢٧٥) وأحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧)، وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر.

(٦٨) الخيل في نواصيها الخير :

رواه البخاري في الجهاد (٢٦٣٨، ٢٦٤٠) ، وفي فرض الخمس (٢٨٨٧) ، وفي المناقب (٣٣٧٢) ، ومسلم في الزكاة (١٦٤٨) ، وفي الإمارة (٣٤٧٩ ، ٣٤٨٠) وأبو داود في الجهاد (٢٥٣٢) والترمذي في فضائل الجهاد (١٥٦٠) والنسائي في الخيل (٣٥٠٥ ، ٣٥٠٦) وابن ماجة في الجهاد (٢٧٧٨) ، وأحمد (٤٨٥٦ ، ٤٩٥٣، ٥٥٠٨)، والدارمي في الجهاد (٢٣١٩ ، ٢٣٢٠) ، من حديث عروة البارقي ، وأنس ، وأبي هريرة ، وابن عمر، وجرير. بلفظ : "الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"

(٦٩) انظر تفسير القاسمي .

(٧٠) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ، وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، والتفسير الوسيط للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ، وتفاسير : القرطبي ، والطبري ، والآلوسي .

(٧١) لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل منهن تأتي بفارس :

كلا اللفظين رواهما البخاري في أحاديث الأنبياء (٣١٧١) ، وفي الأيمان (٦١٤٨) ، وفي كفارات الأيمان (٦٢٢٥)، وفي التوحيد (٦٩١٥) ، ومسلم في الأيمان (٣١٢٤ ، ٣١٢٦) ، والترمذي في النذور (١٤٥٢) ، والنسائي في الأيمان (٣٧٧١ ، ٣٧٩٦) ، من حديث أبي هريرة .

(٧٢) انظر تفسير المراغي جزء ٢٣ ص ١٢٤ حيث يقول : (إن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجحة في تلك الأمراض) .

(٧٣) أنا ابن الذبيحَيْن :

قال العجلوني في "كشف الخفاء" (٦٠٦) : كذا في الكشاف، قال الزيلعي وابن حجر في تخريج أحاديثه: لم نجده بهذا اللفظ، وقال في المقاصد: حديث ابن الذبيحين رواه الحاكم في المناقب من مستدركه من حديث عبيد الله بن محمد العتبي قال حدثنا عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابنَيْ إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل، وقال بعضهم: بل إسحاق، فقال معاوية: سقطتم على الخبير، كنا عند رسول الله ﷺ فقال أعرابي يشكو جدب أرضه: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة، والماء يابسا، هلك المال وضاع العيال، فعد على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فتبسم رسول الله ﷺ، ولم ينكر عليه، فقلنا لمعاوية: من الذبيحان يا أمير المؤمنين فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل له أمرها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم وأسهم بينهم ، فخرج السهم لعبد الله، فأراد نحره فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا له: أرْضِ ربَّك، وافدِ ابنك، ففداه بمائة ناقة فهو الذبيح ، وإسماعيل الثاني. انتهى مع زيادة

وقال في المواهب وشرحها الزرقاني: وعند الحاكم في المستدرك وابن جرير وابن مردويه والثعلبي في تفاسيرهم عن معاوية بن أبي سفيان قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي ، فقال: يا رسول الله خَلَّفتُ البلاد يابسة، والماء يابسا، وفي نسخة الكلأ يابسا، وخلفت المال عابسا، هلك المال وضاع العيال، فعد عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه. والحديث حسن بل صححه الحاكم والذهبي لتقوّيه بتعدد طرقه. انتهى، وأقول: فحينئذ لا ينافيه ما نقله الحلبي في سيرته عن السيوطي أن هذا الحديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف. انتهى، وفيه دليل على أن الذبيح إسماعيل، وهو الصحيح، وفي الهدى لابن القيم : إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم ، أما القول بأنه إسحاق فمردود بأكثر من عشرين وجها ونقل عن الإمام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل في كتابهم ، فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكْرَه، وفي لفظ وحيده، وقد حرفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم "اذبح ابنك إسحاق".

ولبعضهم وقد أجاد :

إن الذبيح ، هُديتَ، إسـمـاعيل	نطق الكتـاب بذاك والتنزيل
شـرفٌ به خَص الإلهُ نبينَّا	وأبانه التفسير والتأويل

(٧٤) وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته». قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد.

(٧٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٣/٢٠٩ .

(٧٦) فى ظلال القرآن ٢٤/ ٨ .

(٧٧) من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٨٥) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٢) وأحمد فى مسنده (٩٣٣٦) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه» .

(٧٨) يشتمنى ابن آدم :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٣) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٧٨) وأحمد (٨٨٧٠) .

(٧٩) لو أن أولكم وآخركم :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وأحمد (٥/١٦٠) ، عن أبى ذر رضى الله عنه. وأوله عند مسلم وأحمد : «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى» . وعند الترمذى: «يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته» . وقال: حديث حسن.

(٨٠) لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن :

رواه الترمذى فى الجنائز (٩٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٦١) من حديث أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت فقال: «كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إنى أرجو الله وإنى أخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب

(٨١) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/١٩٢ .

(٨٢) وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه :

تقدم تخريجه، انظر هامش (٧٤).

(٨٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، مجلد ٩ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان.

(٨٤) إن في الجنة غرفا ترى ظهورها :

رواه الترمذي في البر (١٩٨٤) وفي الجنة (٢٥٢٦) وأحمد في مسنده (١٣٤٠) من حديث علي قال: قال النبي ﷺ: «إن في الجنة غرفًا ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام» . قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٨٥) إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» قلنا: يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال:« الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت . قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن مسعود.

(٨٦) اطلبوا الحوائج :

قال السيوطي في الجامع الصغير (١١٠٦): اطلبوا الحوائج إلى ذوي الرحمة من أمتي ترزقوا وتنجحوا؛ فإن الله تعالى يقول: "رحمتي في ذوي الرحمة من عبادي. "ولا تطلبوا الحوائج عند القاسية قلوبهم فلا ترزقوا ولا تنجحوا، فإن الله تعالى يقول: "إن سخطي فيهم". ونسبه للعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد. وقال: ضعيف . قال المناوي في الفيض: وقد ذكر السخاوي الحديث من عدة طرق عن نحو عشرة من الصحب. ثم قال: طرقه كلها ضعيفة لكن المتن غير موضوع. انتهى. وسبقه لنحوه ابن حجر فقال: طرقه كلها ضعيفة وبعضها أشد ضعفًا من بعض.

(٨٧) اغتنموا الدعاء :

قال المناوي في الفيض: (اغتنموا الدعاء) أي اجتهدوا في تحصيله وفوزوا به فإنه غنيمة (عند الرقة) بكسر الراء وشدة القاف أي عند لين القلب وخشوعه وقشعريرة البدن بمشاهدة عظمة الله أو خوفًا من عذابه أو حبًا من كرمه أو غير ذلك مما يحدث الرقة وهو ضد القسوة التي هي علامة البعد عن الرّب ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾ (فإنها رحمة) أي فإن تلك الحالة ساعة رحمة فإذا دعا العبد فيها كان أرجى للإجابة والدعاء عند الرقة يصدر عن القلب حالة رغبة ورهبة فتسرع الإجابة قال تعالى ﴿يدعوننا رغبًا ورهبًا﴾ أي عن قلب راغب راهب خاشع ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾. (وفر) وكذا القضاعي (عن أبي) بن كعب وفيه عمر بن أحمد أبو حفص بن شاهين قال الذهبي: قال الدارقطني: يخطئ وهو ثقة. وشبابة بن سوار قال في الكاشف: مرجئ صدوق. وقال أبو حاتم: لا يحتج به.

(٨٨) إذا اقشعر قلب المؤمن :

قال العراقي في تخريج الإحياء: حديث "إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها" أخرجه الطبراني والبيهقي، من حديث العباس بسند ضعيف.

(٨٩) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني المجلد الثالث ص ٢١٨.

(٩٠) التفسير الكبير للفخر الرازي ، مجلد ٩ ص ٤٩٩، مطبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .

(٩١) أتدرون ما المفلس :

رواه مسلم فى البر (٢٥٨١) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤١٨) وأحمد فى مسنده (٧٩٦٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» .

(٩٢) من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

(٩٣) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) مجلد ٦ ص ٥٨٦٧ ، مطبعة دار الغد العربى ، العباسية - القاهرة .

(٩٤) يجاء بالحاكم الجائر :

ذكره الهندى فى كنز العمال (١٤٧٧١) بلفظ: يؤتى بالحكام يوم القيامة بمن قصر وبمن تعدى، فيقول : أنتم خزان أرضى ورعاء عبيدى وفيكم بغيتى، فيقول للذى قصر: ما حملك على ما صنعت؟ فيقول: رحمته، فيقول الله: أنت أرحم بعبادى منى، ويقول للذى تعدى: ما حملك على الذى صنعت؟ فيقول: غضبا منى، فيقول: انطلقوا بهم فسدوا بهم ركنا من أركان جهنم. وقال: رواه أبو سعيد النقاش فى كتاب القضاة من طريق ابن عبد الرحيم المروزى عن بقية ثنا سلمة بن كلثوم عن أنس، وعنده قال أبو داود: لا أحدث عنه، وسلمة شامى ثقة وبقية روايته عن الشاميين مقبولة، وقد صرح فى هذا الحديث بالتحديث.



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء (الثالث والعشرون)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٥	﴿إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون .﴾	٤٥٢٥
٥٦	﴿هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون .﴾	٤٥٢٥
٥٧	﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون .﴾	٤٥٢٥
٥٨	﴿سلام قولاً من رب رحيم .﴾	٤٥٢٥
٥٩	﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون .﴾	٤٥٢٥
٦٠	﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ...﴾	٤٥٢٨
٦١	﴿وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم .﴾	٤٥٢٨
٦٢	﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيرًا ...﴾	٤٥٢٨
٦٣	﴿هذه جهنم التى كنتم توعدون .﴾	٤٥٣١
٦٤	﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون .﴾	٤٥٣١
٦٥	﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ...﴾	٤٥٣١
٦٦	﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ...﴾	٤٥٣١
٦٧	﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ...﴾	٤٥٣١
٦٨	﴿ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون .﴾	٤٥٣١
٦٩	﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له ...﴾	٤٥٣٦
٧٠	﴿لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين .﴾	٤٥٣٦
٧١	﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا ...﴾	٤٥٤٠
٧٢	﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون .﴾	٤٥٤٠
٧٣	﴿ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون .﴾	٤٥٤٠
٧٤	﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون .﴾	٤٥٤٣
٧٥	﴿لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون .﴾	٤٥٤٣
٧٦	﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون .﴾	٤٥٤٣
٧٧	﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ...﴾	٤٥٤٤
٧٨	﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ...﴾	٤٥٤٤
٧٩	﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ...﴾	٤٥٤٤
٨٠	﴿الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا ...﴾	٤٥٤٤
٨١	﴿أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر ...﴾	٤٥٤٤
٨٢	﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون .﴾	٤٥٤٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٣	﴿أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمدينون .﴾	٤٥٧٩
٥٤	﴿قال هل أنتم مطلعون .﴾	٤٥٧٩
٥٥	﴿فاطلع فرآه فى سواء الجحيم .﴾	٤٥٧٩
٥٦	﴿قال تالله إن كدت لتردين .﴾	٤٥٧٩
٥٧	﴿ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين .﴾	٤٥٧٩
٥٨	﴿أفما نحن بميتين .﴾	٤٥٧٩
٥٩	﴿إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين .﴾	٤٥٧٩
٦٠	﴿إن هذا لهو الفوز العظيم .﴾	٤٥٧٩
٦١	﴿لمثل هذا فليعمل العاملون .﴾	٤٥٧٩
٦٢	﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم .﴾	٤٥٨٤
٦٣	﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين .﴾	٤٥٨٤
٦٤	﴿إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم .﴾	٤٥٨٤
٦٥	﴿طلعها كأنه رءوس الشياطين .﴾	٤٥٨٤
٦٦	﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون .﴾	٤٥٨٤
٦٧	﴿ثم إن لهم عليها لشوبًا من حميم .﴾	٤٥٨٤
٦٨	﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم .﴾	٤٥٨٤
٦٩	﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين .﴾	٤٥٨٤
٧٠	﴿فهم على آثارهم يهرعون .﴾	٤٥٨٤
٧١	﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين .﴾	٤٥٨٤
٧٢	﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين .﴾	٤٥٨٤
٧٣	﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين .﴾	٤٥٨٤
٧٤	﴿إلا عباد الله المخلصين .﴾	٤٥٨٤
٧٥	﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون .﴾	٤٥٨٩
٧٦	﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم .﴾	٤٥٨٩
٧٧	﴿وجعلنا ذريته هم الباقين .﴾	٤٥٨٩
٧٨	﴿وتركنا عليه فى الآخرين .﴾	٤٥٨٩
٧٩	﴿سلام على نوح فى العالمين .﴾	٤٥٨٩
٨٠	﴿إنا كذلك نجزى المحسنين .﴾	٤٥٨٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٣٧	﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين .﴾	٤٦٠٩
١٣٨	﴿وبالليل أفلا تعقلون .﴾	٤٦٠٩
١٣٩	﴿وإن يونس لمن المرسلين .﴾	٤٦١٢
١٤٠	﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون .﴾	٤٦١٢
١٤١	﴿فساهم فكان من المدحضين .﴾	٤٦١٢
١٤٢	﴿فالتقمه الحوت وهو مليم .﴾	٤٦١٢
١٤٣	﴿فلولا أنه كان من المسبحين .﴾	٤٦١٢
١٤٤	﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون .﴾	٤٦١٢
١٤٥	﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم .﴾	٤٦١٢
١٤٦	﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين .﴾	٤٦١٢
١٤٧	﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون .﴾	٤٦١٢
١٤٨	﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين .﴾	٤٦١٢
١٤٩	﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون .﴾	٤٦١٦
١٥٠	﴿أم خلقنا الملائكة إناثًا وهم شاهدون .﴾	٤٦١٦
١٥١	﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون .﴾	٤٦١٦
١٥٢	﴿ولد الله وإنهم لكاذبون .﴾	٤٦١٦
١٥٣	﴿أصطفى البنات على البنين .﴾	٤٦١٦
١٥٤	﴿ما لكم كيف تحكمون .﴾	٤٦١٦
١٥٥	﴿أفلا تذكرون .﴾	٤٦١٦
١٥٦	﴿أم لكم سلطان مبين .﴾	٤٦١٦
١٥٧	﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين .﴾	٤٦١٦
١٥٨	﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبًا ...﴾	٤٦١٦
١٥٩	﴿سبحان الله عما يصفون .﴾	٤٦١٦
١٦٠	﴿إلا عباد الله المخلصين .﴾	٤٦٢١
١٦١	﴿فإنكم وما تعبدون .﴾	٤٦٢١
١٦٢	﴿ما أنتم عليه بفاتنين .﴾	٤٦٢١
١٦٣	﴿إلا من هو صال الجحيم .﴾	٤٦٢١
١٦٤	﴿وما منا إلا له مقام معلوم .﴾	٤٦٢١

تم بحمد الله الجزء (الثالث والعشرون)

ويليه الجزء (الرابع والعشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



وعيد المكذبين ووعد الصادقين



﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

كذب على الله : بنسبة الشريك والولد إليه .

وكذّب بالصدق : وهو القرآن الذى جاء به محمد ﷺ .

مثوى : مقامًا ومأوى ، من ثوى بالمقام يثوى به ، إذا أقام به .

والذى جاء بالصدق : هو الرسول محمد ﷺ .

وصدّق به : هم أتباعه المؤمنون ، كأبى بكر وكل أصحاب رسول الله ﷺ .

المتقون : المراقبون لله ، المبْعَدُون عن الشرك .

جزاء المحسنين : على إحسانهم .

أسوأ الذى عملوا : أسوأ وأحسن بمعنى السيئ والحسن ، أو أسوأ ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام .

بأحسن الذى كانوا يعملون : أى : يجزيهم على الطاعات بأحسن جزاء ، ويزيدهم فى الثواب لفرط إخلاصهم .

بكافٍ عبده : بحافظ ومانع رسوله مما يخوّفونه به .

تمهيد :

ذكر الله تعالى فيما سبق بعض هنات المشركين وهنا ذكر نوعًا آخر منها ، وهو أنهم يكذبون على الله فيثبتون لله ولدًا ، ويثبتون له شركاء ، ثم أتبع ذلك بوعد الصادق المصدوق ، ووعد أتباعه المصدّقين المؤمنين بتكفير السيئات ، ويمنحهم أفضل الثواب ، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد .

التفسير :

٣٢ - فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ .

أى : لا أحد يبلغ فى ظلمه مبلغ من افترى على الله الكذب ، بأن نسب له شريكًا ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله ، أو ادّعى أن لله ولدًا أو صاحبة ، ثم كذب بالوحى والقرآن ورسالة محمد فور مجىء ذلك إليه ، فلم يتأمّل ولم يتدبر .

أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ .

أليس فى جهنم الواسعة مكان ومستقر لهؤلاء المكذبين بالوحى والرسالة ؟

٣٣ - وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ .

والذى جاء بالصدق - وهو محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين - والذين صدّقوه - مثل أبى بكر الصدّيق ، وسائر أصحاب النبى ﷺ - هم الذين اتقوا الله فوحّدوه وبرئوا من الأوثان والأصنام .

٣٤ - لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ .

لهؤلاء المؤمنين الصادقين المصدّقين المتقين ما يشاءون من ألوان النعيم فى الجنة ، ومن التكريم عند الله العلى القدير ، ففى الجنة ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن هؤلاء المتقين قد أحسنوا العمل فاستحقوا أحسن الثواب .

ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ .

أى : ذلك الذى ذُكر من حصولهم على ما يشاءون فى الدنيا والآخرة ، جزاء للمحسنين الذين أخلصوا إيمانهم وأحسنوا أعمالهم .

٣٥ - لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ .

لقد صاروا فى جوار الله تعالى ، وكرمه وفضله ، وحسن مثوبته ورعايته ، فأعطاهم فى الجنة ما يشاءون من رفيع المنزلة ، وأحسن المنازل فى الجنة جزاء إحسانهم ، وقد فعل الله بهم ذلك ليكفِّر عنهم أسوأ الذى عملوا من الكفر والشرك قبل الإسلام ، أو المعاصى بعد الإسلام التى تابوا منها ، وليجزيهم أحسن الجزاء ، حيث يرفع درجة الحسن من أعمالهم إلى درجة أحسنها ، ويثيبهم على الحسن ثواب الأحسن ، فهم فى زيادة القرب ، وفى زيادة الثواب والفضل من الله تعالى .

٣٦ - أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ .

سبب النزول :

كان المشركون يخوفون رسول الله ﷺ من إيذاء الأصنام التى يعبدونها له ﷺ ، وقالوا له : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو لتصيبنك بسوء .

وقال قتادة :

مشى خالد بن الوليد إلى العزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادتها : نحذِّركها يا خالد ، فإن لها شدّة لا يقوم لها شىء ، فعمد خالد إلى العزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس ، وقد أنزل الله هذه الآية تأكيدًا لفضل الله ، وعظيم رعايته لرسوله وللمؤمنين ، وأن الأصنام لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ، فهو سبحانه النافع الضار .

أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ...

استفهام للتقرير والإثبات ، فقد دخلت همزة الاستفهام على النفى لإفادة التقرير ، والجواب : بلى الله تعالى حافظ عبده .

والمعنى :

الله تعالى يحفظ رسوله ويكفيه كل سوء ، ويمنع عنه كل أذى وكل ضرّ .

وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ...

ويخوفك المشركون من الأصنام والأوثان ، حتى تكفّ عن عيبها وذمّها ، مع أنها عاجزة لا تنفع ولا تضرّ .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ .

من أضله الله تعالى وسلب عنه التوفيق والهدى ، يتركه محبًا للفسوق والكفر ، غارقًا فى بحار الضلال ، لا يجد هاديًا يهديه .

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . (البقرة : ١٣٧) .

وقوله سبحانه حكاية عن إبراهيم : وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . (الأنعام : ٨١) .

٣٧ – وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ .

من يوفقه الله تعالى ويشرح صدره للإسلام، ويرشده إلى الحق ونور الإيمان ، فلن يستطيع كفار مكة إضلاله وتخويفه وإرهابه .

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ .

أى : أليس الله بغالب لا يُغالَب ، منيع لا يُمانَع ولا يُنازَع ، ذى انتقام وعقوبة بالغة لمن يتمرد على أمره أو نهيه .

والآية عامة تشمل كل مؤمن هداه الله إلى الإسلام والإيمان ، فلن تستطيع أىّ قوة فى الأرض أن تخرجه عن الحق ، وفى الآية تسلية للرسول الأمين ، وتثبيت للمؤمنين ، وتهديد للكافرين ، ووعيد لمشركى مكة بشدة انتقام الله .

★ ★ ★

دلائل الألوهية ، وضعف الأصنام وعدم نفعها

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾

المفردات :

كاشفات ضره : دافعات ضرِّه ورافعاته .

ممسكات رحمته : مانعات رحمته وحابسات لها .

حسبي الله : كافيني في جميع أموري .

مكانتكم : حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها .

يخزيه : يذله ويُهينه .

مقيم : دائم لا ينقطع .

سبب النزول :

روى عن مقاتل أن النبي ﷺ سأل المشركين قائلاً : «من خلق السماوات والأرض» ؟ فسكتوا ؛ فنزل ذلك.

وقال غيره : قال المشركون : لا تدفع الأصنام شيئًا قدَّره الله ، ولكنها تشفع ؛ فنزلت .

وتفيد الآيات ما يأتي :

١ – أن هؤلاء المشركين مقرّون بوجود الإله الخالق القادر العالم .

٢ – أن هذه الأصنام لا قدرة لها على جلب خير أو دفع شر.

التفسير :

٣٨ - وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ .

لم يدّع أحد أنه خلق السماء أو الأرض أو الجبال أو البحار، أو الأنهار أو الأشجار أو الليل أو النهار، وكان الكفار يعتقدون أن الله تعالى هو الذى خلق هذا الكون، ومع ذلك يعبدون الأصنام حتى تشفع لهم عند الله، وكانوا يخوّفون النبى ﷺ ويحذرونه من إصابته بالأذى والضرّ بسبب ذم الأصنام، وتأكيد عدم غنائها وعدم نفعها أو ضرّها .

والمعنى :

ولئن سألت هؤلاء المشركين المعاندين : من خلق السماوات وَرَفَعها، وزيّنها بالنجوم والقمر والشموس ؟ ومن بسط الأرض، وأجرى بها الأنهار والبحار ؟ ومن أرسى الجبال وأظلم الليل وأضاء النهار؟ ليقولنّ : الذى خلق ذلك الله العزيز العليم، وهنا يأمر الله نبيه أن يجيبهم قائلاً : أرأيتم هذه الأصنام والأوثان، مثل اللات والعزّى ومناة التى تعبدونها وهى لم تخلق شيئًا، ولا تملك قدرة ولا نفعًا ولا ضرًا، إن أرادنى الله بضرٍّ أو شر، هل تستطيع الأصنام أن تكشف عنّى الضرّ الذى أراده الله لى، أو أرادنى برحمة ونعمة، هل تستطيع أن تمنعها منّى، أو تحبسها عنى ؟

فلما سكتوا، أو قال بعضهم : نعبدها رجاء شفاعتها لنا عند الله، أنزل الله تعالى قوله : قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ... أى : أعبده وأتوكل عليه، وهو حسبى وكافينى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر .

عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ .

على الله وحده يعتمد المؤمنون، ويثق المتقون، ويتوكل المتوكلون فى كل أمورهم، ويعتمدون على حوله وقوته فى جميع شئونهم، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى .

٣٩ - قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها فى مقام التهديد والوعيد، أى : اعملوا على طريقتكم التى تمكّنت من نفوسكم، وهى عداوة الإسلام والقرآن ورسالة محمد ﷺ، أى استمروا على كفركم، وتمكّن العداوة للإسلام فى قلوبكم، فإنى مستمر فى الدعوة إلى الإسلام والإيمان، والنتيجة ستظهر فيما بعد، وسيظهر المحق من المبطل .

٤٠ - مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ .

سوف ترون بأعينكم من الذى سيصيبه عذاب الدنيا ، بالقتل يوم بدر ، والهزيمة المخزية المذلة ، ومن منّا سيناله عذاب جهنم يوم القيامة ، حيث الخلود الدائم ، والعذاب المقيم الذى لا آخر له ، ولا استراحة منه .

★ ★ ★

الوفاة والنوم

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

بالحق : متلبسا بالصدق .

بوكيل : مسلّط عليهم لتجبرهم على الهداية .

الله يتوفى الأنفس : يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها ، وهى الوفاة الكبرى .

والتى لم تمت فى منامها : ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، وهى الوفاة الصغرى .

فيمسك التى قضى عليها الموت : يحفظها ولا يردُّها إلى البدن .

ويرسل الأخرى : يردّ النفس النائمة إلى البدن عند اليقظة .

أجل مسمى : وقت سمّاه الله ينتهى به عمرها .

لآيات : لعظات بالغات .

التفسير :

٤١ - إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ .

الآية فيها لمسة الحنان والفضل من الله على نبيه ، أى : لقد أنزلنا عليك القرآن الكريم ، متلبسا بالحق والصدق ، مشتملاً على ألوان البلاغة والبيان ، والتشريع والآداب ، وعرض مشاهد القيامة وخلق الكون ومشاهد الوجود ، وتصريف القول فى الدعوة إلى الإيمان ، فمن اهتدى إلى الإيمان بالله ورسوله فنفع ذلك يعود عليه ، ومن ضلّ وعَزَف عن الإيمان فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه .

وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ .

لست مسلطًا عليهم حتى تجبرهم على الهداية والإيمان ، والمراد : طب نفسًا أيها النبى ، ولا تبخع نفسك حرضًا على عدم إيمانهم .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

وفى هذا تسلية للنبى ﷺ ، والمعنى : ليس هداهم بيدك ، حتى تقهرهم وتجبرهم عليه ، وإنما هو بيدنا فإن شئنا هديناهم ، وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال .

٤٢ - ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

يقبض الله أرواح الموتى بواسطة ملك الموت ومن يساعده من الملائكة .

قال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

والله تعالى يتوفى أنفس النائمين عند النوم ، فتجتمع أرواح النائمين وأرواح الميتين .

عن على رضى الله عنه قال : تخرج الروح عند النوم ، ويبقى شعاعها فى الجسد ، فبذلك يرى الرؤيا ، فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى جسده بأسرع من لحظة .

وعن سعيد بن جبير : إن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقى فى المنام ، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجسادها ، إلى انقضاء مدة حياتها[١] .

قال القرطبي :

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يحيي ويميت ويفعل ما يشاء ، لا يقدر على ذلك سواه . ا هـ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

فيما ذكر لدلائل واضحة لقوم يُعمِلون عقولهم ، ويتفكرون ويتأملون ، في أنه تعالى هو المتصرف في الوجود كما يشاء ، وأنه سبحانه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الملائكة الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الأنعام : ٦٠) .

أخرج البخاري، ومسلم، من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره – طرفه الذي يلي الجسد ويلي الجانب الأيمن – فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل: باسمك ربّي وضعت جنبي وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها،وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[٢] .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي : «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء ، وردّها عليكم حين شاء»[٣] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء ولم يخطر على باله ، فتكون رؤياه كأخذٍ باليد ، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئًا ، فقال علي رضي الله عنه : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... فالله يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهي عنده سبحانه في السماء فهي الرؤيا الصادقة ،وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة ، لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذّبتها ، وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها ، فعجب عمر من قوله رضي الله عنهما .

ونلاحظ أنه لا منافاة بين هذه الآية التي صرحت بأن الله تعالى هو الذي يتوفى الأنفس عند موتها . وبين قوله تعالى : قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . (السجدة : ١١) .

وقوله تعالى: حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

لأن المتوفِّى فى الحقيقة هو الله تعالى ، وملك الموت إنما يقبض الأرواح بإذنه سبحانه ، ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الأرواح بأمره المستمد من أمر الله عز وجل .

قال القرطبي في تفسيره :

وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته سبحانه وتعالى وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيى ويميت ، ولا يقدر على ذلك أحد سواه .

ويقول أيضًا :

فإذًا يقبض الله الروح فى حالين ، فى حال النوم وحال الموت ، فما قبضه فى حال النوم ، فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض ... ، وما يقبضه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة .

٤٣ - أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ .

بل اتخذ المشركون من الأصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله ، آملين أن تشفع لهم هذه الأصنام عند الله ، ثم يبكِّتهم القرآن ويلفت أنظارهم إلى أنها جمادات لا تنفع ولا تضرّ ، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا أو ضرًا ، وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به .

٤٤ - قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

لله وحده سبحانه الشفاعة جميعًا بكل صورها وكافة أغراضها ، قال تعالى : مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... (البقرة : ٢٥٥) .

ولله ملك السماوات والأرض ، وملك ما بث فيهما من دابة ، ومن حق المالك ألا يتكلم أحد فى أمر من أمور ملكه إلا بإذنه ، فهو سبحانه المتصرف فى الملك والملكوت .

قال البيضاوى :

أى : هو تعالى مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم فى أمره دون إذنه ورضاه .

★ ★ ★

أمارات الشرك

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المفردات :

إذا ذكر الله وحده : دون ذكر الأصنام .

اشمأزت : انقبضت ونفرت .

من دونه : من دون الله .

يستبشرون : يفرحون ويسرُّون .

فاطر السماوات : خالق ومبدع السماوات على غير مثال سابق .

عالم الغيب والشهادة : عالم السرِّ والعلن .

لافتدوا به : لقدَّموه فداء لهم من العذاب .

وبدا : ظهر .

يحتسبون : يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

التفسير :

٤٥ - وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

إن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وإخلاص التوجه إليه هدف أساسى من أهداف الإسلام ، لكن هؤلاء المشركين إذا ذكر الله وحده ، خالصًا فردًا صمدًا متفردًا بالقدرة والإرادة فى هذا الكون ، يغتاظ

المشركون أشد الغيظ ، ويغضبون لعدم ذكر آلهتهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ، مثل اللات والعزّى ومناة، استبشروا وفرحوا ، وظهر أثر ذلك الفرح على بشرة وجوههم .

قال الزمخشرى :

ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز ، إذْ كل منهما غاية فى بابه ، لأن الاستبشار هو أن يمتلئ قلبه سرورًا ، حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز هو أن يمتلئ غمًّا وغيظًا ، حتى يظهر الانقباض فى أديم وجهه . ا هـ .

وقال ابن عباس :

اشمأزت : قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم : أبو جهل بن هشام ، والوليد بن عتبة ، وصفوان ، وأُبىّ بن خلف .

٤٦ - قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

تأتى هذه الآية وعيدًا للمشركين وتهديدًا لهم ، بفصل القضاء بينهم وبين الرسول الأمين يوم القيامة، وفيها تعليم للرسول ﷺ ولأمته بالالتجاء إلى الله تعالى فى الشدة .

والمعنى :

ادع الله تعالى وقل : يا الله يا خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق ، لقد بدأت الخلق فرفعت السماء ، وبسطت الأرض ، وسخرت الهواء والرياح والأمطار ، والليل والنهار ، وأنت العليم الذى أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة ، وأنت العالم بالخفايا ، وبالسر والعلن ، فقد أحاط علمك بما غاب فى الأرض والسماء، وبما ظهر وشوهد فى هذا الكون ، وأنت المحيط بكل شىء ، وأنت أيضًا الحكم العدل الذى يحكم بين الكافرين والمؤمنين ، وبين الرسل وأقوامهم ، وبين دعاة الإيمان ودعاة الكفر؛ فتحق الحق وتبطل الباطل .

وكان ﷺ إذا قام من الليل قرأ هذه الآية ، وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه : قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

وأخرج مسلم، وأبو داود، وغيرهما، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»[4] .

وأخرج الإمام أحمد ، والترمذى ، عن مجاهد قال : قال أبو بكر الصدّيق : أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعى من الليل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، ربّ كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شرّ نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءًا أو أجرّه إلى مسلم[٥] .

٤٧ – وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ .

لو أن الكافرين الذين ظلموا رسول الله ﷺ ، وظلموا أنفسهم بالكفر ، كانوا يملكون جميع ما فى الأرض من خيرات ونعم ، ويملكون مثله معه ، لافتدوا به أنفسهم من سوء العذاب ، وهوله وشدته يوم القيامة، حيث يظهر لهم من أهوال القيامة ، وألوان العذاب ، وغضب الجبار عليهم ، ما لم يكن يخطر لهم على بال ، وفى الآية تفخيم لألوان العذاب والنكال الذى ينزل بالكافرين ، يقابله أن المتقين يجدون فى الجنة ما لم يكن يخطر لهم على بال من ألوان النعيم .

قال تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

وقال ﷺ : «إن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[٦] .

وخلاصة معنى الآية :

ترقبوا أيها الظالمون هولاً وعذابًا لم يخطر لكم على بال ، وقد تكرر معنى الآية فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٦ ، ٣٧) .

٤٨ – وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

وظهر لهم فى صحائف أعمالهم عقوبة كفرهم وعنادهم ، وآثار تلك السيئات التى اكتسبوها فى لدنيا ، وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون بوقوعه فى الدنيا ، أو أيقنوا أنهم هالكون لا محالة لاستهزائهم بما كان ينذرهم به الرسول ﷺ ، حيث كان يذكّرهم بالبعث والجزاء والعذاب والحساب ، فلا يتعظون ولا يصدّقون .

★ ★ ★

دعاء الإنسان ربه فى الشدائد ، وجحوده عند النعمة

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

المفردات :

مس : أصاب وتمكن .

خولناه : أعطيناه وملكناه تفضلاً .

على علم : على معرفة بوجوه الكسب ، أو على استحقاق وجدارة بما عندى من العلم .

فتنة : محنة وابتلاء .

بمعجزين : بغائبين من العذاب ناجين .

تمهيد :

تستمر الآيات فى بيان رذائل المشركين ، فهم عند الشدة والمحنة يخلصون الدعاء لله ، ليقينهم أن الأصنام لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، وإذا أعطاهم الله النعمة ادعوا أنهم يستحقون هذه النعمة بما لهم من علم ومعرفة بكَسْب المال والجاه والسلطان ، والحقيقة أن هذه النعم امتحان واختبار من الله ، والدليل على ذلك أن من سبقهم من الظالمين قال مثل هذه المقالة ، مثل قارون وأشباهه : فخسف الله بقارون الأرض، وأنزل العذاب بكثير من الظالمين ، وسيلحق هذا العذاب مشركى مكة ، ولن يفلتوا أبدًا من عذاب الله تعالى ، ويجب أن يعرفوا أن الله يوسِّع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيِّق على من يشاء ، وفى هذا دلائل وعلامات للمؤمنين على سعة قدرته سبحانه وعظيم سلطانه .

التفسير :

٤٩ – فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

هذه الآية معطوفة على ما سبقها أو هي متفرعة عنها، وقد كان صدر المجموعة السابقة من الآيات قوله تعالى: وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . (الزمر : ٤٥) .

وهنا يتحدث عن نتيجة مترتبة على ما سبق ، وهي أن هذا الإنسان الكافر أو الإنسان عمومًا ، إذا أصابه ضرٌّ أو مرض أو محنة أو فقر ؛ أخلص الدعاء لله تعالى أن يزيح عنه الضر أو البلاء ، ثم إذا تفضل الله عليه بكشف الضر أو دفع البلاء ، أو الغنى بعد الفقر ، أو الشفاء بعد المرض ، نسب هذا الفضل إلى نفسه ، وادعى أن هذه النعمة أو الغنى أو الصحة إنما جاءت بسبب معرفته ، واجتهاده في تثمير المال ، أو الذهاب إلى الطبيب ، أو خبرته في جلب النعم ودفع النقم ، وما علم هذا الإنسان أنّ حضور النّعم ودفع النقم امتحان واختبار وابتلاء من الله .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أي : أكثر كفار مكة ، أو أكثر البشر لا يعلمون أن ما يجري عليهم من النعم اختبار من الله ، يتمحص به الشاكر والكافر ، والحامد والجاحد ، أو لا يعلمون سُبل الخلاص ووسائل النجاة .

٥٠ – قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

أي : هذا طَبْعٌ في الإنسان ، السابق فيه مثل اللاحق ، فالذين سبقوا ادعوا أنهم أهل للفضل والمال والغنى ، فهذا قارون قد قال : إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ... (القصص : ٧٨) .

وهذا فرعون قد تألّه وتجبر وقال : أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ... (الزخرف : ٥١) .

وقال أيضًا متطاولاً على مقام النبوة : أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . (الزخرف : ٥٢) .

كما قال النمروذ : أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ... (البقرة : ٢٥٨) .

وصدق الله العظيم : كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ . (العلق : ٦ ، ٧) .

فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

أى : إن الكفار السابقين ، حين عتوا عن أمر ربهم ، وتطاولوا على مقام النبوة ، وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . (سبأ : ٣٥) . لم ينفعهم هذا القول شيئًا حين نزل العذاب بساحتهم . فقد غرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلكت ثمود بالصيحة المهلكة ، وأهلكت عادٌ بريح صرصر عاتية ، وأغرق فرعون وهامان، ولم ينفعهم الملك ولا المال ولا الجاه ولا السلطان .

٥١ - فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ .

أى : أصاب السابقين من الكافرين جزاء ما كسبوا من الكفر والظلم ، مثل غرق فرعون وهامان ، والذين ظلموا من أهل مكة ، وجحدوا نبوة محمد ﷺ سيصيبهم عقوبة كفرهم وظلمهم ، من القتل والأسر والقهر ، وما هم بفائتين منّا ، هربًا يوم القيامة ، بل مرجعهم إلى الله ، يصنع بهم ما يشاء من العقوبة .

٥٢ - أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى : أعموا عن التفكّر والإبصار ، فلم يشاهدوا بأعينهم أن الله تعالى يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء من عباده ، لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

فى هذه القدرة البالغة دلالات واضحة ، وعلامات ظاهرة لقوم يؤمنون بالله ، ويقرون بوحدانيته ، وأنه هو المتحكم فى هذا الكون ، الفعّال لما يريد ، وهو سبحانه على كل شىء قدير .

★ ★ ★

الدعوة إلى التوبة النصوح

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات :

الإسراف : تجاوز الحد في كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله في إنفاق المال وتبذيره ، والمراد هنا : الإفراط في المعاصي .

لا تقنطوا : لا تيأسوا .

وأنيبوا : ارجعوا إلى الله بالتوبة والطاعة .

وأسلموا له : أخلصوا له العمل والعبادة .

أحسن ما أنزل إليكم من ربكم : هو القرآن .

بغتة : فجأة .

يا حسرتا : يا ندامتي ويا حزني .

فرّطت : ضيعت وقصّرت .

في جنب الله : في عبادته وطاعته .

الساخرين : المستهزئين بدين الله .

كرة : رجعة .

تمهيد :

هذه آيات من أرجى الآيات فى كتاب الله تعالى ، أى أكثر الآيات رجاءً وأملاً فى رحمة الله ، ذلك أنها تتحدث عن عظيم رحمة الله ، وسابغ فضله ، وتوبته على كل من تاب ورجع إلى الله ، سواء أكان كافرًا فدخل فى الإسلام ، أم مؤمنًا وتاب إلى الله تعالى من المعاصى .

التفسير :

٥٣ - قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

يا أيها الناس ، ويا عباد الله تعالى ، يا أيها العباد الذى أكثروا من الذنوب ، وتجاوزوا الحدود فى المعاصى أو فى الكفر ، لا تيأسوا من رحمة الله ، ولا تجبنوا وتمتنعوا عن التوبة يأسًا أو قنوطًا ، فتصابوا بالإحباط والتردد ، وعدم الإقدام على الإسلام أو على التوبة ، فإن باب الله مفتوح للتائبين ، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعًا للمستغفرين ، وهو سبحانه واسع المغفرة وعظيم الرحمة .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله ، ونلمح أن الله تفضل على عباده فى هذه الآية بالبشارات التالية :

١ - نسب العباد إلى نفسه فقال سبحانه : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ...

٢ - وصفهم بالإسراف فى المعاصى .

٣ - دعاهم إلى عدم القنوط من رحمة الله ، ودعاهم إلى الأمل والرجاء فى مغفرته.

٤ - إخبارهم بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا .

٥ - تأكيد ذلك بأنه سبحانه هو الغفور الرحيم .

سبب النزول :

أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، عن ابن عباس ، أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، أوتخبرنا أن لنا توبة ، أو أن لما عملنا كفارة ؟ فنزلت : وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا [٧]. (الفرقان : ٦٨ - ٧٠) .

ونزل قوله تعالى : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ...

وأخرج ابن جرير ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ... إلى : وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظنّ أن الله لا يقبل إسلامه .

وقد فرح النبى ﷺ بنزول هذه الآية ، فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وغيرهم ، عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما أحبّ أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ...[٨] إلى آخر الآية .

فلسفة التوبة

يفتح الإسلام باب الرجاء فى وجه الله أمام الحيارى والمسرفين وجميع المذنبين ، آملاً فى توبتهم واستقامتهم وهدايتهم ، وبذلك تكسب البشرية إنسانًا تائبًا مستقيمًا ، معتدلاً مهتديًا ، وفى نفس الوقت نطارد اليأس والإحباط فى نفوس العصاة ، ونخبر الناس بأن باب الله مفتوح للتائبين بالليل والنهار ، وفى الحديث الصحيح : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له ؟ حتى يطلع الفجر» ، وقد تردد فى القرآن سعة رحمة الله ، وعظيم مغفرته وتوبته على عباده، وأنه سبحانه يغفر الذنوب جميعًا .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... (النساء : ٤٨) .

وقال تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ . (آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦) .

وقال ابن كثير : هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت . اهـ .

وقد أورد ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فيها نفى القنوط ، ومحاربة اليأس .

من ذلك ما ورد فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ فى حديث الذى قتل تسعًا وتسعين نفسًا ، ثم ندم وسأل عابدًا من عبّاد بنى إسرائيل هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة،

ثم سأل عالمًا من علمائهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، وكان ذلك سبيلاً إلى قبول التوبة وحسن الخاتمة ، لأنه قصد باب الله مخلصًا فقبله الله تعالى[٩] .

٥٤،٥٥ – وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ • وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .

أى : ارجعوا إلى خالقكم ، وتوبوا إلى الله تعالى ، واخضعوا لأحكامه ، وفرُّوا إليه تائبين نادمين خاشعين خاضعين ، من قبل أن يغضب عليكم ، وتحل عليكم نقمته سبحانه وتعالى .

٥٦ – أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ .

أى : بادروا بالتوبة كراهة أن تقول نفس يوم القيامة : يا ندامتى ويا حسرتى على ما ضيعت وقصّرت فى حقوق الله ، وفى أداء واجباته .

وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ .

أى : إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر ، مستهزئ غير موقن ولا مصدّق .

٥٧ – أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ .

أو تقول تلك النفس المذنبة : لو أن الله هدانى لاهتديت إلى الحق وأطعت الله ، وكنت من عباده الصالحين المتقين ، يقول ذلك تحسرًا وتألمًا حين يرى أهوال القيامة ، وشدة عذاب أهل النار ، ويرى بحبوحة النعيم لأهل الجنة .

قال ابن كثير : يتحسر المجرم ويودّ لو كان من المحسنين المخلصين ، المطيعين لله عز وجل .

٥٨ – أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

أو تقول النفس المذنبة عند مشاهدة العذاب يوم القيامة ياليت لى رجعة إلى الدنيا حتى أتمكن من الإيمان والعمل الصالح والإحسان .

قال ابن عباس : أخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه .

قال تعالى : وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر : ١٤) .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين :

إن الكافر أولاً يتحسّر ، ثم يحتجّ بحجج واهية ، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا . ا هـ .

ولو رجع هذا الكافر إلى الدنيا لعاد إلى ضلاله ، كما قال تعالى : وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . (الأنعام : ٢٨) .

٥٩ - بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ .

أيها العبد النادم بعد فوات الأوان ، المحتج بعدم هداية الله لك ، المتمنِّي الرجوع إلى الدنيا ، لقد جاءتك الرسل والكتب ، وأعطيتك العقل والإرادة والاختيار ، ولفتُّ نظرك إلى الكون وما فيه من عظات وعبر ، ودلائل ومشاهد تدلّ على قدرة الإله الخالق ، وأخبرتك بقصص الأولين وما أصاب المكذبين ، وحدَّثتك عن القيامة والبعث والحشر والجزاء ، كأن القيامة ماثلة أمامك .

وكان في هذه الآيات ما يكفي ويرشد للإيمان بالله ورسله وكُتبه واليوم الآخر ، لكنك كذَّبت المرسلين ، وجحدت باليوم الآخر ، وآثرت الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى ؛ فلا تلومنَّ إلا نفسك ، ولا تحتج بأن هداية الله لم تصبك ، لأن الله يُعطي هداه لمن أحبَّ الهدى ، ويرسل معونته وهدايته وفضله وتوفيقه لمن رغب في الإيمان وسعى إلى باب الرحمان ، وفي الحديث الشريف : «اعملوا فكلٌّ ميسر لما خُلق له ، إن الله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ . (الليل : ٥ - ١٠) .

وقال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس : ٧ - ١٠)

★ ★ ★

شقاء المكذبين ونعيم المتقين

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفردات:

كذبوا على الله: وصفوه بما لا يليق، مثل من ادعى أن له شريكًا، أو أن للأصنام شفاعة عند الله.

وجوههم مسودة: حقيقة، أو لما يعلوها من كآبة.

مثوى: مأوى ومقامًا.

بمفازتهم: بفوزهم وظفرهم ببغيتهم.

التفسير:

٦٠ - وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ.

تصف هذه الآية مشهد الكافرين في القيامة، هؤلاء الذين ادّعوا أن لله شركاء وصاحبة وولدا، فتراهم في حالة من الهلع والجزع والكآبة والحزن، وسوادُ الوجوه إمّا أن يكون حسّيا مشاهدًا أمام الناس، حيث يراهم الناس في حالة من القتام والسواد، ويجوز أن يكون السواد من باب المجاز لما يعلو وجوههم من الهم والحزن، والخوف من غضب الله ونقمته.

أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ.

أي: إن في جهنم مكانًا وإقامة ومقرًّا للمتكبرين، الذين جاءتهم آيات الله ورسالاته فكذبوا بها، واستكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكان في مكة فريق من الأغنياء والكبراء يحتقرون الفقراء، ويأنفون من الانضمام إلى دعوة الإسلام، فهددهم القرآن بسوء المصير، ووضع أمامهم المصير الأسود، والإقامة المستمرة في عذاب جهنم.

٦١ - وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أما المتقون المؤمنون المخلصون لله، فإن الله ينجيهم بسبب فوزهم بالجنة، وسعادتهم بالرضا، وسرورهم بالثواب العظيم.

لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ . لا ينالهم عذاب جهنم .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . عند الفزع الأكبر ، فقلوبهم مطمئنة ، وهم واثقون بالنعيم المقيم ، ورضوان الله رب العالمين ، وقد نقل القرطبى فى تفسيره ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يحشر الله مع كلّ امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة ، وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له : لا تُرعْ فما أنت بالمراد به ، ولا أنت بالمعنيِّ به ، فإذا كثر ذلك عليه قال : فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول: أما تعرفنى؟ أنا عملك الصالح ، حملتنى على ثقلى ، فوالله لأحملنّك ولأدفعنّ عنك، فهى التى قال الله تعالى : وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[10] .

* * *

مـــالك الملك

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات :

مقاليد السماوات والأرض : مفاتيحهما ، وهو كناية عن ملكه لهما ، وتصرُّفه فيهما .

والذين كفروا بآيات الله : القرآن أو حجج الله وبراهينه .

لـئـن أشـركت : على سبيل الفرض .

ليحبطن عملك : ليبطلن وليفسدن .

التفسير :

٦٢ - ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

هو سبحانه خالق كل شيء فى هذا الكون ، فالسماء والأرض ، والفضاء والجبال ، والبحار والأنهار، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والإنسان والحيوان ، والنبات والجماد ، وجميع المخلوقات والموجودات، وكلّ ما فى الكون خلقه الخلاق العظيم ، وهو سبحانه المتصرف فى هذا الكون ، الذى يمسك الكون بقدرته، ويحفظه فى حالة من التوازن والصلاح للحياة .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ... (فاطر : ٤١) .

قال في ظلال القرآن :

إنها الحقيقة التي ينطق بها كل شيء ، فما يملك أحد أن يدَّعى أنه خلق شيئًا ، وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع ، وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير ، وليس أمر من أموره متروكًا للمصادفة . اهـ .

٦٣ – لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ .

بيد الله مفاتيح السماوات والأرض ، فهو مالكهما والمتصرف في أمورهما ، خلقًا وحفظًا وسلامة ونفعًا وضرًّا ، وقيل : مفاتيح السماوات بالمطر ، ومفاتيح الأرض بإنبات النبات ، فبيد الله إنزال المطر وإنبات النبات ، وتيسير الرزق ، وتصريف الخلق وفق ما يريد ، على ما تشهد الفطرة ، وينطق الواقع ويقر العقل والضمير .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ .

خَسِرُوا أنفسهم ، وخسروا راحة الضمير ، وخسروا الاتساق مع الكون ، وخسروا سعادة الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، أمّا المؤمنون فقد اكتسبوا بالإيمان سعادة الدنيا ، والفوز بالجنة يوم القيامة .

٦٤ – قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ .

عرض كفار مكة على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم وقالوا : هو دين آبائك ، فأمره الله أن يقول لهم : أتأمرونى أيها الجهلة بعبادة غير الله ، بعد أن قامت الأدلة القطعية على تفرُّده بالألوهية ، فهو خالق الأشياء ومدبرّها ، فلا تصلح العبادة إلا له سبحانه .

٦٥ – وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

يتفرد الله تعالى بالألوهية ، ويتصف كل ما سواه بالعبودية ، وقد أوحى إلى النبي ﷺ ، وإلى سائر الرسل بأن الشرك إذا استمر إلى الوفاة ، يترتب عليه إحباط الأعمال السابقة ، فإذا تاب المشرك مخلصًا تاب الله عليه .

قال تعالى : وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . (البقرة : ٢١٧) .

والشرك لا يتوقع ولا ينتظر من رسول الله ﷺ ، ولا من إخوانه المرسلين ، فقد اصطفاهم الله واختارهم لهذه المهمة الجليلة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، ولكن إذا صدر الشرك من المرسلين على سبيل الفرض أو الاحتمال ، لكان ذلك سببًا فى إحباط العمل من المرسلين ، فمن باب أولى أن الشرك محبط العمل من سائر الخلق أجمعين .

قال تعالى : وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . (الأنعام : ٨٨) .

روى عن ابن عباس : أن قريشًا دَعَتْ رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما يشاء من النِّساء ، ويعطوه ما يريد ، وقالوا : هذا لك يا محمد ، وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء ، قال : «حتى أنظر ما يأتينى من ربّى فنزل : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . إلى آخر السورة . ونزل : قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ .

وعن ابن عباس أيضًا : أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، وهم يعبدون معه إلهه ، فنزلت هذه الآيات .

٦٦ – بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ .

أى : إن العبادة لا تكون للآلهة المدّعاة ، ولا تكون للأصنام والأوثان ، بل تكون العبادة للإله الواحد الخالق الرازق ، المستحق للعبادة وحده بلا شريك .

وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ .

أى : اعبد الله مخلصًا فى العبادة ، مع الحب والشكر ، فقد أنعم على عباده نعما لا تعدُّ ولا تحصى ، واختار محمدًا ﷺ ليكون خاتم المرسلين ، ورحمة للعالمين ، وصاحب الشفاعة يوم القيامة ، وأمر الرسول ﷺ بالشكر لله أمر لأمته أيضًا ، لأننا أمرنا بالاقتداء به واتباعه ﷺ .

قال تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ... (الأحزاب : ٢١) .

وقال تعالى : مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... (النساء : ٨٠) .

★ ★ ★

الكون خاضع لقدرته تعالى

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

وما قدروا الله حق قدره : ما عرفوه حق معرفته حين أشركوا به غيره .

والأرض جميعا قبضته : أى أنَّها ملكه وفى تصرفه وفى حوزته .

مطويات : مجموعات .

بيمينه : بقدرته .

الصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل .

صعق : مات .

ينظرون : ينتظرون ماذا يفعل بهم .

أشرقت : أضاءت ، وشرقت طلعت .

بنور ربها : بما يقيمه فى الأرض من الحق والعدل .

الكتاب : صحائف الأعمال .

بالحق : بالعدل .

ما عملت : جزاء ما عملت .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن عظمة الله وجلاله وعظيم قدرته ، فالأرض كلها فى قبضته وتصرفه ، والسماوات فى حوزته ورهن إشارته ، وهو منزَّه عن أن يكون له شريك أو مثيل ، ثم تعرض مشاهد النفخ فى الصور وموت الناس مدة أربعين سنة ، ثم النفخ مرة أخرى ، حيث يقوم الناس للحساب والجزاء .

التفسير :

٦٧ - وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : ما عظموا الله حق عظمته حين عبدوا معه غيره ، مع أنه الخالق المتصرف فى شئون هذا الكون ، فى الدنيا والآخرة فالأرض كلها فى قبضته وفى تصرفه .

وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ ... مجموعات فى يمينه ، وكلتا يديه يمين ، وهو سبحانه منزَّه عن النظير، والمثيل ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

قال الزمخشرى :

والغرض من هذا الكلام – إذا أخذته بجملته ومجموعه – تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غيره ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز . ا هـ .

وأخرج الشيخان ، والنسائى ، وابن ماجة فى جماعة آخرين ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ... وهو يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجّد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرُجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قُلنا ليخرَّن به[١١] .

وقال ابن كثير فى تفسيره :

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ... أى : ما قدَّر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم القادر على كل شىء ، وكل شىء تحت قدره وقدرته .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ، وقد روى الشيخان – واللفظ للبخارى – أن رسول الله ﷺ قال : «يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض»[١٢] .

٦٨ - وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ .

تعرض الآية مشاهد القيامة ، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن من علامات الساعة ظهور المسيخ الدجال ، ثم ظهور المسيح عيسى ابن مريم ، فيقتل المسيخ بإذن الله ، ثم يسود الوئام بين الناس سبعين

سنة، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحًا طيبة تنزع أرواح المؤمنين الصالحين ، ولا تقوم القيامة إلا على لكع ابن لكع ، أى : لئيم ابن لئيم .

وقد تحدث القرآن أن هناك ثلاث صيحات : الأولى صيحة الفزع ، والثانية صيحة الصعق والموت، حيث يموت الناس جميعًا ، ويكون ملك الموت آخر من يموت ، ويمكث الناس بعد نفخة الصعق أربعين سنة، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً ، وهو الباقى آخرًا ، ويقول : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ... ثم يجيب نفسه فيقول : لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

ثم يُحيى الله أول من يُحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور نفخة أخرى ، وهى نفخة البعث[١٣]، قال تعالى : ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ .

أى : ينفخ إسرافيل بعد أن يحييه الله تعالى قبل الخلائق ، فينفخ نفخة أخرى وهى نفخة البعث والإحياء ، فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون أهوال يوم القيامة .

قال تعالى : فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

وقال سبحانه : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ . (الروم : ٢٥) .

وقال تعالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً . (الإسراء : ٥٢) .

٦٩ - وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أشرقت أرض المحشر بنور عدل الله تعالى ، وعظيم بهائه وسلطانه .

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ...

أى : وضعت صحائف أعمال العباد بين يديه ، وقد سجل فيها الحسنات والسيئات ، فالسعداء يأخذون كتبهم باليمين ، والأشقياء يأخذون كتبهم بالشمال .

قال تعالى : وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٣ ، ١٤) .

وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ...

يجمع الله الرسل أجمعين إلى موقف الحشر، فيسألهم: بماذا أجابتكم أممكم؟ قال تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ... (المائدة: ١٠٩).

وجيء أيضًا بالشهود الذين يشهدون على الأمم، من الملائكة الحفظة التي تقيّد أعمال العباد.

قال تعالى: وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ. (ق: ٢١).

أي: سائق يسوقها للحساب، وشاهد يشهد عليها.

وكذلك يجاء بالشهداء المؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة بالبلاغ على من بلّغوه فكذّب بالحق، كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره.

لقد أفادت الآية أن الأرض تحولت إلى ساحة للقضاء، تجلّى فيها نور الجبار سبحانه وتعالى، ووزّع على كل إنسان كتابه، وفيه صحائف أعماله، ثم قال تعالى: وَقُضِيَ بَيْنَهُم ... وقُضِيَ بين العباد بالعدل والصدق.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أي: لا يبخس من ثوابهم، ولا يزاد في عقابهم، بل يكون الجزاء عادلاً، من عند الإله العادل.

قال تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا. (النساء: ٤٠).

وقال تعالى: وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ. (الأنبياء: ٤٧).

٧٠ – وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ.

وأعطيت كل نفس جزاء عملها، خيرًا كان أو شرًا، والله تعالى أعلم بفعلهم فلا يفوته شيء من أعمالهم.

قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ. (الزلزلة: ٧، ٨).

وقال تعالى: وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا. (الكهف: ٤٩).

جاء في صفوة التفاسير للصابوني :

وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ .

أي : هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان ، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك تشهد الكتب إلزامًا للحجّة .

★ ★ ★

الكفار يساقون إلى جهنم
والمتقون يساقون إلى الجنة

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

المفردات :

السَّوْق : الحث على السير بعنف وإزعاج علامة على الإهانة والاحتقار، أما سوق المتقين فللإسراع بتكريمهم في الجنة .

زمرًا : جماعات متفرقة متتابعة .

الخزنة : واحدهم خازن ، مثل سدنة وسادن .

ينذرونكم : يخوفونكم .

حـــــقت : وجبت.

سلام عليكم : أمان عظيم عليكم .

طبتــم : طهرتم من دنس المعاصى وطاب مثواكم .

الحمـد لله : كل الثناء لله وحده .

صدقنا وعده : حققه بالبعث والجنة .

وأورثنا الأرض : ملكنا أرض الجنة .

حـافـيـن : محيطين محدقين .

وقضى بينهم : فصل بين الخلائق .

التفسير :

٧١ – وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ .

فى ختام سورة الزّمر، أو سورة التوحيد، نجد هذا المشهد الرهيب ، حيث يساق الذين كفروا إلى جهنم جماعات جماعات ، متتابعين بحسب موقفهم من الكفر وتعصبهم له، حيث يبدأ بأئمة الكفر وكبار أهل الضلالة، حتى إذا وصل الكفار إلى جهنم ، فتحت أبوابها بعد وصولهم، كما تُفتح أبواب السِّجن بعد وصول المسجونين ووقوفهم على الباب، من باب الإهانة والإذلال ، ثم تفتح أبواب جهنم فيدخل الكفار، ثم يغلق الباب خلفهم ، ثم تسأل الملائكة منْ خزنة جهنم وحرّاسها، يسألون الكافرين سؤال توبيخ : ألم يرسل إليكم بشر من أجناسكم يحملون إليكم رسالة الله ، ويقرءون عليكم القرآن ، ويدعونكم إلى التوحيد ، واتباع ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه ، ويحذرونكم من عذاب جهنم وتَبعة الحساب يوم القيامة ؟ ويجيب الكافرون على هذه الأسئلة ، بأن الرسل قد أرسلت إلينا ، وبلّغتنا رسالة ربنا، ولكننا أعرضنا عن هدى الله ، فحقت علينا كلمة العذاب ، وهى قول الله تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود : ١١٩) .

٧٢ – قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ

أى : تجيبهم الملائكة : ادخلوا إلى أبواب جهنَّم وتحمَّلوا عذابها ، ماكثين فيها أبد الآبدين، ودهر الداهرين ، جزاء تكبركم عن اتباع الحق، وامتناعكم عن اتباع الرسل، ونفوركم من الهدى والإيمان.

٧٣ - وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ .

ساقت الملائكة المتقين إلى الجنة جماعات جماعات، كل جماعة تدخل حسب منزلتها ، فالمقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أمثالهم ، والشهداء مع بعضهم، والعلماء مع بعضهم ، وكل صنف مع صنف يناسبه .

وسَوْق المتقين يراد به الإسراع بهم إلى دار الكرامة ، أو المراد سَوْق مراكبهم ونجائبهم التى يركبونها.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ...

حتى وصلوا إلى الجنة ، والحال أن أبوابها مفتحة فى انتظارهم ليدخلوها ، كما نجد الضيف العظيم قد اصطف أهل الدار لاستقباله، وفتّحت الأبواب فى انتظار قدومه ، قال تعالى: جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ . (ص : ٥٠) .

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ .

عند دخول الأتقياء الجنة تحييهم الملائكة ، قال تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ... (الأحزاب : ٤٤) .

وهنا نجد أن الملائكة تعبر عن سرورها بالأتقياء ، فتقول لهم : سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ... أى : نسلم عليكم سلام تحية وتكريم.

طِبْتُمْ . طابت أرواحكم بأعمالكم الطيبة ، فطاب مقامكم فى دار السلام .

فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ . فادخلوا الجنة حال كونكم خالدين فى ذلك النعيم .

٧٤ - وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ .

يشكر أهل الجنة ربهم على حسن عطائه، وعظيم نعمائه ، فقد استحقوا الإقامة فى الجنة ، وأرضها واسعة ، وكل واحد منهم قد استحق مساحة واسعة فخمة ضخمة ، ينزل فى أىّ مكان من جنته حيث يشاء ، فنعم هذا الجزاء ونعم جزاء العاملين ، وهذا قول أهل الجنة ، أو هو ثناء من الله عليهم .

٧٥ - وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

بعد أن دخل أهل النار جهنم ، ودخل الأتقياء الجنة ، كان ختام السورة دالاًّ على عظمة ذى الجلال والإكرام، فالملائكة تحف بالعرش وتحدق به ، وتحيط به من كل جانب، يسبحون بحمد الله ، ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص ، وقد حَكم بين الخلائق بالعدل والحق بلا ظلم ولا حيف .

قال الفخر الرازى :

وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ...

أى : حَكم بين الملائكة بالحق ، فلكل واحد منهم فى المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه ، ثم نطق الكون كلّه بحمد الله وشكره ، على حسن قضائه وعظيم نعمائه .

ونلاحظ أن الله تعالى بدأ الخلق بحمد الله ، قال تعالى فى صدر سورة الأنعام : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

كما أن الله تعالى اختتم أعمال الآخرة بالحمد ، فقال سبحانه: وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

فهو سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه يرجع الخلق أجمعون ، وفى نهاية كل مجلس نقول الحمد لله رب العالمين، دلالة على الختام والشكر والمنة لذى الجلال والإكرام ، اللهم لك الحمد حمداً كثيرا طيبا مباركا فيه كما ترضى وتحبّ ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا ، اللهم لك الحمد والشكر والثناء الحسن الجميل، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، سبحان ربك رب العزّة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الزمر

١- وصف القرآن الكريم.

٢- الأدلة على قدرة الله تعالى.

٣- طبيعة المشرك فى السرّاء والضراء .

٤- ضرب الأمثال فى القرآن وفائدة ذلك .

٥- تهديد المشركين ووعيدهم .

٦- تمنى المشركين الفداء حين يرون العذاب .

٧- الوعد بغفران ذنوب من أسرفوا على أنفسهم .

٨- ذكر أحوال القيامة .

٩- سَوْق الكفار إلى جهنم ومناقشة الملائكة لهم .

١٠- ذهاب المتقين إلى الجنة مع الكرامة والتعظيم .

١١- إعلان الحمد لله رب العالمين فى نهاية فصل القضاء .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الزّمر عصر يوم الثلاثاء ٩ ذو القعدة ١٤٢٠ هـ ، الموافق ١٥ فبراير ٢٠٠٠ م

بمسجد حراء بالمقطم (مدينة القاهرة) بجمهورية مصر العربية

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ،

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



تفسير سورة غافر

أهـداف سـورة غـافـر

سورة غافر سورة مكية ، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة، وآياتها ٨٥ آية ، نزلت بعد سورة الزمر.

ولها أربعة أسماء : تسمى سورة غافر لقوله تعالى فى أولها : غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ... (غافر : ٣)

وتسمى سورة المؤمن لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون – واسمه حزبيل – فى قوله تعالى : وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ... (غافر : ٢٨) .

وسورة الطول لقوله تعالى : ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ . (غافر : ٣) .

وتسمى حم الأولى لأنها أول سورة فى الحواميم[١٤] .

روح السورة

الروح السارية فى سورة غافر هى روح الصراع الدائر بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والدعوة والتكذيب ، وأخيرا قضية العلو فى الأرض ، والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذى يأخذ المتجبرين، وفي ثنايا أهداف السورة الأصلية نجد أنها تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ، ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم فى الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله – من ثم – كأنه جو معركة ، وهى المعركة بين الإيمان والطغيان ، وبين الهدى والضلال ، وبين المتكبرين المتجبرين فى الأرض، وبأس الله الذى يأخذهم بالدمار والتنكيل، وتتنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجىء ذكر المؤمنين .

وتتمثل روح السورة فى عرض مصارع الغابرين ، كما تتمثل فى عرض مشاهد القيامة ، وهذه وتلك تتناثر فى سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر ، وتعرض فى صورها العنيفة المرهوبة المخيفة ، ومنذ بداية السورة إلى نهايتها نجد آيات تلمس القلب ، وتهز الوجدان ، وتعصف بكيان المكذبين ، وقد ترق آيات السورة فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس القلب برفق، وهى تعرض صفات الله غافر الذنب وقابل التوب ، ثم

تصف حملة العرش ، وهم يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين ، ثم تعرض الآيات الكونية والآيات الكامنة فى النفس البشرية .

موضوعات السورة

يمكننا أن نقسم سورة غافر بحسب موضوعاتها إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : صفات الله

تبدأ الآيات من (٤ – ٢٠) بعرض افتتاحية السورة ، وبيان أن الكتاب منزل من عند الله ، غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ... للمؤمنين التائبين ، شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ... للعصاة المذنبين .

ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله ، وأنه لا يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال ، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله ﷺ ، مهما تقلبوا فى الخير والمتاع، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ، وقد أخذهم الله أخذاً بعقاب يستحق العجب والإعجاب ، ومع الأخذ فى الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك ... ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح.. وفى الوقت ذاته تعرض مشهد الكافرين وهم ينادون : لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ . (غافر : ١٠) .

وهم فى موقف المذلة والانكسار يقرون بذنبهم، ويعترفون بربهم، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار، ومن هذا الموقف بين يدى الله فى الآخرة يعود السياق ليعرض أمام الناس مظاهر أنعم الله عليهم ، ليأخذ بأيديهم إلى طريق الإيمان بالله . فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ * رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ . (غافر : ١٤، ١٥) .

ويعرض السياق مشهد ذلك اليوم فى صورة حية مؤثرة ، فقد برز الجميع أمام الله ، العالم بالظواهر والبواطن ، وفى هذا المشهد تبلغ الروح الحلقوم ، وتذهب صولة الظالمين والطغاة ، فلا يجدون حميما ولا شفيعاً يطاع فى شفاعته ، لقد أصبح الملك والأمر والقضاء لله الواحد القهار .

الفصل الثانى : رجل مؤمن يجاهد بالكلمة

يستغرق الفصل الثانى الآيات من (٢١ – ٥٥) ويبدأ بلفت أنظار المشركين إلى ما أصاب المكذبين قبلهم ، ثم يعرض جانبا من قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وهامان وقارون، يمثل موقف الطغاة من دعوة الحق ، ويعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض فى قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا فى هذه السورة وهى حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يدافع عن موسى ، ويصدع بكلمة الحق والإيمان فى تلطف وحذر فى أول الأمر، ثم فى صراحة ووضوح فى النهاية ، ويعرض فى جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة، ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهده فى أسلوب مؤثر ، ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته ، ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة فإذا هم هناك، وإذا هم يتحاجون فى النار ، وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا، وحوار لهم جميعا مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص، ولات حين خلاص ، وفى ظل هذا المشهد يوضح الحق سبحانه أن العاقبة للمرسلين فى الدنيا ويوم القيامة ، فقد نصر الله موسى رغم جبروت فرعون ، ثم يدعو الرسول الأمين إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق، والتوجه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار .

الفصل الثالث : الترغيب والترهيب

يستغرق الفصل الثالث الآيات من (٦٥ – ٧٧) ويبدأ بتقرير أن الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر فى نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر، ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذى خلقه الله، وهو أكبر من الناس جميعاً، لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ، وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عميا : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ . (غافر : ٥٨) .

ويذكرهم بمجىء الساعة ، ثم يفتح الباب أمامهم إلى دعاء الله والاستجابة لأمره، فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين ، ويعرض فى هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التى يمرون عليها غافلين، يعرض عليهم الليل وقد جعله الله سكنا، والنهار مبصراً، والأرض قراراً ، والسماء بناء، ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم ، ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين ، ويلقن الرسول ﷺ أن يبرأ من عبادتهم ، وأن يعلن إسلامه لرب العالمين ، ثم يلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة .. وهو الذى يحيى ويميت . ثم يعود فيعجب رسوله ﷺ من أمر الذين يجادلون فى الله وينذرهم عذاب يوم القيامة فى مشهد عنيف ، تعلق فيه الأغلال فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ويحرقون فى النار

جزاء كفرهم وشركهم بالله ، وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر والثقة بأن وعد الله حق ، سواء أبقاه حتى يشهد ما يعدهم ، أو توفاه قبل أن يراه فسيتم الوعد هناك .

الفصل الرابع : نهاية الظالمين

يشتمل الفصل الرابع على الآيات الأخيرة فى السورة من (٧٨ – ٨٥) ويذكر أن الله أرسل رسلا وأنبياء كثيرين لهداية الناس ، منهم من ذكر فى القرآن ومنهم من لم يذكر : وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ ... وأن يقدم معجزة لقومه : إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... (غافر : ٧٨) . على أن فى الكون آيات قائمة وبين أيديهم آيات قريبة ، ولكنهم يغفلون عن تدبرها .. هذه الأنعام المسخرة لهم ، من سخرها ؟ وهذه الفلك التى تحملهم ، أليست آية يرونها؟! ومصارع الغابرين ألا تثير فى قلوبهم العظة والتقوى ؟ وتختم السورة بإيقاع قوى على مصرع من مصارع المكذبين وهم يرون بأس الله فيؤمنون حيث لا ينفعهم الإيمان : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (غافر: ٨٥) .

★ ★ ★

عظمة الخالق، وعقاب المكذبين



﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

المفردات :

حم : حروف مقطعة ، بدأ الله بها بعض السور للتنبيه ، أو للتحدى والإعجاز .

العزيز : الغالب على مراده

العليم : العليم بعباده ظاهرا وباطنا حالاً ومآلا.

غافر الذنب : يغفر الذنب لمن تاب إليه ورجع إلى طاعته بعد معصيته .

قابل التوب : يقبل توبة التائب النادم

شديد العقاب : لمن عصى الله وأعرض عن هديه .

ذى الطول : صاحب الغنى والسعة .

لا إله إلا هو : لا معبود بحق إلا الله .

إليه المصير : إليه مرجع الخلائق .

ما يجادل : ما يخاصم .

فلا يغررك: فلا يخدعك عيشهم سالمين .

تقلبهم في البلاد: التصرُّف والتنقل في بلاد الشام واليمن بالتجارات الرابحة ، فإن عاقبتهم النار والهلاك.

الأحزاب: الجماعات الذين تحزبوا على الرسل في كل أمة .

ليدحضوا به الحق: ليبطلوه ويزيلوه .

تمهيد:

سورة غافر بداية مجموعة السور التي تسمّى بالحواميم ، وقد نزلت هذه السور متتابعة ، وكلها مكية تعنى بأمور العقيدة ، وتعظيم الحق سبحانه ، وتعرض الصراع بين الحق والباطل ، ونهاية الكافرين وفلاح المؤمنين ، وهذه السور مجموعها سبع سور، تبدأ كلها بحرفي «حم» ، وهي : غافر ثم السجدة ثم الشورى ثم الزخرف ثم الدخان ثم الجاثية ثم الأحقاف ، ولم يتخللها نزول غيرها ، بل نزلت متتابعة كترتيبها في المصحف .

قال ابن عباس : إن لكل شيء لبابا ، ولباب القرآن الحواميم .

وروى الحافظ أبو بكر البزار ، والترمذي ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من قرأ آية الكرسي وأوّل حمّ المؤمن عُصم ذلك اليوم من كل سوء»[١٥] .

التفسير:

١، ٢ – حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

حمٓ : حروف للتنبيه ، مثل الجرس الذي يُقرع ، فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، أو هي حروف للتحدّي والإعجاز ، كما تقدم بيان ذلك في سورٍ سابقة .

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

هذا الكتاب ليس سحرا ولا شعرا ولا كهانة ، ولا افتراءً من عند محمد ، كما يدعي الكافرون ، بل هو تنزيل من عند الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بعباده ظاهرهم وباطنهم ، والمحاسب والمجازي على أفعال العباد .

٣– غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ .

من صفات الله المغفرة والستر على المذنبين ، وقبول توبة التائبين ، وهو سبحانه شديد العقاب لمن أعرض عنه ، وأصم أذنه عن سماع القرآن وألوان الهداية ، وهو سبحانه صاحب الفضل وجلائل النّعم ، فمن

وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء، وهو سبحانه واحد أحد ، فرد صمد ، متفرد بالألوهية، متوحّد بالربوبية ، فلا معبود بحق إلا الله ، وإليه سبحانه المصير والمرجع ، فيحاسب العباد ويجازيهم على أعمالهم ، بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا .

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

روى أن رجلا من أهل الشام ذا بأس كان يفد على عمر بن الخطاب ، فافتقده عمر، فسأل عنه ، فقالوا: تتابع فى الشراب ، فكتب عمر إليه كتابا قال فيه : أما بعد .. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ . فجعل الرجل يقرأ الخطاب ، ثم بكى ونزع عن المعاصى وتاب إلى الله تعالى ، فقال عمر : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زلّ زلة فسددوه ووقفوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

٤ - مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم ، قال : نزلت هذه الآية فى الحارث بن قيس السهمى .

وتفيد آيات القرآن الكريم ، والسيرة المطهرة أن الجدال نوعان :

جدال بالحق لتبيّن آيات القرآن وتفهم معناها ، وهو نقاش محمود .

وجدال بالباطل ، مثل قولهم : إن القرآن سحر وشعر وكهانة ، وأساطير الأولين وافتراء من عند محمد، محاولة من كفار مكة وأغنيائها لتقرير الباطل ، ودحض الحق، وإبطال الإيمان، بالاعتماد على الشبهات بعد وضوح الحق ، وسطوع حجة البيان القرآني، والإعجاز لكتاب الله ، وقد كان كفار مكة يسخرون من المؤمنين، ويحاولون تشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، ويوجّهون التهم الكاذبة إلى الإسلام والقرآن والرسول محمد ﷺ.

ومعنى الآيـة :

ما يخاصم فى دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا ، فلا يخدعك أيها الرسول الأمين تقلبهم فى البلاد ، بين الشام واليمن فى تجارة رابحة ، مع تمتعهم بالغنى والجاه والأمن والرفعة فى الدنيا ، لأن ذلك إمهال لهم وليس إهمالاً ، فسوف يرون الهلاك فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . (آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧) .

ويقول سبحانه : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

وفى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[١٦] .

لقد كان القرآن يحاور المشركين بالحق، فيلفت أنظارهم إلى الكون وما فيه ، ويستحضر أمامهم حقائق التاريخ ، ومشاهد القيامة ، رجاء هدايتهم ، وأحيانا يدفعهم الكبر عن قبول الحق ، ويبيّن أن تكذيب المترفين وعناد المتكبرين أمر عرفته البشرية فى تاريخها الطويل، فليس تكذيب أهل مكة بدعا أو غريبا عن تكذيب الكافرين لرسلهم .

٥- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ .

لقد وقف قوم نوح فى وجه دعوته زمانا طويلا : قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ . (هود : ٣٢) .

وكذلك كذبت الأحزاب الذين تحزبوا على رسلهم ، مثل عاد وثمود وفرعون، وحاولت كل دولة ظالمة أن تقيّد الرسول أو تأسره أو تقتله ، أو تسكت صوته بأى وسيلة ، وجادلت كل أمة رسولها بالباطل ، رغبة فى إسكات صوت الحق ، والتغلّب عليه ، فأهلكتُ هؤلاء الكفار هلاكا شديدا ، فانظر كيف كان عقابى لهم ، لقد أغرق الطوفان قوم نوح ، وهلكت عاد وثمود ، وغرق فرعون وهامان .

قال تعالى : وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ* فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٣٩ ، ٤٠) .

٦ - وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ .

لقد وجبت كلمة الله على الكافرين ، وهى قوله سبحانه : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص: ٨٤ : ٨٥) .

هؤلاء الكفار هم أصحاب النار ، وأهلها المقيمون فيها إقامة دائمة ، كما يقيم الرجل فى داره لأنه صاحبها ، فكذلك هؤلاء الكفار من طول إقامتهم فى النار صاروا أصحابها المستمرّين فيها .

إن هؤلاء الكفار كذبوا رسل الله قبل عهد محمد ﷺ ، وكذبوا رسل الله فى عهد نوح ومن جاء بعده من الرسل، فكيف كان عقابهم ؟ لقد كان عذابا أليما أودى بحياتهم فى الدنيا ، واستحقوا عذاب الله وبقاءهم فى النار زمانا طويلا ، حتى صاروا أصحابها المستقرين فيها استقراراً دائما بلا انقطاع .

قال ابن جرير الطبرى :

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ .

أى : وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، التى قصصت عليك يا محمد قصصها ، وحل بها عقابى، كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك، الذين يجادلون فى آيات الله لأنهم أصحاب النار . ا هـ .

★ ★ ★

استغفار الملائكة للمؤمنين

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

الذين يحملون العرش : الملائكة الكروبيون ، وحملهم العرش عند بعضهم مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له .

العرش : فى اللغة بمعنى : سرير الملك ، وهنا يراد به : مركز تدبير العالم .

يسبحون بحمد ربهم : يقولون : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

ويؤمنون به : ويؤمنون بالله عن يقين وتصديق .

ويستغفرون : يطلبون المغفرة للمؤمنين .

وسعت كل شيء: يقولون : يا ربنا وسعت كل شيء رحمتك وعلمك .

فاغفر للذين تابوا: سامح من تاب إليك وتجاوز عن سيئاته .

التفسير:

هذه آيات تشير إلى فضل الله وعظمته، وجليل نعمائه وتفضله على عباده .

٧ - ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ .

الذين يحملون عرش الله من الملائكة ، والذين يحفّون به من الملائكة تعظيما لله ، هؤلاء يسبّحون بحمد الله ، ويذكرون آلاءه ذكراً وتسبيحا مقرونا بالحمد ، فيقولون : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، ويؤمنون بوحدانية الله ، وعدم الإشراك في عبادته ، ويطلبون المغفرة للمؤمنين، وقبول توبة التائبين ، ويقولون : ياربنا شملت رحمتك كل شيء ، وأحاط بالجميع علمك ، فاغفر يا ربنا لمن تاب إليك ، واتبع سبيلك وهديك ، وآمن بك وبرسلك ، وسار على صراطك المستقيم ، واحفظ اللهم هؤلاء المؤمنين من عذاب النار ومن سعير الجحيم .

٨ - رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

وهذا استمرار في الدعاء للمؤمنين ، بأن يدخلهم الله عز وجل جنات إقامة دائمة في نعيم مقيم ، قد وعد الله بها عباده في آيات القرآن حين قال سبحانه : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . (الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨) .

فالله سبحانه لا يخلف الميعاد ، وسوف يتفضل على عباده المؤمنين بالجنة ، والملائكة تتوسل إلى الله تعالى بفضله وبرحمته وعلمه ، بأن يشمل بهذا الفضل المؤمنين، وأيضا الصالحين من آبائهم ومن أزواجهم ومن ذرياتهم ، تفضلا منه حيث يجمع شمل المؤمنين في الجنة ، ويلحق المقصّرين بالمتفوقين، ولا ينزل السابقين إلى مرحلة المتأخرين، فهو سبحانه أهل العدل وأهل الفضل وهو ، ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . القوى الغالب والحكيم في تصرفه بشأن عباده فما أعظمه وما أشد حكمته .

وفي معنى هذه الآية يقول الله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

٩ - وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

وفقهم يارب للبعد عن الذنوب والسيئات فى الدنيا ، أو اغفر لهم زلاّتهم وذنوبهم وسيئاتهم، ومن غفرت له ذنوبه فى يوم القيامة فقد شملته رحمتك وفضلك ، وهذا هو الفوز العظيم بالنجاة من النار وبدخول الجنة .

ألا ما أعظم الصلاح والاستقامة ، والتوبة وطاعة الله ، حيث ينال هذا العبد المؤمن المستقيم محبة الله ، ودعاء الملائكة ، والهداية والفضل والرعاية ، واجتماع شمله مع الصلحاء من آبائه وأزواجه وذريته ، ومغفرة ذنوبه ، وفوزه بالجنة ونجاته من النار .

والخلاصة : أن أكمل الدعاء ما طُلب فيه ثواب الجنة والنجاة من النار .

قال خلف بن هشام البزّار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ... بكى ثم قال : يا خلف ، ما أكرم المؤمن على الله ، نائم على فراشه ، والملائكةُ يستغفرون له .

وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة ، سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إنّى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم قرأ سعيد بن جبير هذه الآية : رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

قال أهل التفسير :

وفائدة استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الصالحين الموعودين بالمغفرة ، زيادة الكرامة والثواب، وبيان فضل الصلاح ، وأن المؤمن الصالح تحبه الملائكة والكون كله ، وهو قدَرُ الله وبركته ومشيئته، ومحل فضله وعنايته .

★ ★ ★

اعتراف الكفار بذنوبهم
والتذكير بقدرة الله وفضله

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

المقت : أشد البغض .

الروح : الوحي .

يوم التلاق : يوم القيامة ، وسمي بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، والمخلوقين بعضهم ببعض .

بارزون : ظاهرون لايسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوها .

تمهيد :

هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة ، فيه تبكيت للكافرين على كفرهم ، بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب ، ثم رغبة الكافر فى الرجوع إلى الدنيا ، وهيهات ذلك ، ثم بيان فضل الله وعظيم نعمائه .

التفسير :

١٠ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ .

حين يرى الكفار جهنم تتلمّظ غَيْظاً على من عصى الله، ويثقون بالمهانة والعذاب الأليم ، فيمقتون أنفسهم ويبغضونها ، لأن الكفر فى الدنيا جرّ عليها عذاب الآخرة ، فتناديهم الملائكة : إن مقت الله لكم فى الدنيا حين أحجمتم عن الإيمان ، كان أكبر وأعظم من مقتكم لأنفسكم فى الآخرة ، ذكر ذلك قتادة ومجاهد والحسن وابن جرير.

١١ - ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ .

الموتة الأولى حيث كانوا فى حالة العدم .

والموتة الثانية فى نهاية الحياة الدنيا .

والحياة الأولى عند ميلاد الطفل .

والحياة الثانية عند البعث والحشر والحساب .

والكلام هنا فيه تلطف فى السؤال ، حيث نجد الكافر يشاهد أهوال القيامة ، فيتمنى الرجوع إلى الدنيا، فلا يجاب إلى ذلك ، فإذا دخل النار ولمس عذابها وعاين أهلها ، تلطّف فى طلب الرجوع إلى الدنيا ، وقال : يا رب ، إن قدرتك على الإحياء والإماتة لا حدّ لها ، فقد أحييتنا بالميلاد فى الدنيا ، وبالبعث فى الآخرة ، أى مرتين ، وأمتّنا قبل وجودنا فى الدنيا ، ثم فى نهاية الحياة الدنيا ، فهل يمكن بأىّ وسيلة أن نخرج من جهنم ، ونعود إلى الدنيا لنعمل صالحا ، ونتدارك ما فاتنا ؟

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، حيث نجد أن الكفار يسألون الله الرجعة إلى الدنيا عند مشاهدة العذاب ، نجد ذلك فى الآية ١٢ من سورة السجدة ، وفى الآيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام ، وفى الآيتين ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة المؤمنون ، وفى الآية ٣٧ من سورة فاطر حيث يقول الله تعالى : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ .

والقرآن الكريم لايجيبهم إلى طلبهم ، بل يخبرهم عن سبب عذابهم فيقول :

١٢ – ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ .

أى : هذا العذاب الشديد وعدم خروجكم من جهنم عائدين إلى الدنيا ، ورفض العودة إليها لأنكم كنتم فى الدنيا إذا دعيتم إلى توحيد الله والإيمان به أعرضتم ، وإذا دُعى الله وحده لا شريك له كفرتم ، وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآزرتموه .

فالحكم اليوم والأمر اليوم بيد الله العلىّ ، صاحب الكبرياء والعظمة ، الذى ليس كمثله شىء، ومن ثم اشتدت سطوته على من أشركوا به ، واقتضت حكمته أن يعذَّبوا فى جهنم ، فلا سبيل إلى خروجكم من جهنم، فقد أعطاكم فرصة سانحة فى الدنيا ، حين خلقكم ورزقكم ، وأرسل إليكم الرسل ، وأنزل إليكم الكتب، فجحدتم الإيمان به ، وكفرتم برسوله ، فاستحققتم عذاب النار، ولا مناص لكم عنها .

١٣ – هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ .

الخطاب فى هذه الآية لجميع البشر ، فالله تعالى يظهر آيات قدرته فى العالم العلوى والعالم السفلى، من آيات ظاهرات فى الشمس والقمر ، والليل والنهار، والسحاب والأمطار ، وخلق الإنسان والحيوان ، وإنبات النبات وتيسير الأرزاق .

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ .

لا يتعظ بآيات الله إلا من تاب إلى الله ، ورجع إليه وصرف نفسه عن الهوى ، وعن طاعة الشيطان، وعن عبادة الأوثان والأصنام .

١٤ – فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ .

فأخلصوا لله وحده العبادة ، فهو الخالق الرازق ، المعطى المانع ، السميع البصير ، الذى بيده الخلق والأمر ، والأصنام لا تملك لكم نفعا ولا ضرا ، فاعبدوه وحده لا شريك له ، ولو كره الكافرون هذا الإخلاص .

أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنّسائى أن عبد الله بن الزبير كان يقول فى دبر كل صلاة حين يُسلِّم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .[١٧]

قال الإمام أحمد : وكان رسول الله ﷺ يهلُّ بهنَّ دبر كل صلاة [١٨] .

قال ابن كثير فى تفسيره :

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» [١٩] .

١٥ – رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ .

هو سبحانه عظيم الشأن والسلطان ، صاحب الرفعة والمقام العالى ، أو هو سبحانه يرفع عباده إلى الدرجات العلى ، وهو سبحانه صاحب العرش العظيم ، والملك الكامل لكل شىء فى الوجود ، وهو الذى ينزِّل القرآن على من يختاره للرسالة ، وقيل : الروح جبريل ، وقيل : الروح الوحى ، وكلها متقاربة ، وإنما سمى الوحى روحا لأن به حياة النفوس ، كما تحيا الأجسام بالطعام، فإن الأرواح تحيا بالوحى ، فالله تعالى يختار للرسالة من يشاء من عباده ، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته .

لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ .

ليخوّف الخلق من الحساب والجزاء فى ذلك اليوم ، الذى يتلاقى فيه الأولون والآخرون، أو آدم وآخر مخلوق فى ذريته ، أو أهل السماوات وأهل الأرض ، أو الخالق والمخلوق ، أو جميع ذلك .

١٦ – يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .

فى هذا اليوم – يوم التلاق – يتلاقى الخلْق والخالق ، فيلقى كل إنسان جزاء عمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وفى هذا اليوم نجد الجميع بارزين ظاهرين بعضهم لبعض ، لا يحجبهم حجاب ولا جبل ، ولا سهل ولا أكمة ، فقد سوِّيت الأرض ، وأزيل منها الجبال والهضاب ، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمْتا ، وحينئذ تسأل الملائكة جميع أهل المحشر : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ . فيجيب الجميع مؤمنهم وكافرهم : لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .

وفى تفسير ابن كثير :

إن إسرافيل ينفخ فى الصور ، فيصعق الناس جميعا ميتين ، فينادى الحق سبحانه وتعالى : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ . ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، فيجيب الحق سبحانه : لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . الإله الواحد لا شريك له، الذى قهر كل شىء وغلبه .

١٧ - ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ .

فى ذلك اليوم – يوم القيامة – يلقى كل إنسان جزاء عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شرا فشرّ ، وفى ذلك اليوم يكون القصاص والجزاء العادل من الله لعباده ، ويقتص للمظلوم من الظالم .

جاء فى «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» للإمام جلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١ هـ ما يأتى :

أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن جابر رضى الله عنه قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ فى القصاص ، فأتيت بعيرا فشددت عليه رحلى ، ثم سرت إليه شهراً ، حتى قدمت مصر فأتيت عبد الله بن أنيس فقلت له : حديث بلغنى عنك فى القصاص ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يحشر الله العباد حفاة عراة غرلا» ، قلنا : ما هما ؟ قال : «ليس معهم شىء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصه منها ، حتى اللطمة» ، قلنا : كيف وأن نأتى الله غرلاً بهما ؟ قال : «بالحسنات والسيئات» ، وتلا رسول الله ﷺ : ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ ...

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : الذنوب ثلاثة : فذنب يُغفر ، وذنب لا يُغفر ، وذنب لا يترك منه شىء . فالذنب الذى يُغفر ، العبد يذنب الذنب فيستغفر الله فيغفر له ، وأما الذنب الذى لا يغفر فالشرك ، وأمّا الذنب الذى لا يترك منه شىء ، فمظلمة الرجل أخاه ، ثم قرأ ابن عباس رضى الله عنهما: ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ . يؤخذ للشاة الجماء من ذات القرون بفضل نطحها .

وتفيد السنّة المطهرة شدة الهول ، ونزاهة القضاء والعدالة فى استحقاق المظالم ، وأخذ كل ذى حق حقّه، وقصاص المقتول من القاتل ، وليس فى ذلك اليوم درهم ولا دينار ، وإنما هى الحسنات والسيئات ، فمن كانت عليه مظالم للعباد ، أخذ العباد منه من الحسنات ما يكافئ مظالمهم ، وإذا فنيت حسناته ، طُرحت عليه من سيئات المظلومين ثم أُلقى به فى جهنم .

قال تعالى : ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ .

فهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، بل يحاسب الناس جميعا فى وقت واحد ، كما يرزقهم فى وقت واحد .

★ ★ ★

من أوصاف القيامة

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

يوم الآزفة : يوم القيامة ، سمى بالآزفة لقربه ، يقال : أزف الرحيل ، يأزف أزفا ، إذا قرب ، فهو من باب تعب.

الحناجر : الحلوق .

كاظمين : ممتلئين غمًّا ، حال كونهم كاتمين مع الضيق .

حميم : قريب أو حبيب يهتم بالأمر .

ولا شفيع : صاحب شفاعة تقبل شفاعته .

خائنة الأعين : الأعين الخائنة التى تختلس النظر إلى المحرّم ، أى : تنظر خفية إلى ما يعاب فى العلانية .

ما تخفى الصدور : ما تكنّه الضمائر .

التفسير :

١٨ - وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .

تعرض الآية مشهداً مؤثرا من مشاهد القيامة ، فقد اشتد الهول بالظالمين ، وعظم الكرب ، وخرجت القلوب من أماكنها ، وتوقّفت فى الحلقوم من شدة الهول ، فلم يتيسر لهم خروج القلوب وتمام الموت ، ولم تتيسّر لهم راحة البال ، واستقرار القلوب فى أماكنها ، وقريب منه قول القرآن الكريم : وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . (الأحزاب : ١٠) .

وهو مجاز عن شدة الكرب الذى أصاب المؤمنين فى غزوة الأحزاب .

ومعنى الآية :

خوّف الكافرين والظالمين من أهوال يوم القيامة ، حيث تصعد القلوب من الهول إلى الرقبة ، ويقف الكافر فى حالة من الغيظ والقهر ، قد كظم غيظه فى قهر وإحباط ، ويئس من النجاة ، ولا أمل من قريب أو حبيب ، أو شفيع يطاع فى شفاعته ، فلا شفاعة للمشركين فى ذلك اليوم ، إذ لله الشفاعة جميعا ، وهؤلاء لم يعملوا عملا صالحا يستحقون به الشفاعة .

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ . (الملك : ٢٧) .

قال قتادة :

إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ...

وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ، وكذلك قال عكرمة والسدّى وغير واحد[٢٠] .

١٩ - يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ .

الله تعالى مطلع على كل شىء ، قد أحاط علمه بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، هو عالم بالسرّ وبما هو أخفى من السرّ وهو مطلع وشاهد على ما فى النفوس ، فليراقب الإنسان خالقه .

قال تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ... (البقرة : ٢٣٥) .

قال ابن عباس فى قوله تعالى : يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ .

هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمرّ به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غضّ بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ لو اطلع على عورتها . رواه ابن أبى حاتم ، وأورده ابن كثير .

وقال مجاهد : هى مسارقة العين إلى ما نهى الله عنه .

أى أنّ الله سبحانه مطلع وشاهد على أفعال العبد ، وما يخفيه فى صدره .

٢٠ – وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

الله تعالى حاكم عادل بيده الخلق والأمر ، والقضاء بين العباد يوم القيامة ، ومجازاة العباد بدون ظلم أو حيف ، وهو قادر فقد خلق الكون وأوجد الوجود ، وأرسل الرسل ، وأوضح لنا الطريق ، أمّا الآلهة المدّعاة والأصنام والأوثان ، فإنها لا تملك شيئا ولا تحكم بشيء .

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

فهو سميع لأقوال خلقه ودعائهم ، بصير بهم ، مطلع عليهم فيهدى من يشاء ، ويُضلُّ من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

٢١ – أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ .

من شأن القرآن أن يتنقل بالمشاهد من بين مشاهد الآخرة إلى مشاهد التاريخ ، فقد كان قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وأمثالهم يملكون أسباب العزة والقوة ، وتمكنوا فى الأرض ، وتركوا فيها آثارا تدل على قوتهم وتفوقهم ، ثم عتوا عن أمر الله ، وكذبوا رسلهم ، واشتد عنادهم ، فلم ينفعهم ما هم فيه من تقدم وعمران ، بل عاقبهم الله بسبب كفرهم ، وأهلكهم بسبب عنادهم ، ولم يكن لهم مانع يمنعهم من عذاب الله.

قال ابن كثير :

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ .

أى : وما دفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا ردّه عنهم راد ، ولا وقاهم واق . اهـ .

والآية تحذير لأهل مكة ، وتهديد ووعيد .

كما قال تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ ... (الأحقاف : ٢٦) .

وقال تعالى : وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ... (الروم : ٩) .

٢٢ – ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

أى : ذلك العذاب الذى أصاب المكذبين قبلهم ، بسبب أن رسلهم كانوا يأتونهم بالدلائل الواضحة ، والمعجزات المؤيدة التى تؤيد صدقهم ، وتبيّن أنهم يبلّغون عن الله ، فقابلوا ذلك بالكفر والكنود والاستكبار ،

فعاقبهم الله بالهلاك المدمر، إنه سبحانه قوى غالب، وعقابه أليم لكل من عصاه، فاعتبروا واتعظوا بما أصابهم، فالسعيد من وعظ بغيره.

★ ★ ★

قصة موسى عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات:

بآياتنا: جمع آية، وهى المعجزات.

وسلطان: حجة وبرهان.

مُبين: ظاهر واضح، والعطف بين الآيات والسلطان لتغاير الوصفين، أى: أعطينا موسى المعجزات زائداً عليها المهابة والجلال والرعاية الإلهية.

فرعون: ملك مصر.

هامان: وزير فرعون.

قارون: كان ثريا باغيا.

ساحر كذاب: يعنون موسى عليه السلام، وفيه مواساة لرسول الله ﷺ.

بـــالـــحـــق : بالصدق .

استحيوا نساءهم : أي : أبقوا النساء على قيد الحياة ، واقتلوا الذكور .

ضـــــلال : ضياع .

وليـدع ربـه : فيه عدم المبالاة بدعاء موسى ربه ، ولعله تجلُّد ظاهرى، بينما يرتعد فى الباطن من دعاء موسى لربه .

أن يبدل دينكم : أن يغير عبادتكم لى بعبادتكم لغيرى .

الـفـســـاد : القتل وإثارة الفتن والتحارب وإفساد الدنيا.

إنى عذت بربى : استعذت واستجرت واعتصمت بربِّى، يقال: استعذت بالله، وعذت به معاذاً وعياذا : اعتصمت .

تمهيد :

تمثل هذه الآيات ألوانا من جهاد المرسلين ، فقد أرسل الله موسى مؤيداً بالمعجزات والبراهين إلى فرعون وقومه ، لكنَّ فرعون رفض دعوته ، واتهمه بالسحر والكذب ، كما فعل كفار مكه حين اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر كذاب ، وفيه مواساة لرسول الله ﷺ ، وكان فرعون قد أمر بقتل الذكور من بنى إسرائيل ، حين رأى فى منامه ناراً تأتى على عرشه فتحرقه ، وفسَّر الكهان ذلك بأن طفلا سيولد فى بنى إسرائيل ، يكون على يديه ذهاب ملك فرعون ، ثم توقَّف هذا القتل ، فلما أرسل الله موسى رسولا ، جدد فرعون الأمر بقتل أبناء المؤمنين ، حتى لا يكونوا عوناً لموسى ، وكان فرعون عاتيا متجبراً ، يأمر بالقتل لأوهن الأسباب، وكان يحاول قتل موسى ، لكن حاشية فرعون تشير عليه بعدم قتل موسى خوفا من عقوبة السماء ، ولعل فيهم من كان يؤمن بصدق موسى ، لكنَّ فرعون يتظاهر بالتجلد ، ويقول لحاشيته : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ليخلِّصه من القتل ، إنى أخاف أن يغير دينكم الذى أنتم عليه ، أو يفسد دنياكم ، وهنا يتحصن موسى بالله ، ويلجأ إليه مستجيرا بقوته من كل ظالم ينسى القيامة والحساب .

التفسير :

٢٣ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ .

من شأن القرآن أن ينوِّع فى أساليب دعوته إلى الحق والإيمان ، وهنا يذكر جانبا من قصة موسى عليه السلام ، حيث أرسله الله إلى فرعون رسولا ، وأعطى موسى الوحى والتوراة والمعجزات ، كما أعطاه الله المهابة والمحبة ، وحفظه من القتل ، وتعهد سبحانه بحفظه ، وقد حكى القرآن تخوُّف موسى وهارون من فرعون فى قوله تعالى : قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ.

(طه : ٤٥ ، ٤٦)

وقال سبحانه : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ . (طه : ٣٩) .

ولعل السلطان المبين هو الحجة الواضحة ، كما يمكن أن يكون إشارة إلى ما منح الله موسى من المحبة والمهابة ، حتى لا يجرؤ فرعون على قتله .

٢٤ - إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ .

أرسلنا موسى إلى فرعون ملك مصر فى تلك العهود ، ويقال إنّه منفتاح بن رمسيس الثانى ، وهامان وزير فرعون ، وقارون أغنى أهل زمانه ، فقال هؤلاء الملأ من قوم فرعون : إن موسى ساحر مخادع ، وما جاء بهذه الآيات والمعجزات إلا سحراً وتمويها على الناس بسحره ، كما أنه كذاب فى ادعائه بأن الله أرسله إلى فرعون وقومه ، وقد خصّ هنا هؤلاء الثلاثة لأنهم رؤساء المكذبين لموسى ، وغيرهم تابع لهم .

وشأن الجبابرة الطغاة عدم الإصغاء إلى الحجة والمنطق ، واللجوء إلى المكابرة والعناد .

٢٥ - فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ .

عندما قال فرعون وملؤه عن موسى إنّه ساحر كذاب ، لم يمنعه ذلك من تبليغ رسالة ربه ، فقدم إليهم حقائق الرسالة وأصولها ، وهى الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونبذ عبادة الأصنام ، وعدم تأليه فرعون .

وحين عجز فرعون وملؤه عن مجابهة الحق الذى جاء به موسى ، أمروا بأن يقتل أبناء المؤمنين بموسى ، خوفا من أن يعضدوه وأن يساعدوه، وأن تترك الإناث أحياء للخدمة والإذلال ، ولكن الله أبطل كيدهم وهزمهم، وأغرق الله فرعون وجيشه ، ونجى موسى وقومه، ليشاهد الناس عاقبة الصبر من المؤمنين ، وعاقبة الطغيان من الكافرين .

قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

ومعنى قوله تعالى :

وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ .

إن عنت فرعون ضدّ موسى وقومه ذهب سدى وضاع ، حيث نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين .

٢٦ - وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ.

كان فرعون إذا همّ بقتل موسى ، قال له مستشاروه : لا تعبأ به ، ما هو إلا ساحر يبطل عمله بعض السحرة ، وقالوا له : إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، حيث يقولون : لابد أن موسى على الحق ، وإن فرعون قد عجز عن معارضته بالحجة .

ولعل فرعون كان يحسُّ أن موسى على الحق ، وما هو بساحر ، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك .

وهذا الفرعون الذى يرتعد من قتل موسى ، يتظاهر بالثبات وعدم الخوف ، فيقول للملأ من قومه : دعونى أقتل موسى، وليدع ربه ليخلّصه منى إن كان إلها حقًا .

ثم يذكر أسباب قتله فيقول :

إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ .

ولما كان الدين أهم عند الناس من الدنيا ، فقد أَلِفُوا ديانة معينة ، تلقنوها صغارا ، ومارسوها كباراً ، فعزف فرعون على أوتار ديانتهم فقال: إنى أخاف أن يبدّل دينكم الذى أنتم عليه ، بديانة يدعو هو إليها ، أو يفسد دنياكم بالفتنة والصراع بين أتباع دينه وأتباع دينكم ، وهكذا يحتال الطغاة لأحكامهم ، بأن هدفهم الصالح العام ، والحرص على المصلحة العامة ، والأمر فى حقيقته هو الخوف من الهداة والدعاة والمصلحين والحرص على سلامة العرش والملك .

٢٧ - وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ .

سمع موسى برغبة فرعون فى قتله ، فالتجأ إلى الله وتحصَّن بجنابه، واستمدَّ منه المعونة والحفظ ، وخاطب موسى قومه فى غيبة فرعون ، وقال لهم : إنى أستعيذ بالله ، وألجأ إليه ، وأتَحَصَّنُ بالرجاء فيه ، والمعونة منه ، فهو ربِّى وخالقى وربكم، فضم جماعة المؤمنين إليه إذْ تآلف الأرواح له شأنٌ كبير فى استجلاب الإجابة ، ومن أجل ذلك شرعت صلاة الجماعة .

مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ .

جعل استعاذته عامة ليست لشخص فرعون ، بل لكل من اتصف بصفات الكبر والتعاظم على الإيمان بالله ، فهذا كِبْر من أسوأ أنواع الكبر ، لأنه تكبر على المتفرد بالعظمة والكبرياء ، فإذا انضم إلى هذا الكبر عدم الإذعان للحق ، وعدم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ، دلّ ذلك على أنه قد بلغ الغاية فى الطغيان ،

فمن اجتمع فيه التكبر، والتكذيب بالجزاء، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل القسوة والجرأة على الله سبحانه.

٢٨ - وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

هذا رجل من آل فرعون قبطي أخفى إيمانه عن قومه، وآمن بموسى سرًّا، وكان ذلك من أسباب استماع فرعون إلى نصيحته، والكفّ عن قتل موسى، قال لهم: كيف تجرؤون على قتل رجل، وإزهاق روح إنسان كل تهمته أنه يقول: ربِّي الله، أي الإله الذي خلق الناس جميعا، وهو حرٌّ في اعتقاده كما أنكم أحرار في اعتقادكم، وهذا الرجل إذا كان كاذبا فإنه يتحمّل مسئولية كذبه، ولا يضيركم في شيء، وإن يكن صادقا في قوله، وأنه رسول من عند الله، يصبكم بعض الذي يعدكم به من الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وقد تلطف في القول معهم، وسلك مسلك الملاينة، وقدّم احتمال كذب موسى استدراجًا لهم، واستجلابا لاستماعهم.

وقد روى البخاري أن عقبة بن أبي معيط خنق رسول الله ﷺ وهو ساجد خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فدفع عقبه بن أبي معيط عن رسول الله ﷺ وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم [٢١].

وقال الإمام علي: أشجع الناس أبو بكر، لقد دافع عن رسول الله مثل دفاع مؤمن آل فرعون، بيد أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وأبو بكر أعلن إيمانه، وبذل ماله ودمه في سبيل الله.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

أي: لو كان موسى مسرفا كذابا، ما هداه الله إلى إعلان رسالته، وتأييده بالمعجزات، وإعطائه السلطان المبين، ولو كان كذابا لخذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله.

وفي هذه الفقرة تعريض بفرعون وملئه، فإن إسرافهم في القتل وكذبهم على الله، أو تكذيبهم لرسله، يُعرِّضهم لعدم هداية الله لهم إلى السبيل الصواب ومنهاج النجاة.

★ ★ ★

ألوان من الحجج والبراهين

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

ظاهرين فى الأرض : غالبين عالين على بنى إسرائيل فى أرض مصر .

من بأس الله : من عذاب الله .

ما أريكم إلا ما أرى : ما أشير عليكم إلا بما أشير به على نفسى ، وهو قتل موسى.

إلا سبيل الرشاد : إلا طريق الصلاح والصواب .

يا قوم : يطلق القوم على الرجال ليس فيهم امرأة ، والواحد: رجل أو امرأة من غير لفظه.

مثل يوم الأحزاب : أيام الأمم الماضية ، أى : وقائعهم .

الأحزاب : الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذّبوهم .

مثل دأب قوم نوح : مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر ، وإيذاء الرسل ، حيث عذبهم الله واستأصلهم.

يوم التناد : يوم القيامة، ينادى بعضهم بعضا للاستغاثة ، ويكثر فيه نداء أصحاب الجنة، وأصحاب النار.

مدبرين : منصرفين عن موقف الحساب إلى النار.

يـــــوســـــف : هو يوسف بن يعقوب عليه السلام .

هـــــلــك : مات .

من هو مسرف مرتاب : مشرك مستكثر من المعاصى ، شاك فى وحدانية الله.

ســـلـــطـــان : حجة قوية وبرهان ظاهر .

كبر مقتا عند الله : عظم جدالهم بغضا عند الله .

كذلك يطبع الله : كما ختم الله على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يختم على كل قلب متكبر جبار ، حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق .

تمهيد :

ما أحرص هذا المؤمن الذى كتم إيمانه عن قومه ، وأخذ يقدم إليهم النصائح المفيدة والحجج البينة، وتتمثل فى هذه الأمور :

١ – موسى يقدم دعوة فلا يجوز أن يُقتل ، بل تناقش أفكاره بالحجة ، فإن كان كاذبا فعلى نفسه وبال كذبه ، وإن كان صادقا وقتلناه أصابنا بعض عقاب الله ، [ويطلق البعض ويراد به الكل ، أو المراد على الأقل البعض] .

٢ – المُلك لكم اليوم ، والغلبة والسلطان ، وذلك يحتاج إلى شكر للنعمة ، وإلاّ تعرضنا لبأس الله وعذابه.

٣ – أُحذركم نقمة الله ، التى أصابت الأمم التى تجرَّأت على رسلها وكذبتهم ، فنزل الغرق بقوم نوح، والهلاك بعاد وثمود ، والخسف بقوم لوط ، وكان العقاب عادلا غير ظالم ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

٤ – أحذركم يوم القيامة حيث تساقون إلى النار ، ما لكم من الله من عاصم ولا نصير .

٥ – أذكِّركم تكذيب آبائكم ليوسف الصديق ، وقد أيَّده الله بالمعجزات الظاهرة ، حتى إذا مات قال أجدادكم: لن يجىء رسول من بعده ، عناداً وكفرا .

٦– الجدال فى آيات الله بالباطل يعرض صاحبه لمقت الله وغضبه ، كما يعرضه لمقت المؤمنين وغضبهم، ويعرضه لأن يسلب الله عنه الهدى ، ويتركه ضالا متحيرا ، لا يهتدى إلى الإيمان ولا يجد برد اليقين .

التفسير :

٢٩ - يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ .

يا قومي ويا عشيرتي ، أنتم اليوم تتمتعون بملك مصر ، ولكم الغلبة والدولة والعلوّ على بني إسرائيل ، وإنّي أحذركم من قتل موسى ظلما ؛ فنستحق حينئذ بطش الله الشديد ، الذي لا يغلبه غالب .

وتوجه إليهم بهذا الاستفهام الإنكارى قائلا: فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ؟

أي : من يمنعنا من عقوبة الله وعذابه إذا نزل بنا ؟

والجواب : لا أحد .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٢) .

قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ .

أي : قال فرعون معقبا على نصيحة هذا المؤمن : ما أريكم من الرأي والنصيحة إلا ما أراه لنفسي ، وما أشير عليكم إلا بالذي أراه وأستصوبه لنفسي من قتل موسى ، وما أقدم لكم إلا طريق الصواب والصلاح، فأنا لا أغشكم ، ولا أظهر لكم خلاف ما أبطن ، وقد كَذَبَ فرعون وغشّ أمته في ذلك ، وسيلقى عقوبة الحاكم الغاشّ لأمته ، حين يملأ ركنا من أركان جهنم ، ولا يجد ريح الجنة ، لقد كان فرعون يرتعد فرقا من قتل موسى ، ويتظاهر بالتجلد .

٣٠ - وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ .

ويا قوم إني أخاف عليكم إذا كذّبتم موسى وآذيتموه ، أن يصيبكم من العذاب ما أصاب الأمم التي تحزّبت على رسلها ، وكذبتهم فأهلكهم الله بالعذاب .

٣١ - مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ .

أي : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح ، حين كذبوا نوحا فأغرقهم الله ، ومثل عاد الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، ومثل ثمود الذين أهلكهم الله بالطاغية ، ومثل قوم لوط الذين دمّر الله عليهم قريتهم ، وجعل عاليها سافلها ، هؤلاء وأشباههم كذّبوا رسلهم ، فاستحقوا عذاب الله عقاباً عادلا على تجرؤهم على الرسل ، وعلى كفرهم بالله ورسله ، والله تعالى عادل منصف ، فلا يعاقب إلا بذنب ، وهو سبحانه لا يريد أن يظلم العباد ، لأنه كريم حليم .

وفى هذا المعنى قال تعالى : مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ... (النساء : ١٤٧) .

وقال سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

٣٢ – وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ .

إنّى أشفق عليكم من عذاب يوم القيامة ، حين ينادى أهل الجنة أهل النار ، وحين ينادى أهلُ النار أهل الجنة ، وحين ينادى أصحاب الأعراف أهل النار ، كما ورد فى الآيات ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ من سورة الأعراف، وفى ذلك اليوم تنادى الملائكة أهل السعادة لدخول الجنة ، وعلى أهل الشقاء لدخول النار ، فلفظ التناد – بتخفيف الدال ، وحذف الياء – تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضا .

٣٣ – يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ .

قال الضحاك :

إذا سمع الكفار زفير جهنم فرّوا هرباً ، باحثين عن ملجأ يقيهم ويمنعهم من النار ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا ، فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذْ سمعوا مناديا : أقبلوا للحساب .

والمعنى :

يوم تفرّون هاربين ، ليس لكم ملجأ ولا عاصم يعصمكم ويمنعكم من عذاب الله .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ .

من غضب الله عليه لسوء عمله ، فلن يجد هاديا يهديه ، بعد أن سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، فأصبح حائرا ضالاً ، مظلم القلب معصوب العين ، حيران لا يهتدى إلى الحق والصواب .

٣٤ – وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ .

كان بين رسالة يوسف ورسالة موسى أكثر من أربعة قرون ، وكان يوسف على خزائن أرض مصر ، وأعطاه الله الرسالة والدعوة إلى توحيد الله ، ولقى من قبط مصر ما لقيه الرُّسل من الشك والارتياب ، وكان الله قد أعطى يوسف تفسير الرؤيا ، وغير ذلك من المعجزات ، والبينات المؤيدة لرسالته ، وقد قابله أهل مصر بالكنود مع شىء من المجاملة لتمتعه بالوزارة ، حتى إذا مات يوسف داعيا الله قائلا :

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ . (يوسف :١٠١) .

وهنا يذكِّر الرجل المؤمن معاصريه بأن أجدادكم قابلوا رسالة يوسف بالشك والارتياب ، حتى إذا مات يوسف قال الأجداد : لن يبعث الله من بعده رسولا إلينا ، وقد استرحنا منهم ، وهذا لون من الإسراف فى العصيان والتمرد على التوحيد ، والارتياب فى صدق الرُّسل .

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ .

أى : مثل ذلك الإضلال الشديد يضلّ الله به من أسرف فى تقليد الآباء ، وتشكك فى هدى السماء ، ولم يفتح قلبه لوحى الله ، وللدعوة إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

٣٥ - ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ .

كأنى بمؤمن آل فرعون وقد حرص على هداية قومه واستمالتهم ، فقدم لهم عددا من الأدلة والبراهين تحثهم على الإيمان برسول الله موسى ، فهو يخوفهم بطش الله حينا ، ويذكّرهم بما أصاب المكذبين للرسل حينا ، ويذكرهم بأهوال القيامة حيناً ثالثا ، وبسيرة يوسف الصديق مع أجدادهم ، وهنا يوضّح أن الجدال نوعان :

١- جدال لاستيضاح الحق ، فهو نقاش يتبين منه الإنسان ما يريد أن يستوضحه ، وقد كان النبى ﷺ يسمح لأصحابه بمثل هذه المناقشة ، ويردّ عليهم بما يقنعهم .

وقد أشار عليه أحد أصحابه فى غزوة بدر باتخاذ موقع أكثر قرباً من الماء ، وأكثر ملاءمة للمعركة فقبل مشورته ، وفى غزوة الخندق سمع مشورة الأنصار فى عدم إعطاء هوازن ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك. وكان ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه مع أن الوحى ينزل عليه ، ومع ذلك كان يقول: «أشيروا علىّ أيها الناس» [٢٢] .

٢- جدال يراد به المكابرة بدون حجة صالحة لا نقلية ولا عقلية ، وهو جدال ممقوت ، يحمل عليه الكبر والتعصب والتقليد الأعمى .

ومعنى الآيـة :

لله تعالى رسالات سماوية ، وأدلة عقلية بثّها فى هذا الكون ، فهناك من يستجيب لهدى السماء ، لكن من يتكبر عن قبول الحق ويتجبر بالباطل ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله ، وعند الذين آمنوا .

قال الزجاج :

المراد بالذين يجادلون كل مسرف مرتاب ، وهم يجادلون فى الله بغير حجة صالحة للتمسك بها ، لا هى حجة نقلية أتتهم من جهته تعالى على أيدى الرسل ، ولا هى حجة عقلية استنبطوها من الكون . ا هـ .

أى أن هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة ، فهؤلاء المسرفون المرتابون فى هدى السماء ، من شأنهم الجدال فى آيات الله بغير سلطان ، وعليهم غضب الله تعالى ، وغضب الذين آمنوا .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

وهذه الصفة – وهى الجدال بالباطل بدون برهان – موجودة فى فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم ، وأبرز ذلك فى صورة تذكّرهم ، فلم يخصهم بالخطاب ، وقوله : كَبُرَ مَقْتًا . ضرب من التعجب والاستفهام لجدالهم ... ا هـ .

أى : ما أكبر غضب الله عليهم ، وما أعظم مقت المؤمنين لهم .

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ .

أى : مثل ذلك الطبع العجيب يطبع الله تعالى ، ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متطاول ومتجبر على خلق الله تعالى بالعدوان والإيذاء .

★ ★ ★

استمرار الرجل المؤمن فى محاورة قومه

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

ابن لى صرحا : بناءً عاليا كالقصر ، من صرح الشيء إذا ظهر .

أبلغ الأسباب : الأبواب أو الطرق .

تباب : خسران وهلاك ، ومنه : تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . (المسد : ١) . أى : هلكت أو خسرت .

سبيل الرشاد : أدلكم على طريق الهدى وهو الجنة ، أو طريق الصواب والسداد .

متاع : تمتع يسير لسرعة زوالها ، يُتمتع بها زمنا قليلا ثم تزول .

دار القرار : دار البقاء والدوام والخلود .

سيئة : خطيئة .

بمثلها : بما يعادلها .

بغير حساب : بغير تقدير وموازنة ، بل أضعافا مضاعفة .

ما ليس لي به علم : ما لم يقم على ربوبيته دليل ولا برهان .

لا جرم : حُقّ وثبت ، أو لا محالة .

ليس له دعوة : مستجابة أو استجابة دعوة .

مردنا إلى الله : رجوعنا بعد الموت إليه تعالى .

المسرفين : المجاوزين الحدّ .

حاق : أحاط أو نزل .

غدوا وعشيا : صباحًا ومساءً ، أو دائمًا في البرزخ ، والمراد به : عذاب القبر ، حيث يشاهدون مكانهم في جهنم.

أشد العذاب : عذاب جهنم .

تمهيد :

هذه مرحلة أخيرة في عنت فرعون وتضليله لمن معه ، حيث طلب من هامان أن يبني له بناء عاليًا ظاهرًا مكشوفًا ، ليتلمَّس طريقه إلى السماء ، أو لينتقل من سماء إلى سماء حتى ينظر هناك إلى إله موسى، لكن الله أفشل كيده ، وانتهى أمره إلى الغرق ، بينما نجد مؤمن آل فرعون ينصح قومه بأتباعه ، فهو يدعوهم إلى أسباب الهدى والرشاد ، وهم يعرضون عليه الكفر المؤدِّي إلى النار ، ويبين لهم أن الدنيا فانية ، وأن الآخرة باقية ، وأن الله هو الإله الواحد ، وأنّ ما عداه من الأوثان والأصنام أو فرعون ليس له أثر أو دعوة مستجابة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية ، وسيتذكرون نصيحته عند رؤية البعث والحشر والجنة والنار .

وقد حاول قوم فرعون إيذاء هذا المؤمن ؛ فتحصّن بقدرة الله ، والتجأ إلى الله القوى العزيز ، فحفظه الله منهم ، أما آل فرعون فقد أهلكهم الغرق ، وهم يشاهدون منازلهم في جهنم كل يوم بالغداة والعشى ، وفي يوم القيامة يدخلون أشد ألوان العذاب جزاء كبرهم وعتوهم وظلمهم .

التفسير :

٣٦- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ .

بعد أن قدّم مؤمن آل فرعون نصيحته حاول فرعون البحث عن مخرج ، وحاول إيهام الناس أنه يريد أن يبحث عن إله موسى .

فطلب من هامان أن يبنى له صرحًا عاليًا مكشوفًا ليشاهده من يراه ، يحاولُ البحث عن الطرق والأبواب التى يتوصل بها لرؤية إله موسى .

٣٧- أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

أى : لعلّى أصل إلى طرق السماء أو أبوابها ، فإذا وصلت إليها بحثت عن إله موسى .

«وهو لا يريد بذلك إلا التمويه والتخليط والتلبيس على قومه ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودًا لكان له محلّ ، ومحله إمّا فى الأرض وإما فى السماء ، ولم نره فى الأرض فينبغى أن يكون فى السماء ، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلم» [٢٢] .

وما عَلِمَ هذا الفرعون أن الله تعالى لا يحدّه مكان ، فالإله سبحانه ليس كمًّا ولا كيفا وليس له طول أو عرض ، بل هو علة العلل ، وهو سر وجود الكون .

قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

ويمثل هذه المغالطة : زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

لقد زين الشيطان لفرعون عمله الردىء فى تكذيب الحق والمغالطة ، وخداع الجماهير حتى تظل تابعة له ، وقد سلبه الله الهدى ؛ فعاش ضالا عن سبيل الحق ونور الإيمان .

وقد أحبط الله كيد فرعون ، وثَلّ عرشه ، ومات غريقا فى ماء النيل ، ونجّى الله جثته لتحنّط وتظل آية وعبرة لكل الظالمين .

٣٨- وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ .

قال هذا المؤمن لقومه : اتبعوا نصيحتى حتى أدلكم على طريق الرشاد والخير ، وهو اتباع دين الله الذى جاء به موسى .

٣٩- يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ .

ما أخلص هذا المؤمن لدينه ولقومه ، حيث يفتح عيون القبط المصريين على أنّ الدنيا فانية ، ومتعتها زائلة ، وأن الآخرة هى الحياة الباقية ، ودار الاستقرار والخلود والدوام .

٤٠- مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

من عدالة الله تعالى أن يكافئ على السيئة بالسيئة بدون زيادة ، أما المؤمن إذا عمل عملاً صالحا – سواء أكان ذكرًا أم أنثى – فإن الله يدخله الجنة ، ويتمتع فيها بألوان النعيم ، حين يرزقه الله فيها بغير حساب ، بل بكرم الله وفضله وعدله ومعونته الإلهية .

وهذا تفضل من الله على عباده ، أن يضاعف الحسنات إلى أضعاف مضاعفة لايعلمها غيره ، بينما السيئات لايجازى عليها الإنسان إلا بمثلها .

٤١- وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ .

ونجد هذا المؤمن يتحبب إلى قومه ، ويدخل عليهم من كل باب ، ويكرر كلمة : يا قوم ؛ ليذكرهم بأنه منهم ، وأنهم قومه ، أى : عزيز عليه هلاكهم ، حبيب إليه هدايتهم .

ومعنى الآية :

ما لكم يا قوم ؟ أخبرونى عن حالكم معى ، فأنا أدعوكم إلى طريق النجاة من غضب الله وعذابه ، وذلك بتوحيد الله سبحانه ، وعبادته وحده لا شريك له ، وتصديق رسوله المبعوث إليكم من عند ربكم ، وتدعوننى إلى عمل أهل النار بعبادة الأوثان والشرك والعصيان .

٤٢- تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ .

تدعوننى لأنكر وحدانية الله ، وأشرك به آلهة أخرى باطلة زائفة لم يقم دليل على ألوهيتها ، ولا علم لى من وجه صحيح على أهمية هذه الآلهة ، فهى لم تخلق هذا الكون ، ولم توجد السماء أو الأرض ، أو الليل أو النهار ، أو الشمس أو القمر .

بينما أنا أدعوكم إلى العزيز الغالب ، القاهر الخالق ، الذى يقهر المبطلين الظالمين ، وهو سبحانه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى .

٤٣- لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ .

أى : حقٌ وثبت وصحَّ عقلاً وواقعًا أن الذى تدعوننى إليه من عبادة الأوثان ليس له أى دعوة مستجابة، فلا يجيب داعيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لأنه جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر.

وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ .

وأن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة ، حيث يكون الجزاء الحسن للطائعين العابدين المخلصين ، أما من أسرف فى المعاصى وأشرك بالله ، وتعدَّى حدود الله ، وانغمس فى الشرك والوثنية ؛ فإنه من أصحاب النار ، الخالدين فيها بإسرافهم .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر : ١٤) .

وقوله سبحانه : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ . (الأحقاف : ٥ ، ٦) .

٤٤- فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ .

فستعلمون صدق ما دعوتكم إليه ، وتتذكرونه يوم القيامة ؛ فتندمون على عدم استجابتكم لى حيث لا ينفع الندم . أى : غدًا يوم القيامة ، ستعلمون صدق دعوتى ، وسوء عاقبة الإعراض عن هداية الرسل .

وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ...

وسوف أتوكل على الله مفوضًا إليه أمرى ، مستعينا به ليعصمنى من كل سوء فى مقاطعتى لكم ومباعدتكم .

إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ .

مطلع على شئونهم ، ومحاسبهم على أعمالهم ، فأنا أَكِلُ إليه أمرى ، راجيا هدايته وتوفيقه لى فى الدنيا ، آملاً ثوابه يوم القيامة ، فلله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، والقدرة النافذة .

قال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه .

٤٥- فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ .

فنجى الله هذا المؤمن وحفظه من قوم فرعون ، حيث رغبوا فى قتله فحفظه الله منهم ، كما نجى موسى ومن آمن معه ، أما قوم فرعون فقد أهلكهم الله تعالى ، حيث غرقوا وهلكوا وتعرضوا لعذاب الدنيا، وأشد عذاب الآخرة .

٤٦- ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ .

يعذّب آل فرعون فى قبورهم ، فتُعرض أرواحهم على جهنم فى الصباح والمساء ؛ لتزداد حسرتهم بمنازلهم فى النار ، وفى يوم القيامة يدخلون أشد العذاب فى جهنم .

وتفيد الآية عذاب القبر ونعيمه ، حين تخرج الأرواح إلى البرزخ ، وتجد من ألوان السعادة والنعيم فى القبر ، حيث تعرض الروح على الجنة فى الصباح والمساء ؛ لتشاهد المنزلة التى أعدت لها يوم القيامة ، أما الكفّار فإن أرواحهم تُعرض على جهنم بالغداة والعشىّ ؛ لترى المنزلة التى ستكون عليها الروح بعد البعث.

وقد ذكر الشيخ محمد عبده أنّ عذاب القبر ونعيمه أشبه بما يراه النائم حين نومه ، فقد نجد اثنين فى سرير واحد ، يقوم أحدهما مذعورًا كئيبًا وجِلاً مما شاهد ، بينما نجد الثانى يقوم من نومه مستبشرا فرحا سعيدًا بما شاهده من ألوان المسرة والنعيم .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشىّ ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» ، ثم قرأ ﷺ : ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ... [٢٤] .

وروى ابن أبى حاتم ، والبزار فى مسنده ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلاّ أثابه الله تعالى» ، قلنا : يا رسول الله ، ما إثابة الكافر؟ فقال : «إن كان قد وصل رحما ، أو تصدق بصدقة ، أو عمل حسنة أثابه الله تعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك» ، قلنا: فما إثابته فى الآخرة ؟ قال ﷺ : «عذابًا دون العذاب» وقرأ : أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ .

قال جمهور المفسرين : هذه الآية تدل على عذاب القبر ونعيمه فى الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ .

★ ★ ★

المناظرة بين الرؤساء والأتباع

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

المفردات :

المحاجّة : المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر.

الضعفاء : الأتباع والمرءوسون .

للذين استكبروا : القادة والسادة أولو الرأى فيهم .

التبع : واحدهم تابع ، كخدم وخادم .

مغنون : حاملون أو دافعون .

نصيبا : قسطًا وجزءا .

حكم : قضى وفصل .

خزنة جهنم : القوّام على تعذيب أهلها .

بالبينات : بالمعجزات والآيات .

بلى : نعم جاءونا .

ضلال : ضياع وبطلان .

الأشهاد : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، والمراد : الأنبياء والحفظة ، ويوم يقوم الأشهاد : هو يوم القيامة.

اللعنة : الإبعاد والطرد من رحمة الله .

ولهم سوء الدار : ولهم شدة عذاب الآخرة في جهنم .

تمهيد :

تعرض الآيات مشهدا من مشاهد القيامة ؛ حيث يعاتب الضعفاء الكبراء ، لأن الكبراء زيّنوا للضعفاء السير خلفهم ، واتباعهم فاتبعوهم كالأغنام ، بدون أن يُعملوا عقولهم . وبعد خراب البصرة ودخول جهنم، يُقرّع الأتباعُ المتبوعين ، فيقولون لهم : لقد اتبعناكم ، ودخلنا جهنم بسبب سيرنا خلفكم ، فهل تتحملون عنا جانبا من عذاب جهنم ؟

وهنا يقول الكبراء : إن العذاب لنا جميعا في جهنم ، نحن وأنتم في دركات النار ، ولو نملك تخفيف العذاب لخففناه عن أنفسنا ، إن الله قد قضى بأن يعذب جميع الكفار في النار ، وحين يئس الكفار جميعا من تخفيف العذاب ، اتجهوا إلى حرّاس جهنم يستشفعون بهم إلى الله ، حتى يخفف عنهم يوما واحدًا من العذاب، ليستريحوا قليلا ، ويستعدوا لعذاب يوم مقبل ، وتوجّه خزنة جهنم بسؤال توبيخ إلى الكفار : هل جاءتكم الرسل بالمعجزات والأدلة الواضحة على صدقهم وصدق الوحي والبعث ؟ قالوا : بلى جاءت الرسل بهذه الأدلة لكنّا لم نصدقهم وكذبناهم ، عندئذ انسحب الملائكة من الشفاعة والدعاء لهم ، وقالوا : ادعوا أنتم لأنفسكم، ولن يسمع لكم دعاء ، لأن دعاءكم في ضياع وخسران .

التفسير :

٤٧ - وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ .

واذكر يا محمد لقومك هذا الموقف ليعتبروا ويتعظوا به ، حين يقوم جدال وخصام بين الضعفاء التابعين والأقوياء المتبوعين ، يقول فيه الضعفاء للكبراء : لقد اتبعناكم وسرنا خلفكم على وعد منكم بهدايتنا وقيادتنا إلى الفلاح ، وها نحن الآن نلقى عذاب جهنم بسببكم ، فهل تتحملون عنا جانبا منه ، أو تشفعون لنا لتخفيف جزء من العذاب عنّا ؟ وهو سؤال تبكيت وتقريع ؛ لأن الضعفاء يشاهدون الكبراء أمامهم يعذبون مثلهم أو أشد منهم .

٤٨ - قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ .

أجاب الكبراء والقادة قائلين : لو كنّا نملك الشفاعة أو تخفيف العذاب عنكم لأتينا بذلك لأنفسنا ، فنحن جميعا نعذّب في جهنم ؛ لأن الله تعالى قد قضى وألزم بأن يلقى كل إنسان جزاء عمله ، وأن يعاقب

على اختياره وسعيه ، لقد كانت لكم عقول واختيار فألغيتم عقولكم ، وسرتم خلفنا بدون تبصر أو روية ، فتحملوا جزاء اختياركم ، فقد قضى الله تعالى بدخول أهل الجنة الجنةَ ، كما قضى بدخول أهل النار النار ، وقدّر لكل منّا ومنكم عذابا لا يُدفع عنه ، ولا يتحمله عنه غيره .

٤٩ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ .

عندما يئس الصغار والكبار من تخفيف العذاب عنهم ، اتجهوا إلى جهة أخرى ، حيث ذهبوا إلى خزنة جهنم والقائمين على تعذيب الكفار ، وقالوا لهم : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يومًا واحدًا من العذاب ، حتى نستريح قليلا ، ونستعد فى ذلك اليوم لما يُستقبل من العذاب .

٥٠ - قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ .

أى : قالت الملائكة للكافرين على سبيل التقريع والتوبيخ : ألم يرسل الله إليكم رسلاً معهم معجزات وآيات ظاهرة تؤكد صدقهم ؟ قال الكفّار لخزنة جهنم : بلى جاءت لنا الرسل ، ومعهم المعجزات البينات ، لكننا لم نسمع سماع تأمُّل ، ولم نتفهم ولم نتعقل لرسالتهم ، وأعرضنا عن اتباعهم ، عندئذ قالت الملائكة لهم : إذا كان هذا شأنكم فادعوا أنتم لأنفسكم ، ودعاؤكم ضائع باطل لا أمل فى إجابته .

وعندئذ يصاب الكافرون بشدة الخذلان والإحباط ، فهم فى جهنم لم يجدوا عونًا من القادة والرؤساء، ولم يجدوا عونا من خزنة جهنم ، ولم يبق أمامهم إلا صنوف العذاب ، جزاء اختيارهم الضلال وتركهم الهدى.

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . (الزمر : ٧١) .

وقوله سبحانه : تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ . (الملك : ٨ ، ٩) .

والآيات تفتح عيون الناس جميعًا على هذه المواقف قبل أن يقعوا فيها ، وحتى ينقذوا أنفسهم من النار قبل ضياع الفرصة ، والندم بعد فوات الأوان .

قال تعالى : وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (الملك : ١٠ ، ١١) .

٥١- إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ .

هذه الآية تقرير لحقيقة عظمى ، أى : ومن سنتنا أن ننصر رسلنا والذين آمنوا بهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

أما نصر الرسل فى الدنيا فيكون بتوفيقهم فى تبليغ الرسالة ، وإقامة الحجة ، واستمالة الأتباع ، ورعاية المؤمنين ، وذلك بشرح الرسالة ، وتعميق ألوان الهداية .

ونصر الرسل قد يكون حسيًا ، كما نجده فى غرق فرعون ونجاة موسى ، وكما فى نجاة نوح ومن جاء بعده من المرسلين ، وكما فى انتصار محمد ﷺ فى غزوات بدر وأحد والخندق والحديبية وفى فتح مكة وفى حنين ، بعد أن خرج فى الهجرة ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فالنصر قد يكون قريبا ، وقد يتأخر النصر لحكمة.

وقد يكون النصر معنويا ، وذلك باقتناع المؤمنين بالدعوة ، وتحملهم الموت فى سبيل الحق ، فَوَضْع إبراهيم فى النار انتصار له ، ونجاته من النار انتصار آخر ، وامتثال إبراهيم لذبح إسماعيل انتصار ، ونجاة إسماعيل وذبح الفداء انتصار آخر ، وقصة أصحاب الأخدود تحكى استبسالهم وانتصارهم بعقيدتهم ، وموت يحيى بن زكريا ثم الانتقام من قاتليه انتصار ، واستشهاد الحسين ، ثمّ توجّع الناس لهذه الشهادة انتصار، حتى قال بعض المؤرخين : نصر الحسين ميتا أكثر منه حيًّا ، فالنصر فى الدنيا قد يكون حسيا ، وقد يكون معنويا .

لقد مات رسول الله ﷺ والإسلام لا يزال فى بلاد العرب ، ولم تمض عشر سنوات على وفاته حتى فتح المسلمون بلاد الفرس وبلاد الروم ومصر وغيرها .

أما النصر فى الآخرة فهو النصر الحقيقى ، بدخول المؤمنين الجنة ، ودخول الكافرين النار ، بعد أن يقوم الرسل بالشهادة على أممهم ، بأنهم بلغوهم الرسالة ، وتشهد أيضًا الملائكة للرسل بتبليغ الرسالة ، وللمؤمنين بأداء الأمانة ، كما تشهد على الكفرة بالتكذيب والجحود .

قال تعالى : وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ .

وهم الرسل والملائكة ، عند جمع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

٥٢- يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ .

فى ذلك اليوم العظيم ينال الظالمون العذاب الأكبر ، ويلقون الهوان والذلّ ، ولا يقبل منهم اعتذارهم، وتحلّ عليهم اللعنة والطرد من الرحمة ، ويدخلون جهنم التى يسوؤهم ويشقيهم عذابها ، وينالون المذلة فى أسوأ دار وهى جهنم ، فدارهم دار شقاء وعذاب ومهانة .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . (المرسلات : ٣٦) .

أي : ليس لهم عذر مقبول فيلتفت إليهم ، لأن أعذارهم ساقطة وجاءت في غير وقتها ، لذلك فقد رفضت أعذارهم .

★ ★ ★

جانب من قصة موسى

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

الهدى : مايهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع .

الكتاب : التوراة.

الألباب : العقول ، جمع لُبّ.

العشيّ : من نصف النهار إلى آخره .

الإبكار : من أول النهار إلى نصفه .

يجادلون : يخاصمون في آيات الله بالباطل .

سلطان : برهان وحجة .

إن : بمعنى ما .

كبر : تكبر عن الحق .

ما هم ببالغيه : ببالغي مرادهم .

فاستعذ بالله : فالتجئ إليه من شرّهم .

التفسير :

٥٣، ٥٤ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ .

تالله لقد أعطينا موسى التوراة والنبوة ، فاشتملت التوراة على الأحكام والشرائع الهادية لقومه، وتأيدت نبوته بالمعجزات الظاهرة، كاليد والعصا، ثم أبقينا التوراة بعد موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل، يتوارثها الخلف عن السلف ، هداية لهم وتذكرة لذوى العقول الصحيحة السليمة .

قال تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ... (المائدة : ٤٤) .

٥٥ – فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ .

أى : إذا علمت أن النصر من عند الله ، وأنه تعهد بنصر المرسلين ، وبنصر المؤمنين ، وقد نصر موسى وأغرق فرعون ، فَدُمْ يا محمد على الصبر والثبات ، وتَحمّل أذى المشركين ، واثقا أن وعد الله بالنصر حق ثابت لا ريب فيه ، وللصبر ثمن هو تزكية النفس والتوبة النصوح ، فاستغفر الله كثيرا من ذنبك ، أو من فعل خلاف الأولى ، وهذا الاستغفار إما أن يكون لرفع درجة الرسول ﷺ ، وإما أن يكون لتعليم أمته .

وفى الحديث الشريف : «إنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم والليلة مائة مرة»[٢٠] .

وداوم على ذكر الله وتسبيحه وتحميده أثناء النهار، بِٱلْعَشِىِّ . فى النصف الأخير من النهار، وَٱلْإِبْكَٰرِ. فى النصف الأول من النهار.

قيل : المراد صلّ الوقتين – صلاة العصر وصلاة الصبح – أو صل الصلوات الخمس ، كما قال تعالى: وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ... (هود : ١١٤) .

وفى الآية دليل على أهمية الصبر والاستغفار ، وذكر الله تعالى والالتجاء إليه ، وكلها وسائل النصر والظفر ، وقد أشار الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير إلى وجوب البدء بالتوبة النصوح ، وتخلية القلب مما لا ينبغى ، ثم تنزيه الله تعالى عما لا يليق به .

حيث قال تعالى : وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ...

أى : استغفر أولا ، واذكر الله ثانيا ، رفعا لدرجتك ، وتعليما لأمتك ، وخصّ العشى والإبكار لأن القلب يكون فى المساء والصباح فى حالة تهيؤ واستعداد لذكر الله وتعظيمه ، وتعداد نعمه وشكره ، أو المراد : اذكر الله فى كل وقت وآن .

وكان ﷺ يسبِّح الله فى الركوع ، ثم يقول : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى» ، يتأوَّل القرآن .

٥٦ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

إن الذين يكابرون ويمتنعون عن قبول الحق ، ويردُّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ، ما فى صدورهم إلاَّ كبر عن اتباع الحق ، وأنفة من هدى الرسل، واحتقار لأنبياء الله ، وتكبّر عن السير وراء هدى السماء ، وليس ما يرومونه من إخماد نور الحق ، ورفع راية الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع ، وتكبرهم وعنادهم هو الموضوع ، فاستعذ بالله من شرورهم ، والجأ إليه سبحانه وتحصَّن بحماه من كيدهم ، فهو سبحانه سميع لدعائك ، بصير بمكرهم وكيدهم ، ومن سنته أن ينصر المتقين ، وأن يخذل الكافرين .

★ ★ ★

تأمل ودعاء

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات:

الأعمى والبصير : الغافل والمستبصر .

الساعة : القيامة .

لا ريب فيها : لاشك فى وقوعها وحدوثها .

داخرين : صاغرين أذلاء .

التفسير :

٥٧ – لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

كان الكفار ينكرون البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويستبعدون الإحياء بعد موت الناس وتحلل أجسامهم ، مع اعترافهم بأن خالق السماوات والأرض هو الله ، فيعترفون بالأعظم ويستبعدون الأقلّ ، فذكّرهم القرآن الكريم بأن من قدر على خلق السماء والأرض ، والجبال والبحار والأنهار وسائر الأكوان ، من قدر على خلق هذا الكون البديع المشاهد أمامك ، يكون أقدر عليه أن يعيد خلق الناس مرة أخرى يوم القيامة .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الأحقاف : ٣٣) .

وقال تعالى : أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨١ ، ٨٢) .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ولكن أكثر الناس من الكفرة والمشركين لا يعلمون ذلك ، ولا يتدبرونه ولا يتأملون ما فيه لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم .

٥٨ – وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ .

كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ، مع البصير الذى يرى الظلام والنور ، والنافع والضارّ ، كذلك لا يستوى المؤمن الصالح المستنير القلب ، والمسىء الكافر الجاحد .

قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ .

أى : ما أقل ما يتذكر الناس أنه لا يستوى رجل عاقل يستخدم عقله وبصره ولبّه ، فيتأمل فى خلق الكون ، كيف رفع الله السماء ؟ وكيف زينها بالنجوم ؟ وكيف بسط الأرض ؟ وكيف أرسى الجبال ؟ وكيف أظلم الليل وأضاء النهار ؟ وكيف سخر الشمس والقمر ؟ وذلل كل شىء وسخره ليستفيد به الإنسان والحيوان والنبات ، وبذلك يعمر الكون ، لا يستوى هذا مع كافر جاحد ، وهل يستوى الكافر الجاحد الذى طمس الله بصيرته ، فعمى قلبه وبصره عن رؤية أدلة الإيمان ، مع المؤمن الذى شرح الله صدره للإسلام ، فهو على

نور من ربّه ، يرى أنعم الله وقدرته ، فى شروق الشمس وبَسْمة الوليد ، وتألق القمر وازدهار النجوم ، وحركة الليل والنهار ؟

قال ابن كثير :

والمراد أنه كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجّار ، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس . ا هـ .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (هود : ٢٤) .

٥٩ – إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

إن القيامة لآتية حقًا لا شك فى ذلك ، وعندها ينفخ إسرافيل فى الصُّور ، فيصعق الناس جميعا ، ويموتون مدة أربعين سنة ، ثم ينفخ مرة أخرى فيقوم الناس جميعًا ، وهذا هو البعث ، وبعده الحشر والحساب والجزاء ، ودخول الجنة أو النار .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

أكثر الكافرين والمشركين لا يؤمنون بمجيء القيامة ، ولا يصدقون بالبعث والحشر والجزاء ، بسبب سيطرة الأوهام على عقولهم ، وبسبب تقليدهم الأعمى لآبائهم وأجدادهم ، وعدم تفتح عقولهم وقلوبهم لهدى المرسلين ، ولوحى رب العالمين .

٦٠ – وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

فتح الله بابه للداعين ، وفتح رحمته للمسترحمين ، وحث عباده على الالتجاء إليه ، وذلك بعد التوبة النصوح ، وأكل الحلال والبعد عن الحرام ، ونظافة القلب ، وخشوع الإنسان وتذلله لخالقه ، والصدق فى الدعاء ، عندئذ يقبل الله عبادة العابد ، ودعاء الداعى ، ويطلق الدعاء على العبادة ، وفى الحديث : «الدعاء مخ العبادة» .

والعبادة توجه إلى الله فى إخلاص ومحبة وتوقير ، والدعاء اعتراف لله بأن بيده الخلق والأمر ، والنفع والضرّ .

ويمكن أن نفسر الدعاء بواحد من اثنين :

١- الدعاء بمعنى سؤال الله .

٢- العبادة كالصلاة والصيام .

أي : اتجهوا إليّ بالدعاء فإني أستجيب لكم ، أو اعبدوني حق العبادة أحقق لكم سعادة الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ :

إن الذين يتكبرون عن عبادة الله ، ويستعلون عن الخضوع لأوامره ، ويتّبعون أهواءهم ولا يخضعون لأمر ربهم ، هؤلاء الذين تكبروا على عبادة الله ، ولم يتجهوا إلى دعاء الله والتضرع إليه ، سيدخلون النار أذلاء صاغرين ، فالعزّ الحقيقي في طاعة الله والخضوع لأمره ، واتباع ما أمر به والبعد عما نهى عنه .

قال المفسرون :

ولا تنافي بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله تعالى ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من ألوان العبادة ، بل هو مخّها ، أي أهم شيء فيها ، حيث يشتمل الدعاء على التوجه إلى الله واليقين بقدرته .

قال تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ... (الأنبياء : ٧٦) .

كما أجاب الله دعاء زكريا وأيوب وداود وسليمان ويونس وامرأة عمران ، وغيرهم من الصالحين والصالحات .

وقد أورد القرطبي وابن كثير وغيرهما طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة في هذا المقام ، ومن ذلك ما ورد في تفسير القرطبي :

حكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلها إلاّ نبي : كان إذا أرسل نبي قيل له : أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... (البقرة : ١٤٣) .

وكان يقال للنبي : ليس عليك في الدين من حرج ، وقال الله لهذه الأمة : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... (الحج : ٧٨) .

وكان يقال للنبي : ادعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...

قال القرطبي :

ومثل هذا لا يقال من جهة الرأى وقد جاء مرفوعا ، رواه ليث ، عن شهر بن حوشب ، عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أعطيت أمتى ثلاثا لم تعط إلا للأنبياء : كان الله تعالى إذا بعث النبى قال : ادعنى أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ... وكان الله إذا بعث النبى قال : ما جعل عليك فى الدين من حرج . وقال لهذه الأمة : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾... وكان الله إذا بعث النبى جعله شهيدًا على قومه ، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس» .

ذكره الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول)[٢٦] .

★ ★ ★

أنعم الله على عباده

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

المفردات:

لتسكنوا فيه : لتخلدوا فيه إلي السكون والراحة .

مبصرا : مضيئا صالحاً للحركة والعمل .

تؤفكون : تصرفون عن عبادة الله .

يجحدون : ينكرون ويكذّبون .

قرارا : مسكنا ومستقرا تستقرّون فيه .

بناء : سقفا وقبة مضروبة عليكم .

وصـــــوّركـــم: خلقكم فى تناسب واستعداد لمزاولة أعباء الحياة ، فجعل للإنسان عينين ويدين ورجلين ولسانا وشفتين .

الــطــيــبــات: الحلائل والمستلذات من المطعم والمشرب والملبس وغيرها .

هـــــو الحى: المتفرد بالحياة الذاتية غير المستمدة من آخر .

تمهيد :

تعدد هذه الآيات أفضال الله على عباده ، ومن هذه الأفضال ما يأتى :

(أ) جعل الليل ساكناً مظلماً هادئاً ، ليهدأ الإنسان وينام ويستريح .

(ب) جعل النهار مبصراً مضيئا لنبصر الأشياء ، ونجتهد فى العمل والسعى والحركة .

(جـ) هناك أفضال من الله فى الخلق والرزق والإحياء والإماتة ، تستحق الاعتبار والشكر .

(د) الله خالق كل شىء ، فهذه المخلوقات لم يدّع أحد أنه خلقها ، وبديهى أنها لم تخلق نفسها .

(هـ) كيف يُصرف الكافر عن الاعتبار ، والاعتراف لله وحده بالألوهية .

(و) لقد جعل الله الأرض قراراً يستقر عليها الإنسان ، وجعل السماء قبة أشبه بسقف المنزل ، وأبدع خلق الإنسان على غير مثال سابق ، فوضع العين والأذن والفكين واللسان واليدين والرجلين والمخ والقلب ، وسائر الأجهزة ، كالجهاز الهضمى ، والعصبى ، واللمفاوى وغيرها تقدير الحكيم الخبير .

(ز) رزقنا سبحانه من الطيبات ، وهو سبحانه دائم الحياة ، مستحق للحمد والثناء ، وهو رب العالمين.

التفسير :

٦١- ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

تلفت الآيات النظر إلى بعض أنعم الله على عباده .

ومعنى الآيـة :

الله الذى جعل لكم الليل مظلما ساكنا هادئا ، حتى ينام الناس ويستردُّوا عافيتهم، ويستعيدوا طاقتهم ، كما جعل سبحانه النهار مبصراً ، ليبصر الإنسان الأشياء فيعمل ويربح ويكسب الرزق.

وهناك أفضال متعددة من الله على عباده ، فهذا التكامل والتوافق فى خلق الكون ، وجعله صالحا لحياة الناس بنسب دقيقة ، أثر من آثار قدرة الله تعالى .

فوجود الكون ، ودورة الأرض حول الشمس ، ودورة الأرض حول نفسها ، تؤدى إلى وجود الفصول الأربعة ، ونسبة الأكسجين فى الهواء – وهى ٢١٪ – تؤدى إلى حفظ الكون وحفظ الإنسان ، فلو زادت نسبة الأكسجين فى الهواء إلى ٥٠٪ مثلا لكثرت الحرائق ، بحيث لو حدثت شرارة واحدة فى الغابة لكان ذلك كفيلا باحتراقها ، ولو قلّت نسبة الأكسجين عن المعدّل وهو ٢١٪ ، فأصبحت ١٠٪ لاقترب الإنسان من الاختناق، ولقلّت قدرته على التمدن والابتكار.

وكذلك تناسق العين لترى ، والأذن لتسمع ، والفكّ ليأكل ويتكلم ، واليد لتعمل ، والرِّجل لتمشى ، والعقل ليفكر ، وسائر الأجهزة المتعددة ، التى يسفر عنها نظام هذه الآلة البديعة ، التى فى الإنسان ، ثم تناسقها مع هذا الكون ، ليكون الإنسان خليفة لله فى هذه الأرض ، يعمل على عمارتها ، واستثمار خيراتها، والاستفادة منها ، والإفادة لعباد الله من خيراتها .

إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ...

أى : له أنعم متعددة على الناس أجمعين ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم .

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

أى : لا يؤدون حق الشكر لهذه النعم لجهلهم ، وغفلتهم عن التأمل فى نعم الله عليهم .

٦٢– ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .

هذا هو الله سبحانه ربكم وخالقكم ، وهو خالق كلّ شىء من هذه المخلوقات .

فالكون والسماء والأرض ، والبحار والجبال ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والإنسان والحيوان والنبات والفضاء ، وكل هذه المخلوقات التى أمامكم خلقها الله ، وسخرها لخدمة الإنسان ، ولم يدَّع إنسان أنه خلقها ، وهى لا تخلق نفسها ، فلابد لكل صنعة من صانع ، فالكون كلّه محدَث ، ولابد لكل محدَث من خالق ، وهذا الخالق هو الله سبحانه وتعالى ، مُتَّصفٌ بالقدرة والإرادة ، والعلم والسمع والبصر وسائر الكمالات ، إن الله على كل شىء قدير ، إن الله سميع بصير .

لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .

لا معبود بحق سواه ، فهو رب العالمين وما سواه مخلوق ، فكيف تُصرفون عن عبادة الله وتوحيده .

٦٣- كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .

بمثل هذا الإفك والضلال بعبادة غير الله ، ضلّ وأفك الجاحدون في كل زمان ومكان ، مع توافر الأدلة أمامكم ، وأمام الكافرين السابقين ، صرفكم العناد والهوى عن الإيمان الخالص بالله وحده ، كما صرف الكافرين المكذبين بإيثارهم الهوى على الحق ، والضلال على الهدى ، والجحود بآيات الله على الإيمان بها.

٦٤- ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

تستمر الآيات في تعداد أنعم الله على الإنسان ، فقد خلق الأرض مستقرة لينام الإنسان عليها ، ويزرع ويتاجر ويسافر ، ويتكسب على ظهرها ، كما جعل السماء سقفا مرفوعا كالقبة المبنية ، وبارك في الأرض وقدّر فيها أقواتها ، وبارك في السماء ، وزينها بالنجوم والشموس والأقمار ، وجعل الفضاء والهواء والرياح، والأمطار والبحار والأنهار لعمارة هذا الكون .

كما امتن على الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم ، وجعله منتصب القامة ، مهيأ للاستفادة بالنعم، فخلق له للنظر عينين ، وللسمع أذنين ، وللبطش يدين ، وللمشي رجلين ، وخلق له لسانا وشفتين ، وأبدع الخلقة بقدرته ، وهو على كلّ شيء قدير ، فبين الفكّين توازن ، لو ارتفع أحدهما مقدار ورقة سيجارة ، أو تضخّم ضرس أكثر مما هو عليه ، لأدّى إلى عرقلة الكلام وتلكؤ اللسان .

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ...

ورزقكم من الحلال ، ومن لذائذ المطعم والمشرب ، ما يستحق الشكر والثناء على الله الخالق الرازق .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

ذلكم المتصف بهذه الصفات المذكورة ، خالق الكون والإنسان ، هو الله ربكم وخالقكم ، الذي لا تصلح الربوبية لغيره ، فتقدس وتنزّه الله ، رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . خالق الإنس والجن والطير والملائكة ، فتنزه الله عن صفات النقص ، وعما لا يليق به من الصاحبة والولد ، وكثرت بركاته وعطاياه ، فأنعم به من خالق حافظ منعم متفضل .

٦٥- هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

هو الحي الذي لا يموت، والإنس والجنّ يموتون، فهو سبحانه دائم الحياة، أوّل بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء.

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... لا معبود للعالمين إلا الله .

فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ...

أي : اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا ، موحدين له مخلصين له العبادة ، معترفين له بالحمد والشكر والفضل والنعمة .

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين .

وذلك قوله تعالى : فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

★ ★ ★

النهي عن عبادة غير الله ، وسبب النهي

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

المفردات:

البينات: البراهين والآيات الواضحة التي تدلّ على التوحيد .

أسلم: انقاد وأخلص .

خلقكم من تراب: خلق أباكم آدم .

نطفة: منيّ .

علقة: دم غليظ يعلق بجدار الرَّحِم .

أشُـــــدكـــم : كمال عقلكم وقوتكم ، فيما بين الثلاثين والأربعين .

أجــلا مســمـى : وقتا محدداً ، وهو وقت الموت .

قضـــى أمـــراً : أراد إيجاد شىء .

كــن فــيكــون : تمثيل لسرعة إيجاده ، وتصوير لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات عند تعلق إرادته بها ، من غير أن يكون هناك آمر أو مأمور ، والخلاصة أنه إذا أراد إيجاد شىء أوجده فى لمح البصر .

تمهيد :

ذكر فى الآيات السابقة أدلة القدرة الإلهية فى خلق الكون وما فيه ، وهنا يوضح للنبىّ أن يكون صريحا فى قوله وإعلان أن الله نهاه عن عبادة الأوثان والأصنام، فقد جاءته الرسالة الواضحة ، وأمر بإخلاص العبادة لله تعالى ، فهو الذى خلق الجنين فى بطن أمّه ، ومرّ بمراحل متعددة حتى صار وليداً ، ثم مرّ بمراحل الطفولة والشباب ، والشيخوخة ثم الموت

سبب النزول :

أخرج جويبر ، عن ابن عباس ، أن الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة قالا : يا محمد ، ارجع عما تقول بدين آبائك ، فأنزل الله : قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

التفسير :

٦٦- قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فقد بينت الآيات السابقة أن الله تعالى متصف بصفات الجلال والكمال، وهنا تقول الآية : قل لهم يا محمد : إن الله تعالى نهانى أن أعبد الأصنام أو الأوثان أو الأحجار التى تعبدونها من دون الله ، بعد أن اختارنى رسولا ، وأنزل علىّ الوحى ، وظهرت لى البينات والدلائل على قدرة الله البالغة ، فهو سبحانه خالق الأكوان وخالق الأنفس ، وهو الذى صوركم فأحسن صوركم ، وهو خالق كل شىء ، لذلك أمرنا أن نعبده وحده ، وأن نخلص له العبادة ، ولا نعبد أحداً سواه .

٦٧- هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

الله تعالى هو الذى يكوّن الجنين فى بطن أمّه ، حيث يمر بمراحل متعددة ، فقد خلق الله آدم من تراب،

وخلق ذريته من المنىّ ، والمنىّ يتكون من الدم ، والدم من الأكل ، والأكل من النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء .

إن الجنين يمر بمراحل متعددة ، تبدأ بالتقاء البويضة من الذكر وتلقيحها لبويضة الأنثى ، ثم تتحول من نطفة إلى قطعة دم جامدة ، تعلق بجدار الرحم وتسمّى علقة ، ثم يمر بمراحل فى بطن أمّه حتى يصير طفلا ينزل إلى الدنيا ، وفيه وسائل النظر والسمع ، والبطش والمشى ، والأكل والنموّ ، ويمر بمراحل الطفولة ثم الشباب والقوة ، ثم الشيخوخة والضعف ، ومن الناس من يموت فى مرحلة الشباب أو قبلها ، ومنهم من يعمر حيث يمكث كل إنسان فى هذه الدنيا إلى الأجل الذى حدده الله له فى هذه الحياة .

وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أن هذا الإله الخالق للجنين فى بطن أمّه ، الذى تعهده إلى أن صار طفلا ، والذى تعهد الطفل إلى أن صار شيخا ، هذا هو الإله الذى يستحق العبادة .

٦٨ - هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ .

الحياة بيد الله والموت بيده ، النهار والليل ، الهدى والضلال ، الخلق والموت ، كل ذلك بقدرته ، فولادة الوليد وتطوره طفلا ثم فتى ثم شابا ثم شيخا ، ثم موته ودفنه وبعثه وحسابه ، كل ذلك بيد القدرة الإلهية، التى تفعل ما تريد ، وتنفّذ ما تشاء فى أقل من لمح البصر .

والآية تمثيل لكمال القدرة ، وتصوير لتنفيذ مراده سبحانه ، فإذا أراد الله أمراً وُجد ، وكان فى سرعة استجابة المأمور المطيع للأمر المطاع ، والله أعلم .

قال المفسرون :

والمراد من الآية التنبيه على قدرة الله فى الإحياء والإماتة ، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله تعالى الفعل .

وقال الزمخشرى :

والآية تشير إلى قدرته تعالى على الإحياء والإماتة ، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أن مقدوراً لا يمتنع عليه ، كأنه قال : فلذلك الاقتدار ، إذا قضى أمراً كان أهون شىء عليه وأيسره.

وقال الآلوسى فى تفسيره :

وهذا عند الخلف تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات ، عند تعلق إرادته – سبحانه – بها ، وتصوير لسرعة ترتيب المكونات على تكوينه ، من غير أن يكون هناك آمر ومأمور .

★ ★ ★

جزاء المجادلين بالباطل فى آيات الله

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

يجادلون : كرر ذم المجادلة لتعدد المُجادل ، أو المُجادَل فيه ، أو للتأكيد .

أنى يصرفون : كيف يُبعدون عن الإيمان بالله ؟

الكتاب : القرآن .

وبما أرسلنا به رسلنا : من سائر الكتب والوحى ، والبعث والشرائع .

فسوف يعلمون : عقوبة تكذيبهم ، وهذا وعيد لهم .

الأغلال : القيود تجمع الأيدى إلى الأعناق .

يسحبون : يجرُّون بعنف بالسلاسل .

الحميم : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة .

يسجرون : يحرقون ، يقال : سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود ، ومنه : وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ . (الطور : ٦) . أى : المملوء .

ضلوا عنا : غابوا عن أعيننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم .

تفرحون : تبطرون ، دون تفكير فى الآخرة .

تمرحون : تتوسعون فى الفرح والبطر ، وقيل : المرح : الفخر والخيلاء .

مثوى : مأوى ومقر ، أى : قبح مقر المتكبرين جهنم .

تمهيد :

تستعرض الآيات بعض مشاهد القيامة من باب التهديد والوعيد ، وعرض أمور المستقبل أمام الكافر ليتبين مآله ، وليتعظ به غيره ، فهؤلاء الكفار يجادلون فى صدق القرآن ، ويكذّبون الرُّسل ، وما أُرسلوا به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وسوف يعلم هؤلاء سوء عاقبتهم ، حين يشاهدون الأغلال تربط فى أعناقهم وأيديهم ، والسلاسل يسحبون بها إلى جهنم ، حيث يقذفون فى النار، كما قال تعالى : وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ... (البقرة : ٢٤) .

ويوجه إلى هؤلاء الكفار سؤال توبيخ وعتاب ومؤاخذة ، وهو : أين الآلهة التى عبدتموها من دون الله، كالأصنام والأوثان وغيرها ؟

فيقول الكفار : غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا يروننا ، لقد تبينّا حقيقة ضلالنا ، وأن ما عبدناه ليس له حقيقة ، فلا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، فكأننا ما عبدنا شيئا، ثم يقال لهم : هذا العذاب بسبب بطركم وتكبركم وعُتوّكم وامتناعكم عن سماع الحق ، فادخلوا أبواب جهنم السبعة ، وأقيموا فيها إقامة دائمة ، وساءت إقامة الكافرين فى جهنم .

التفسير :

٦٩ - أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ .

انظر يا محمد إلى أولئك الكفار ، الذين أُغرموا بالجدال فى صدق القرآن ، كيف يصرفون عن الاهتداء به ، والاستفادة مما فيه من علوم ومعارف وهدايات ، فلا تتفتح قلوبهم لمعرفة القرآن والاستجابة لهدايته، بل يتكبرون عن الإيمان به .

٧٠ - ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

الذين كذبوا بالقرآن ، وكفروا بأدلة التوحيد ، ولم يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم حين يرون ألوان العذاب فى جهنم .

٧١ ، ٧٢- إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ .

أى : سوف يعلمون عاقبة كفرهم يوم القيامة ، حين تكون الأغلال والقيود فى أعناقهم وأيديهم ، والسلاسل فى أرجلهم ، والزبانية يجرونهم بها إلى جهنم ، ليكونوا وقوداً لها ، كما قال تعالى : وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ... (البقرة : ٢٤) .

فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ .

يوضعون فى الحميم ، وهو الماء المتناهى فى الحرارة ، فتتقطّع جلودهم ، وتنسلخ لحومهم ، ثم يحرقون فى النار التى توقد بهم ، وتحيط بهم .

قال تعالى : خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۞ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ . (الدخان : ٤٧ – ٥٠) .

وقال تعالى : هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ . (الرحمن : ٤٣ ، ٤٤).

٧٣، ٧٤ – ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ .

تسألهم الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ، فتقول لهم : أين الآلهة التى عبدتموها وأشركتموها بالله فى عبادتكم ؟ بل إنكم جعلتموها آلهة ، واتجهتم لها بالعبادة من دون الله الذى يستحق العبادة وحده، أين هذه الأصنام والأوثان وغيرها من الآلهة المدّعاة ؟

وأجاب الكافرون : لا نراهم ولا يروننا ، لقد تبينا بعد فوات الأوان أننا لم نكن نعبد شيئا يستحق العبادة ، تبينّا الآن أن الذين عبدناهم لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يجيبون ولا يشفعون ، وأن عبادتنا لهم كانت باطلة ضائعة ، وهكذا يتبين بطلان جميع أعمال الكافرين ، وتنقطع العلائق والصلات بين العابدين والمعبودين .

٧٥ – ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ .

أى : هذا العذاب الذى تعرضتم له فى جهنم ، وأغلالها وسلاسلها ، وحميمها وألوان عذابها ، بسبب ما كنتم تظهرون فى الدنيا من الفرح بمعاصى الله ، والسرور بمخالفة رسله وكتبه ، وبسبب ما كنتم تبطرون وتأشرون ، وهو جزاء المرح بغير الحق ، والتكبر بالباطل ، والشرك وعبادة الأوثان .

٧٦ – ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

بسبب كفركم وعنادكم وسروركم بالباطل ، وتعاليكم على المؤمنين والمرسلين ، ادخلوا أبواب جهنم السبعة ، وأقيموا فى جهنم إقامة دائمة ، يتحقق لكم فيها الذلّ والهوان ، وألوان العذاب الأليم ، فبئست جهنم مآلا ومقاما للمتكبرين عن قبول الحق ، والممتنعين عن الإيمان بالرسل .

وفى معنى الآية قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . (الحجر : ٤٢ - ٤٤) .

من تفسير القرطبى :

ذَٰلِكُم . أى : ذلكم العذاب .

بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ . بالمعاصى ، يقال لهم ذلك توبيخا ، أى : إنَّما نالكم هذا بما كنتم تظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية ، وكثرة المال والأتباع والصحة ، وقيل : إن فرحهم بما عندهم أنهم قالوا للرسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذَّب ، وكذا قال مجاهد فى قوله جل وعزّ : فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ... (غافر : ٨٣) .

وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ .

قال مجاهد ، وغيره : أى : تَبْطرون وتأشرون . وقال الضحاك : الفرح والسرور والمرح : العدوان .

وروى خالد ؛ عن ثور ، عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبغض البذخين الفرحين ، ويحب كل قلب حزين، ويبغض أهل بيت لحمين ، ويبغض كل حبر سمين» ، فأما أهل بيت لحمين ، فالذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة ، وأما الحبر السمين ، فالمتحبر بعلمه ، ولا يخبر بعلمه الناس، يعنى المستكثر من علمه، ولا ينتفع به الناس . ذكره الماوردى .

وقد قيل فى اللحمين : إنهم الذين يكثرون أكل اللحم ، ومنه قول عمر : اتقوا هذه المجازر ، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر . ذكره المهدوى ، والأول قول سفيان الثورى؛ .

ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ... أى : يقال لهم ذلك اليوم .

وقد قال تعالى : لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ... (الحجر : ٤٤) .

فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حال كونكم خالدين فيها خلوداً أبديا ، فبئس مكان المتكبرين عن قبول الحقّ .

تعقيب

كيف نوفق بين قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۞ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ .

وبين ما ورد في صحيح البخاري من قوله ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من الهّم والحزن ، وأعوذ بك من العَجْز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال» .

وهل يفهم من الآيتين أن الإسلام يكره الفرح والسرور والبشر والحبور ؟

الجــواب :

الإسلام يكره فرح الإنسان بما عنده من الباطل أو الكفر أو الشرك ، كما يكره البطر والكبر والأشر ، والتعالى على عباد الله ، فالفرح الممقوت هنا هو الفرح في الأرض بغير الحق ، والمرح بارتكاب المعاصي والفسوق ، والفجور والمعصية ، والبعد عن هدى السماء ، والترفع عن الإيمان برسل الله ، والإسلام دين وسط يحث على الاعتدال واليسر والبشر .

قال تعالى : ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ . (الأعلى : ٨) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ... (البقرة : ١٨٥) .

وقال ﷺ : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا»[٢٧] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ ... (يونس : ٥٨) .

وقال تعالى : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ... (البينة : ٨) .

وتقول عائشة رضي الله عنها : كان ﷺ أفكه الناس في بيته ، ضحوكا بساما [٢٨] .

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا [٢٩] .

وقال ﷺ : «روحوا القلوب ساعة ، فإنها إذا تعبت كلّت ، وإذا كلّت عميت»[٣٠] .

وقال ﷺ : «إن لربك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه»[٣١] .

وقال ﷺ : «حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٣٢] .

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «إن أتقاكم لله أنا ، وإن أعلمكم بالله أنا ، وإن أخوفكم من الله أنا ، ومع هذا فإنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منّى»[٣٣].

وروى البخارى أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يستمع إلى جاريتين من الأنصار تغنّيان فى يوم عيد ، فدخل أبو بكر الصديق فقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال ﷺ : « دعهما يا أبا بكر ، فإن اليوم يوم عيد ، دعهما يا أبا بكر ، لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة» [٣٤].

لقد كان ﷺ أسوة حسنة فى خُلُقِه وهديه وسمته ، ودلّه وسلوكه ، وكان مثلا أعلىٰ فى السلوك، فهو مع أصحابه كأحدهم ، إن أخذوا فى أمر الدين أخذ معهم ، وإن أخذوا فى أمر الدنيا أخذ معهم ، لا يترفع على أصحابه ، إذا فرح ظهر السرور فى وجهه كأنه مذهبه ، أى ظهر الرضا فى وجهه كأن الذهب وبريقه يلمع فى بشرته ، وكان أسيل الخدين ، أدعج العينين ، سبط الشعر ، طويل الرقبة ، ما تعرّض من وجهه للشمس كأنه الذهب ، وما خفى من رقبته عن الشمس كأنه الفضة ، فكان كأنه إبريق فضة مطعّم بالذهب ، يجرى ماء الحسن فى وجهه ، إنسان بكل معانى الإنسانية .

والخلاصة :

إن هدى القرآن الكريم وروح السنّة المطهرة فيهما إرشاد وتوجيه إلى السلوك السوىّ المعتدل ، فإذا فرح الإنسان ظهر الرضا فى وجهه فى اعتدال ، وإذا حزن فى موقف أظهر ذلك فى اعتدال ، والإنسان المسلم إنسان كامل الإنسانية ، جيّاش العواطف ، مؤمن بالقضاء والقدر ، راضٍ بالقدر خيره وشرّه ، حلوه ومرّه ، وهو عامل مجتهد نافع كادح ، يعتبر أن البِشْرَ والرضا والكلمة الطيبة صدقة .

وفى الحديث الصحيح: «تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة»[٣٥] .

وفى الأثر : «البرّ شىء هين ، وجه طليق ، وكلام ليِّن» .

وفى الحديث الشريف : «إن أحبّكم إلىّ وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى منازل يوم القيام الثرثارون المتشدقون، المتفيهقون (المتكبرون)» [٣٦] .

وفى أذكار الصباح والمساء نجد لمسة الفرح والسرور ، والرضا والاستبشار ، والفرح بالجمال والنور والنعمة ، والاستعاذة بالله من الهموم والأحزان .

من أدعية الرسول ﷺ

«رضينا بالله تعالى ربًا ، وبالإسلام دينا ، وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا»

«يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك»[٣٧] .

«اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، وذهاب غمِّى وحزنى»[٣٨] .

وهذا الدعاء علمه النبى ﷺ لرجل مهموم حزين ، فأذهب الله عنه الهموم والأحزان .

إن الإسلام يدعونا إلى الرضا والفرح والسرور بنعم الله تعالى علينا ، ويعلمنا أن نستعيذ بالله تعالى من الهمّ والحزن .

وعندما أنشد كعب بن زُهير قصيدته بين يدى النبى ﷺ وقال فيها :

وقال كل صديق كنت آمله	لا ألفينك إنى عنك مشغول
فقلت خلّوا سبيلى لا أبا لكمُ	فكل ما قدّر الرحمان مفعول
نبئت أن رسول الله أوعدنى	والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به	مهنّد من سيوف الله مسلول

فرح الرسول ﷺ بهذه القصيدة ، وعفا عن كعب بن زهير ، وخلع بردته وكسا بها هذا الشاعر ، إعلانا عن رضاه وسروره بما قال .

ونحن نأخذ الإسلام بجميع أركانه وآدابه ومشتملاته ، وسنجد أنه نظام يكفل السعادة والرضا والبشر ، ويهتم بإنسانية الإنسان ، ويشيع البسمة والرضا ، ويقاوم الخوف والحزن واليأس والإحباط .

قال تعالى : وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . (آل عمران : ١٣٩) .

وقال سبحانه : إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

صحيح أن القرآن حذّرنا من معصية الله ، ومن التجرؤ على مخالفة أوامره ، قال تعالى : وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . (آل عمران: ١٧٥) .

وفى نفس الوقت حثنا على الرجاء والأمل فى رحمة الله الواسعة ، فقال سبحانه : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... (الأعراف: ١٥٦) .

وعند الشباب تغلِّب الخوف على الرجاء ، وعند الشيخوخة نغلِّب الرجاء على الخوف ، ونرفع رصيد الأمل فى رحمة الله ومغفرته ، ومعونته وفضله ، وكريم عفوه ، وسابغ فضله ، وبهذا تتكامل إنسانية الإنسان واستقامة سلوكه فى جميع مراحل حياته .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت ٣٠ – ٣٢) .



الصبر والتصبّر

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

حق : كائن لا محالة .

بعض الذى نعدهم : بعض الذى نعدهم من العذاب بالقتل أو الأسر لهم فى حياتك ، وجواب الشرط تقديره: فذاك.

أو نتوفينك : أى : نميتك قبل تعذيبهم .

فإلينا يرجعون : فإلينا وحدنا يُرجعون يوم القيامة ، فنجازيهم بأعمالهم .

بآية : بمعجزة .

أمر الله : قضاء الله ، أو يوم القيامة .

بالحق : بالعدل .

المبطلون : أهل الباطل .

التفسير :

٧٧- فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ .

ناقش القرآن أهل مكة طويلا فيما سبق ، وكانوا يتقولون على النبى ﷺ ، ويتربصون به الموت أملاً فى التخلص منه ، وهنا يحث القرآن الرسول ﷺ على الصبر الجميل ، مؤكدا أن وعد الله حق ، بنصر الرسل والمؤمنين فى حياتهم أو بعد وفاتهم ، وكأن القرآن الكريم يشير إلى أن الرسول له غاية وهدف وهو البلاغ، أما الهداية أو النصر فذلك فى مشيئة الله وحكمته .

ومقصود الآية كالآتى :

اصبر أيها الرسول على إيذاء المشركين واثقا بالنصر ، سواء وجدت ذلك فى حياتك كالنصر عليهم يوم بدر ، أى إذا أريناك النصر فى حياتك فبها ونعمت ، وإذا توفيناك قبل تحقيق النصر فلا تحزن ؛ فإن مصيرهم إلينا ، وسيلقون الجزاء كاملا بيد الإله العادل ، ولا يظلم ربك أحدا ، وهو سبحانه مالك يوم الدين، وبيده الجزاء العادل فى ذلك اليوم ، وإلى الله وحده يُرجعون .

٧٨- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ .

إن رسالة محمد لم تكن بدعا من الرسل ، بل قد سبقه رسلٌ وأنبياء كثيرون ، ذكر القرآن الكريم طائفة منهم ، ولم يذكر طائفة منهم ، فقد سجل القرآن الكريم قصص آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى وأيوب وداود وسليمان ويونس وإسماعيل وإدريس ، ومجموع من ذكرهم القرآن الكريم من الرسل خمسة وعشرون رسولا، ومن الرسل من لم يذكر القرآن الكريم أخبارهم، وهم أكثر من ذلك بأضعاف أضعاف.

كما قال تعالى : وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... (النساء : ١٦٤) .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ، كم عدد الأنبياء ؟ قال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر ، جمًّا غفيرًا» [٣٩] .

لقد ذكر القرآن الكريم أخبار المرسلين وكفاحهم ، وأحيا ذكراهم ، واقتصر فى الذكر على نماذج محدودة ، ولم يذكر جميع الرسل لحكمة إلهية عليا، فالقرآن ليس كتاب إحصاء ، وليس كتاب تاريخ أو معارف ، لكنه ذكر نماذج من الرسل ، وعينات من العلوم والمعارف ، وقبسات من تاريخ الأمم والملوك والرسل للعظة والاعتبار .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ... (يوسف : ١١١) .

وقد أيد الله الرسل بالمعجزات ، وأنزل عليهم الآيات والصحف والكتب وألوان الهداية .

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ...

إن مجيء الآيات والمعجزات يتم بحكمة إلهية ، وباختيار الله لكل رسول بما يناسبه ، فقد أيد الله إبراهيم بأن جعل النار بردًا وسلاما عليه ؛ وأيّد موسى باليد والعصا وتسع آيات بينات ، كما أيّد عيسى بإحياء الموتى بإذن الله ، وشفاء المرضى بإذن الله ، وجعل معجزة محمد ﷺ من جنس ما برع فيه قومه ، وهو البيان والقصائد والخطب والنظم والنثر ، فجاء القرآن في الذروة العليا من الفصاحة ، لكنه ليس شعرا وليس أساطير الأولين، وليس كهانة ، ولكنه وحى الله إلى رسوله ، وقد اقترح كفار مكة ألوانا من المعجزات تشبه ناقة صالح ، أو عصا موسى ، كما اقترحوا أن يأتى لهم الرسول بالأنهار والبساتين حتى تصبح مكة مثل قرى الشام في الزراعة وطيب النسيم ، والقرآن يذكر أن مجيء الآيات والمعجزات أمر إلهى ، ولا دخل للرسل فى اقتراحها أو المجيء بها ، وإن كانت طبيعة الرسول البشرية تتمنى أن يتحقق للناس ما يتطلعون إلى وقوعه من المعجزات ، ليكون ذلك باعثًا لهم على الإيمان والتصديق ، ولكن الله تعالى لا يعجل لعجلة العباد ، ويريد لعباده المؤمنين أن ينالوا قسطا من الصبر والابتلاء ، حتى يكون الإيمان عن قناعة ورغبة وجهاد وتضحية .

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ . (آل عمران : ١٤١) .

فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ .

أى : إن الله يمهل مجيء الآيات ليأخذ الناس فرصة واسعة قبل نزول العذاب ، فإذا جاء أمر الله ووعده بإهلاك الكافرين فى الدنيا ، أو عذابهم فى الآخرة ؛ جعل ذلك بالعدل والحق ، ولا مجال لاعتذار أو تراجع بل عذاب رادع فى الدنيا ، أو دخول جهنم فى الآخرة ، كما حدث فى غرق قوم نوح ، أو هلاك عاد وثمود ، أو غرق فرعون وملئه .

وعندئذ يخسر المبطلون ، ويحيق العذاب الشديد بأهل الباطل فى الدنيا والآخرة .

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) :

★ ★ ★

منافع الأنعام

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

المفردات :

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز.

حاجة فى صدوركم : أمرًا ذا بال تهتمون به.

آياته : دلائل قدرته فى الآفاق وفى أنفسكم .

فأى آيات الله تنكرون : الدالة على ما ذكر من تلك الآيات ، فإنها لوضوحها وظهورها لا تقبل الإنكار .

تمهيد :

كان أهل مكة يطلبون طائفة من خوارق الآيات للدلالة على صدق الرسول الأمين ، فبينت الآيات السابقة أنّ مجيء المعجزات أمر خاضع لإرادة الله واختياره سبحانه ، ثم لفت أنظارهم إلى طائفة من النعم التى أنعم الله بها على عباده ، وهى شاهدة لله تعالى بكمال القدرة والوحدانية ، ولبطلان أى ادعاء بأن أحدًا غير الله خلقها ، وأىّ ادعاء كذلك بأنها خُلقت بلا خالق مدبِّر مريد .

التفسير :

٧٩- ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

يطلق بعض المفسرين الأنعام على الإبل وحدها ، ففيها منافع متعددة للركوب والأكل والاستفادة بأوبارها ، وحمل الأثقال عليها ، حتى قالوا : (الجمل سفينة الصحراء) ، وقد خلق الله الجمل حَمولًا صَبورًا ، يتحمل الجوع والعطش والمشى على الرمال فى الصحراء .

وذكر بعض المفسرين أن الأنعام تطلق على الإبل والبقر والغنم والمعز ، وقد امتن الله بها علينا فى الآيات من ١٤٢ - ١٤٤ من سورة الأنعام .

حيث قال تعالى : ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ... (الأنعام : ١٤٣) .

وقال سبحانه : وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ... (الأنعام : ١٤٤) .

وقريب من ذلك ما ورد في قوله تعالى : وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (النحل : ٥ – ٧) .

لقد كانت هذه الإبل هي الوسيلة الوحيدة في ذلك الوقت للانتقال في مفاوز الصحراء ، ولا تزال بعض الطرق الضيقة إلى الآن وكذلك المفاوز الرملية ، والمعابر الجبلية وأشباهها ، تعتمد على بعض الحيوانات في ارتيادها .

وقد أشار القرآن إلى استخدام الآلة في السير وفي غيره ، وذلك في قوله تعالى : وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (النحل : ٨) .

عودٌ إلى التفسير :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

لقد سخر الله لكم الأنعام بجميع أصنافها ، حتى تستفيدوا بركوب بعضها ، والأكل من بعضها ، فالإبل تؤكل وتُركب ويُشرب لبنها ، وتُحمل عليها الأمتعة ، والبقر تؤكل ويُشرب لبنها وينتفع بها في الحرث والسقي ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تتناسل وتجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ، ويستفاد بذلك في الأثاث والثياب والأمتعة .

٨٠– وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ .

أي : لكم في مجموع الأنعام طائفة من المنافع ، مثل الأكل وشرب الألبان والركوب ، والانتفاع بالأصواف والأشعار والجلود .

وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ...

أي : تنتقلون على الإبل ، وتنقلون بها أمتعتكم ، وتصلون بها إلى أهدافكم الكبيرة ، خصوصًا عند الكرّ والفرّ ، والبحث عن الكلأ والمرعى .

وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ .

تحملون أمتعتكم في البرّ على الإبل وبعض الحيوانات الأخرى ، وفي البحر تحملون أمتعتكم على السفن التي تمخُر عُباب البحر ، وتنقل التجارة والسيَّاح والأمتعة والمنافع .

٨١- وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ .

الله تعالى يريكم دلائل قدرته فى البر والبحر والجوّ ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنور والظلام ، والصيف والشتاء ، والتقدم العلمى ، وأدلة القدرة فى الأنفس والآفاق ، فأىّ هذه الآيات الباهرات تنكرون دلالتها على قدرة الله ، إن هذه المخلوقات البديعة لم يَدَّع أحد أنه خلقها ، ثم هى لم تخلُقْ نفسها ، فلم يبق إلا أن تكون مخلوقة لله رب العالمين .

وقد ختمت الآية بهذا الاستفهام الإنكارى ، منكرة على المخاطَبين الجحود والكفر ، وقريب من ذلك ما ورد فى الآيتين ٦٠ ، ٦١ من سورة النمل ، حيث يقول الله تعالى : أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل : ٦٠ ، ٦١) .

ويقول سبحانه وتعالى : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَـٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا . (النازعات : ٢٧ ، ٢٨).

★ ★ ★

تهديد المكذبين

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

المفردات :

وآثارا فى الأرض : ما أبقوه من القصور والحصون والمصانع ونحوها .

بالبينات : بالمعجزات والشرائع الواضحات .

فرحوا بما عندهم من العلم : رضى الكفار عن أنفسهم وعن معارفهم ، بأنه لا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء، واحتقروا شرائع الرسل ولم يتبعوها .

حاق بهم : أحاط ونزل بهم ما استهزأوا به من العذاب .

بأسنا : شدة عذابنا .

وكفرنا بما كنا به مشركين : كفرنا بالأصنام والأوثان ، وسائر الآلهة الباطلة .

فلم يك ينفعهم إيمانهم : فلم يصح ولم يستقم ، لامتناع قبول الإيمان بعد فوات الأوان .

سنة الله : أى : سنّ الله ذلك سنة ماضية فى العباد ، ألا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب .

وخسر هنالك الكافرون : وهلك فى مكان نزول العذاب الكافرون .

التفسير :

٨٢ – أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

تلفت الآية أنظار المشركين من أهل مكة إلى التأمل والتفكر فى عاقبة المكذبين لرسلهم ، مثل قوم نوح ، ومثل عاد وثمود ، ومثل فرعون وملئه ، حين أهلك الله المكذبين بصنوف الهلاك : كالغرق ، والخسف، وإرسال الصواعق المهلكة ، وغير ذلك ، وأن هؤلاء الذين أهلكوا كانوا أكثر من أهل مكة مالا وعددًا ، ولا تزال قصورهم وأبنيتهم الضخمة وآثارهم تشهد بمدى تفوقهم ، لكن ذلك لم ينفعهم ، ولم يدفع العذاب عنهم .

٨٣– فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

فلما جاءت الرسل إليهم بالشرائع والمعجزات والوحى الإلهى ، أعرضوا عن هدى السماء ، وفرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوى الخالى من نور الهداية والوحى ، وكان فرح بطر وأشر ، واغتروا بذلك العلم، ونزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات .

٨٤– فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ .

فلما شاهدوا بأعينهم شدة العذاب الذى نزل بهم ، وعاينوا أهواله وشدائده ، قالوا : آمنا بالله الواحد الأحد ، وكفرنا بالأصنام والأوثان وسائر المعبودات التى عبدناها من دون الله .

٨٥- فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

أعطى اللهُ الإنسان العقل والإرادة والاختيار، وجعل ذلك مناط التكليف، ومن سنة الله تعالى الماضية في السابقين واللاحقين أنه لا يقبل الإيمان في حالة الإلجاء والاضطرار، كإيمان فرعون حين رأى الغرق أعلن إيمانه بعد أن عصى واستكبر وأعلن الفساد والعناد؛ فلم يقبل منه الإيمان، ونجى الله بدنه فقط ليحنط ويظل دليلا ملموسا على عاقبة الظلم والفساد، وعلى أن الإيمان لا ينفع صاحبه عند رؤية العذاب؛ لأنه إيمان عن إلجاء واضطرار لا عن رويّة واختيار.

قال ابن كثير :

وَحَّدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق : ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . (يونس : ٩٠)، فلم يقبل الله منه، لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه السلام [٤٠] .

وهكذا قال تعالى ههنا : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ...

أي : هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنّه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث : «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [٤١] ، ولهذا قال تعالى : وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ . ا هـ .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة غافر

١ – بيان صفات الله عز وجل .

٢ – عقوبة الجدال بالباطل في آيات الله .

٣ – وصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله .

٤ – ذكر دعائهم للذين تابوا .

٥ – وصف أهوال القيامة على الكافرين .

٦ – طلب الكفار الرجوع إلى الدنيا ، ثم رفض هذا الطلب .

٧ – إقامة الأدلة على وجود الإله القادر .

٨ – إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة .

٩ – قصص موسى مع فرعون .

١٠– قصة مؤمن آل فرعون ونُصْحه لقومه بالإيمان .

١١– نقاش الضعفاء والكبراء من أهل النار .

١٢– أمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى قومه ، كما صبر أولو العزم من الرسل .

١٣– تعداد نعم الله على عباده في البر والبحر .

١٤– الإيمان لا يقبل إلا عن طواعية واخْتيار ، ويُرفض عند الإلجاء والاضطرار .

★ ★ ★



تفسير سورة فصلت

أهـداف سـورة فصـلت

سورة فصلت مكية ، نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها (٥٤) آية ، نزلت بعد سورة غافر .

أسماؤها : تسمى سورة فصلت لقوله تعالى فى أوائلها : كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. (فصلت : ٣)

وتسمى سورة حم السجدة لاشتمالها على السجدة ، وسورة المصابيح لقوله تعالى : وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . (فصلت : ١٢)

روح السورة

الروح السارية بين آيات سورة فصلت هى عرض أهداف الدعوة الجديدة وأركانها وحقائقها الأساسية، وهذه الحقائق هى :

الإيمان بالله وحده ، وبالحياة الآخرة ، وبالوحى والرسالة ، ويضاف إلى ذلك طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل ما فى السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها ، وعرض لآيات الله فى الأنفس والآفاق، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين فى الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة ، وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ، ولا يستسلمون لله وحده ، بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة ... كلهم يسجدون لله ويخضعون لأمره ويسلمون ويستسلمون له .

موضوعات السورة

تنقسم سورة فصلت إلى موضوعين اثنين :

الموضوع الأول :

يشمل نصف السورة الأول ، الآيات من (١ – ٣٦) ، ويبدأ بالآيات التى تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته ، وموقف المشركين منه ، وتليها قصة خلق السماء والأرض ، فقصة عاد وثمود ، فمشهدهم فى الآخرة حيث تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود ، ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم فى الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس ، يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ومن آثار هذا قولهم : لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس ، وفى الجهة الأخرى نجد الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة – لا قرناء السوء – يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم فى الدنيا والآخرة ، ويلى هذا ما جاء عن الدعوة والداعية ، وبذلك ينتهى الموضوع الأول .

الموضوع الثانى :

تتحدث الآيات من (٣٧ – ٥٤) عن آيات الله من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التى تهتز فيها وتربو بعد الموت ، ويلى هذا الحديث عن الذين يلحدون فى آيات الله وفى كتابه ، وهنا يجىء ذلك الحديث عن هذا الكتاب ، ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه ، وأنه لولا سبق حكمه بإمهالهم لعجل بقضائه بينهم .

وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها ، وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات ، وما تكنه الأرحام من أنسال ، ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء ، يلى هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها ، ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها ، فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته فى الآفاق وفى أنفسهم .

وقد صدق الله وعده فكشف لهم عن آياته فى الآفاق خلال الأربعة عشر قرنا التى تلت هذا الوعد ، فعرفوا كثيرا عن مادة هذا الكون ، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة ، وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع ، وعرفوا أن الكون كله من إشعاع .

وعرفوا الكثير عن كروية الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس ، وعرفوا الكثير عن المحيطات والأنهار والمخبوء فى جوف الأرض من الأرزاق .

وفى آفاق النفس اهتدى الإنسان إلى معرفة الكثير من خصائص الجسم البشرى وأسراره ، ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وأسرار عمله وحركته ، ثم عن تطور المعرفة حول ذكاء الإنسان ونفسية الأفراد والجماعات وقياس السلوك ، ولا يزال الإنسان فى الطريق إلى اكتشاف نفسه ، واكتشاف الكون من حوله ، حتى يحق وعد الله بأن كلماته حق ، وآياته صدق ، وكتابه منزل ، وهو على كل شىء شهيد .

قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ . (فصلت : ٥٣ ، ٥٤) .

★ ★ ★

تمهيد عن صدر سورة فصلت

أخرج الإمام عبد بن حميد فى مسنده ، وأبو يعلى ، والبغوى ، وغيرهم ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : اجتمعت قريش يومًا ، فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب آلهتنا ، فليكلّمه ، ولننظر ماذا يردّ عليه ، فقالوا : ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : ائته يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة ، فقال : يا محمد ، إن كان إنّما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنما بك الباءة[٤٢] فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوّجك عشرًا . فقال رسول الله ﷺ : «فرغت» ؟ قال : نعم ، فقرأ رسول الله ﷺ صدرًا من سورة فصّلت ، حتى قال عتبة : حسبك، وعاد إلى قومه ، فقالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[٤٣].

★ ★ ★

كتاب فصّلت آياته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

فصلت آياته : بيّنت وميّزت أتمّ بيان ، وأوضح تفصيل للأحكام والقصص والمواعظ .

فهم لا يسمعون : سماع تأمل وطاعة وقبول ، أى : لا يقبلون ولا يطيعون .

أكنة : أغطية سميكة متكاثفة ، والأكنة جمع كِنان ، كأغطية وغطاء وزنا ومعنى .

وقر : صمم ، وأصله الثقل فى السمع .

حجاب : ساتر مانع من الإجابة ، والمراد : خلاف فى الدِّين .

فاستقيموا إليه : توجهوا إليه بالإيمان والطاعة .

ويل : هلاك .

لا يؤتون الزكاة : لا يتصدقون بجزء من مالهم للسائل والمحروم .

غير ممنون : غير مقطوع ولا يمنّ به عليهم ، من المنّ ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَقٍ على الصديق ، ولا خيرى بممنون

التفسير :

١ - حمٓ .

افتتاح قُصد به لفت الأنظار ، وإثارة الانتباه إلى أن هذا القرآن مؤلف من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه من عند الله وحده ، وقيل : هى أدوات للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، وقيل : هى حروف تشير إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

وقد مر ذكر هذه الآراء بالتفصيل فى صدر سورة البقرة .

٢ - تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ .

هذا القرآن منزَّل من عند الله الذى اتَّصَفَ بالرحمة ، فالرحمة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، وهو أيضًا رحيم تنتقل الرحمة منه إلى عباده ، وخص صفة الرحمة بالذكر لبيان أن القرآن فى تشريعه وأخباره وقصصه ، وأوامره ونواهيه وسائر ما اشتمل عليه ، رحمة من عند الله بخلقه .

٣ - كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

كتاب وُضِّحت آياته ، وبُينت ومُيِّزت سوره ومقاصده ، ففيه القصص والأحكام ، والأخبار والتشريع ، وأخبار القيامة ، وصفات الله وكمالاته وقدرته ، وفيه وصف الكون وما اشتمل عليه ، وفيه بدء الخليقة ، وأخبار الرسل مع أقوامهم ، وفيه المواعظ وألوان الهداية ، كل ذلك قد وُضِّح توضيحًا ، وبُيِّن تبيينًا ، وعرض فى أسلوب مؤثر يؤدى إلى خشوع القلوب وتأثر الأفئدة ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ، يقدِّم ألوان المعرفة والعلم لمن أراد أن يتعلم .

٤ - بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

هذا القرآن نزل مشتملاً على ألوان البيان ، فهو يبشر المؤمنين بالهدى والرضوان فى الدنيا ، وبالجنة ونعيمها فى الآخرة ، وهو ينذر الكافرين ببطش الله وعقوبته فى الدنيا ، وبعذاب جهنم فى الآخرة ، لكن الكفار لم يستجيبوا لدعوة القرآن لهم إلى الإيمان ، وأعرض أكثر الكافرين عن القرآن ، وانصرفوا عن هدايته والإصغاء إليه .

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

سماع تدبر وإمعان ، وإن سمعت آذانهم القرآن إلا أنهم أعرضوا عنه بقلوبهم ، فكأنهم لم يسمعوه ، تقول : ذهبت إلى فلان لأعرض عليه الموضوع فلم يسمعنى ، أى لم يستجب لما رجوته منه .

قال تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ . (محمد : ١٦) .

وقال سبحانه : وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . (الأنفال : ٢١) .

وقال عز شأنه : وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا . (الإسراء : ٤٥ ، ٤٦) .

٥ - وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ .

جهر الكفار هنا بترك دعوة الإسلام ، وعدم الإصغاء إليها بقلوبهم ، أو الاستماع إليها بآذانهم ، أو النظر فيها بعقولهم ، مع استهزائهم بالوعيد وتحدّيهم للرسول ﷺ .

والمعنى :

إن قلوبنا فى أغطية وحجاب سميك من دعوتك ، فلا تتفتح لها ولا تفقهها ، ولما كان القلب أداة الفهم، والسمع والبصر وسائل التأمل، أعلنوا أنهم معرضون بقلوبهم ، كما أنّ آذانهم صماء لا تسمع دعوة القرآن، ولا تستجيب له ، وهناك حجاب معنوى حاجز بين دعوة الإسلام وبينهم ، فهم فى وادٍ والإسلام فى وادٍ آخر، فاتركنا يا محمد فى ديانتنا وعبادة أصنامنا ، واعمل أنت على منهج دينك ، إنا مستمرون وعاملون على طريقة ديننا ، فى التزام عبادة الأصنام والأوثان ، وفى قولهم هذا مبارزة بالخلاف والتحدّى .

٦ - قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ .

قل لهم يا محمد : أنا رجل منكم ، تعرفون نسبى ونسب آبائى ، فلست بملاك ولا جنى ، إنما أنا بشر مثلكم ، اختصنى الله تعالى بالوحي والرسالة ودعوة الناس إلى توحيد الله تعالى ، والإخلاص له فى العبادة ، فاسلكوا إلى الله الطريق القويم ، واستقيموا فى طاعته ، واستغفروه من ذنوبكم ، ومن الشرك وعبادة الأصنام ، فإن الويل والعذاب الشديد فى جهنم للمشركين الذين عبدوا غير الله ، وأشركوا به عبادة الأوثان والأصنام .

٧ - ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

لقد جمعوا طائفة من الرذائل هى :

١ - الإشراك بالله .

٢ - منع الزكاة عن الفقراء والمساكين .

٣ - جحود الإيمان باليوم بالآخر .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالزكاة هنا زكاة المال ، وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، ونُسب لابن عباس أن المراد بالزكاة هنا طهارة النفس والقلب ، بعبادة الله وحده لا شريك له ، واستدل أصحاب هذا الرأى بأنَّ السورة مكية ، وزكاة المال لم تفرض بمكة ، لكن الراجح أن المراد بالزكاة هنا إخراج جانب من المال ، فأصل الزكاة قد فرض بمكة ، بمعنى مطلق النفقة ، لكنَّ بيان أنواع الزكاة ومقدار الأنصبة قد شرع فى المدينة ، لقد كانت مكة على جانب كبير من الغنى والجاه والسلطان ، وكان لأهل مكة تجارةٌ رابحة، تسير إلى الشام وإلى اليمن ، وهذا الغنى والجاه والثروة جعلهم يترددون طويلاً تجاه الإسلام ، لأنه سيحرمهم من شهواتهم والاستمتاع بأموالهم ولذائذهم ، ولأنه ينزل بهم من ارتفاع الغنى والجاه والسلطان والتميُّز إلى الجلوس مع الفقراء والعبيد .

وكان كفار مكة يُقسِّمون الناس إلى قسمين : طائفة الأغنياء والكبراء والأمراء ، وهؤلاء من حقهم الأمر والنهى والتفكير ، وطائفة الفقراء والعبيد ، وهؤلاء يجب عليهم اتباع الكبراء ، ولا يجوز لهم التفكير أو اختيار الدِّين الذى يرتضونه ، ثم جاء الإسلام دعوة عالمية ، تبين أن الناس جميعًا قد خلقوا من أب واحد وأم واحدة ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، واحتاج أهل مكة إلى وقت طويل لاستيعاب هذه الأفكار الإسلامية ، ثم فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وظل فضل السبق للمؤمنين الأولين كما قال سبحانه : لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . (الحديد : ١٠) .

٨ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعملوا الأعمال الصالحة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، ورحمة اليتيم والمسكين ، وإكرام الجار وصلة الرحم ، ونشر دعوة الإسلام ، والجهاد فى سبيل الله وغير ذلك ، لهم أجر دائم فى الجنة ، لا ينقص أجرهم ، ولا أحد يمنّ عليهم ، بل يزيدهم الله من فضله ، ويرفعهم درجات ، ويمنّ عليهم بالرضا والعطاء وزيادة الإحسان .



دلائل القدرة

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

فى يومين : فى مقدار يومين ، أو نوبتين .

أندادا : شركاء ، جمع نِدٍّ وهو الكفء والنظير .

العالمين : جمع عالم ، وهو ما سوى الله ، وجُمع لاختلاف أنواعه تغليبا للعقلاء .

رواسى : جبالاً ثوابت .

وبارك فيها : أكثر خيرها بأن خلق فيها جميع أنواع النبات والحيوانات والمياه .

وقدّر فيها أقواتها : قسم فيها أقواتها للناس والبهائم .

فى أربعة أيام : أى : فى تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين .

للسائلين : قدّر فيها الأقوات للطالبين لها .

ثم استوى إلى السماء : قصد وعمد نحوها ، أى : تعلقت إرادته بها.

وهى دخان : مادة غازية مظلمة، تشبه الدخان فى رأى العين .

ائتيا طوعا أو كرها : اخضعا لمرادى طائعتين أو مكرهتين.

قالتا أتينا طائعين : هذه كناية عن الطاعة والإذعان والامتثال .

فقضاهنّ : خلقهنّ وصيّرهنّ وأكملهن وفرغ منهنّ .

فى يومين : فى تمام يومين .

وأوحى فى كل سماء أمرها : وخلق فى كل منها ما أُعدّ لها .

بمصابيح : بنجوم .

وحفظا : حفظناها من استراق الشياطين السمع .

تقدير العزيز العليم : تقدير البالغ التامّ فى القدرة والعلم .

تمهيد :

خلق الله تعالى الكون كرةً ملتهبة ، مرّت بها بلايين السنين حتى انفصلت الأرض وهدأت قشرتها الخارجية ، وارتفعتْ السماء وصارت صالحة لأن تمطر ، وتكوّن الهواء والفضاء بين الأرض والسماء ، وقد مرّ خلق السماء والأرض والجبال والبحار والفضاء بست مراحل ، عبّر عنها القرآن الكريم بستة أيام ، لقد كانت السماء رتْقاء لا تمطر ، والأرض رتْقاء لا تنبت ، وبعد ٦ بلايين سنة كمل خلق الكون ، وصار صالحا لوجود الإنسان على ظهره .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

وفى التفسير : الرتق ضدّ الفتق ، أى : كانتا ملتصقتين ، فرفع الله السماء وبسط الأرض ، وجعل الماء ونزوله من السماء سببا فى حياة الإنسان والحيوان والنبات ، وخلال العقد الأخير من القرن العشرين عقد فى أمريكا مؤتمر للبحث فى عمر الكون ، ورأى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن وجود الإنسان على ظهر الكون عمره سبعة بلايين سنة ، أى أن المدة التى تم فيها خلق الكون وتهيئته لحياة الإنسان عليه هى ستة بلايين سنة ، ولعلها هى ما عبّر عنه القرآن بستة أيام ، والله أعلم .

التفسير :

٩ - قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

ليس المراد باليومين أيام الدنيا ، فلم يكن فى ذلك الوقت شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، والعرب تعبِّر باليوم عن سنين كثيرة مثل يوم البسوس ، ويوم ذى قار ، وحرب البسوس امتدت أربعين سنة .

قال تعالى : وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج :٤٧) .

وقال سبحانه : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

فالمراد باليومين نوبتان علّهما نوبة الخلق ، ثم نوبة الدّحى والاستدارة .

أى : إنكم تشاهدون قدرته وجلاله ، وتعلمون أن هذا الكون البديع لا يخلقه إلا إله قادر ، ومع هذا فأنتم تكفرون بهذا الإله ، وتجعلون له شركاء لم تخلق ، مثل الأصنام والأوثان والملائكة وعزير وعيسى ، وقد بُدئت الآية بالاستفهام الإنكارى للتوبيخ والتعجيب .

والمعنى :

كيف تكفرون بالله وهو الإله العلى الشأن ، الكامل القدرة ، الفعال لما يريد ، الذى خلق الأرس فى يومين ؟ وكيف تلحدون فى ذاته وصفاته ، حيث جعلتم له أنداداً وشركاء عبدتموهم معه تعالى ، مع أنهم لا شأن لهم فى الخلق ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورًا ؟

والمراد بالأرض الأرضون السبع .

قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... (الطلاق : ١٢) .

وقد وردت السماوات جمعا ومفردة فى القرآن الكريم ، ووردت الأرض مفردة فقط ، وليس فى القرآن ما يشير إلى سبع أرضين إلا الآية السابقة وهى الآية ١٢ من سورة الطلاق .

ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . أى : ذلك الإله الخالق المبدع هو رب العالمين كلّهم ، أى العالم العلوى والسفلى ، فكيف تجعلون له شريكا ؟

١٠- وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ .

أى : جعل فى الأرض جبالا رواسى ، نراها ظاهرة فوق الأرض لتثبيت الأرض وحفظ توازنها ، وللجبال أهمية كبرى فى عمران الأرض وثباتها ، فالمياه تتجمع في قللها ، والثلوج تتجمع فوقها ، وهى ملجأ الهارب ، وهى وسيلة للتعبّد ، وكثيرا ما تذكر الجبال ويذكر بعدها المياه والنبات والأشجار ، ولأمر ما كانت الرسالات السماوية مرتبطة بالجبال .

فابن نوح يقول : سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ... (هود : ٤٣) .

وداود عليه السلام كان إذا سبح سبحت معه الجبال .

قال تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ . (سبأ : ١٠) .

والنبى محمد ﷺ نزل عليه الوحى فى غار حراء فوق جبل مرتفع ، وكان غار ثور مكان الاختباء فى رحلة الهجرة ، وعندما طلب موسى رؤية ربّه سبحانه وتعالى أخبره الله أنّه لا يطيق هذه الرؤية ، وضرب له مثالا بالجبل ، فقد ظهر الله تعالى للجبل فاندك فى الأرض ، وصعق موسى من هول ما رأى ، وتاب إلى الله من السؤال السابق ، قال تعالى : وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأعراف : ١٤٣) .

فالجبال وسيلة من وسائل تثبيت الأرض وحفظ توازنها وإتمام معايشها .

وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ .

أى : إن الله جعل الأرض وسيلة للنبات والزروع والثمار والضروع ، ورقّى الصناعات ، ووسائل المواصلات ، وجعل التجارة وسيلة لنقل الخيرات من بلد إلى آخر ، كما أن الله تعالى هيّأ الأرض لتكون وسيلة للطعام والأقوات والكساء ، وأودع همة بعض الناس فى التجارة لنقل البضائع من بلد إلى آخر ، وقد تم كل ذلك فى أربعة أيام كاملة لمن سأل عن المدة التى تم فيها خلق الأرض ، ثم خلق الجبال والبحار والأنهار والأرزاق ، والمراد بـ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ . مجموع أربعة أيام، لأن الخلق كان فى يومين ، ثم خلق الجبال والبحار والأنهار وتقدير الأرزاق فى يومين ، فيكون مجموع أيام خلق الأرض وما فيها أربعة أيام ، ولقد أشار القرآن إلى أن خلق الأرض وما عليها وخلق السماوات كان فى ستة أيام .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . (ق : ٣٨) .

١١ - ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

أى : قصد سبحانه وعمد إلى خلق السماء ، وهى فى حالة غازية تشبه الدخان ، فقال للسماء : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقّى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك .

وقد قال سبحانه وتعالى للسماء والأرض : انقادا لأمرى طائعتين أو مكرهتين ، فأظهرتا من الطاعة والامتثال والاستجابة والطواعية ما دل على أنهما طائعتان لأمره ، بحيث لو نطقتا لقالتا : أتينا طائعتين.

قال الفخر الرازى :

والمقصود من هذا القول إظهار كمال القدرة ، أى : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلنّ هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين ... اهـ .

وقد ذكر العلماء هنا إشكالاً مؤداه أن مفهوم الآيات هنا فى سورة فصّلت يفيد أن الأرض خلقت أولا، ثم خلقت السماء بعد خلق الأرض ، لكن فى سورة النازعات يقول القرآن الكريم : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا • رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا • وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا • وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ. (النازعات : ٢٧ – ٣٠) .

وقد ذكر الإمام الرازى :

أن الله تعالى خلق الأرض فى يومين أولا ، ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض، أى بسطها ، وبهذا يزول التناقض .

وعند التأمل نجد أن الكون كله كان فى حالة غازية ، عُبِّر عنها بنظرية السديم ، أى أن الكون كان فى حالة ملتهبة ، احتاج إلى بلايين السنين ليهدأ ويتم خلقه ، وأن الأيام الستة تعنى ست مراحل مر بها خلق الكون حتى اكتمل وصار صالحا للحياة .

١٢ – فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

فأتم خلق السماوات السبع فى مقدار يومين أو نوبتين .

وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ...

أى : جعل فيها النظام الذى تجرى عليه الأمور فيها .

قال قتادة : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها .

وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

السماء القريبة من الأرض جعلنا فيها النجوم زينة للسماء كالمصابيح ، وهذه النجوم لحفظ السماء من الشياطين التى تحاول استراق السمع ، وهى أيضا هداية للسائرين فى البر والبحر ، يعرفون منها اتجاه القبلة ، ويعرفون منها الجهات الأربع الأصلية ، ذلك النظام البديع هو تقدير الله القوى الغالب ، العليم بمصالح عباده وحاجاتهم .

وتفيد الآيات جلال القدرة الإلهية المبدعة التى خلقت الأرض مكاناً فسيحاً، ومائدة عامرة يأكل منها الإنسان والحيوان والطير، وخلقت السماء سقفا مرفوعًا مزينًا بالنجوم، محفوظا بالشهب من الشياطين المتمردين، مزوداً بأسباب هداية السائرين فى المحيطات وفى الصحراء، مثل النجم القطبى، ومجموعة من النجوم على شكل مغرفة، تسمى مجموعة كاثيوبيا، نعرف منها جهة الجنوب، وبالتالى نعرف جهة الشمال ثم الشرق والغرب.

وتفيد الآيات أن لهذا الكون إلها خالقاً رازقاً، يحفظ الكون ويمسك بزمامه، وكان من دعاء الرسول ﷺ عند النوم: «اللهم رب السماء وما أظلت، والأرضين وما أقلّت، والشياطين وما أضلت، كن لى جاراً من شرار خلقك، عزّ جارك»[44].

وقال تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا. (فاطر: ٤١).

★ ★ ★

تهديد المشركين بأن يكون مصيرهم مثل مصير عاد وثمود

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات:

أعرضوا: ولّوا وانصرفوا.

صاعقة: عذابا مهلكاً.

لو شاء ربنا لأنزل ملائكة: لو أراد الله إرسال رسل إلينا لأنزل لنا ملائكة تدعونا إلى عبادته .

فاستكبروا: تعظموا وتعالوا ، وقالوا : من أشدّ منّا قوة ؟

بغير الحق : ادعوا أنهم أقوياء ، قادرون على صدّ أى عذاب يأتيهم مهما كان مصدره .

يجحدون ينكرون مع علمهم أنه الحق .

ريحا صرصرا: شديدة الحرارة مع صوت مزعج .

نحسات: مشئومات عليهم لأنهم عذبوا فيها .

فهديناهم : بيّنا لهم طريق الهدى والحق بإرسال الرسل وبيان الحجج والأدلة .

فاستحبوا العمى على الهدى: فاختاروا الضلالة وتركوا الطريق المستقيم .

صاعقة : نار تنزل من السماء فى رعد شديد ، ولا تصيب شيئا إلا أحرقته .

الهون : المخزى المذلّ المهين .

تمهيد :

كانت عاد تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة بين اليمن وسلطنة عمان فى منطقة صلالة ، وقد أنذرهم رسولهم عذاب الله ، فاستكبروا واستحقُّوا العذاب ، وأظهروا استعدادهم لصدّ أىّ عذاب نظراً لقوتهم وبأسهم وقوة أجسامهم ، وإعجابهم بقدرتهم وقوّتهم ، ولما جاء العذاب إليهم كانوا يحفرون لأنفسهم حفراً، ويربطون أنفسهم بالسلاسل ، ويتركون رءوسهم فى أعلى الحفرة ، فكانت الريح تأتى فتقطع رقابهم وتتركهم هلكى ، مثل عجز النخلة التى قُطعت ساقها .

وكانت ثمود تسكن فى شمال الجزيرة ، وأرسل الله إليهم صالحًا ومعه ناقة معجزة ، تحلب لهم لبناً يكفيهم أجمعين ، وطلب منهم أن يشربوا من الماء فى يوم ، ويتركوا الماء للناقة فى اليوم التالى ، لكنهم عقَرُوا الناقة واستخفُّوا بالعذاب ، بل طلبوا من صالح أن يأتيهم به ، فأرسل الله عليهم عذابا مدمِّرا مهلكا مذلاً مهينا ، وهذا العذاب يمكن أن يصيب أهل مكة مثله إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ .

التفسير :

١٣ – فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ .

أى : إن أعرض أهل مكة عن دعوتك يا محمد ولم يؤمنوا بها ، واستمروا فى عنادهم واستكبارهم ، فقل لهم : إنى أحذّركم من العذاب الماحق المهلك الذى أهلك الكافرين قبلكم ، فعاد كانت تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وقد أهلكها الله ودمّرها وطمس معالمها ، وكذلك ثمود التى كانت تقطن بالحِجر فى شمال الجزيرة ، وتمرُّون على دورها فى طريقكم إلى الشام وفى عودتكم منها .

١٤ - إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ .

لقد تقدمت الرسل إليهم بالدعوة والحجة والدليل والبرهان، وأعملوا فيهم كل حيلة ، وسلكوا كل سبيل، ومن ذلك أنهم قصُّوا عليهم قصص الأمم السابقة وما أصاب المكذبين من الهلاك ، ولفتوا أنظارهم إلى دلائل القدرة الإلهية فى خلق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنبات والزروع والثمار، والبحار والأنهار ، ومن كانت هذه آثار قدرته فينبغى أن نخصَّه بالعبادة ، وأن نعبده وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الخالق الرازق المتفرد بالبقاء ، وهو النافع الضار ، فينبغى أن نتجه إليه وحده بعبادتنا ، وألاَّ نعبد أحداً سواه .

قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً ...

قال الذين كفروا لرسلهم : أنتم بشر مثلنا ، ولو أراد الله أن يرسل إلينا رسولا لاختاره ملكا متميزا علينا حتى نؤمن به .

فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ .

لقد كفرنا برسالتكم وكذَّبنا دعوتكم ، ونسى هؤلاء أنّهم لا يطيقون رؤية الملاك فى صورته الحقيقية ، وأن الله لو أرسل ملكا لأرسله فى صورة بشر .

قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

١٥ - فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ .

كانت عاد فى نعمة وعافية ، أجسامهم قوية ، وأنْعُم الله عليهم متوالية ، وجاء إليهم هود عليه السلام يقدِّم إليهم نصيحته ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى والاستقامة على منهجه ، فرفضوا الإيمان ، واستهزأوا بالإنذار والوعيد ، وطغوا وبغوا وتمرَّدوا على هدى السماء ، وقالوا لرسولهم : لا أحد أقوى منَّا حتى يقهرنا ، ونحن قادرون على دفع ما ينزل بنا من عذاب .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ .

أو لم ينظروا إلى قدرة الإله القادر ، الذى خلق السماء والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وهو على كل شىء قدير ، أمره بين الكاف والنون ، وهو فعال لما يريد ، لا ملجأ ولا مهرب منه إلاَّ إليه .

قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

لقد قاسوا قوتهم إلى قوة الخالق ، وشتان بين قوة المخلوق وقوة الخالق ، قوة المخلوق محدودة وقوة الخالق لا حدود لها ، ولا شيء يعجزه سبحانه ، ومع ذلك فهو عادل في عقابه .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

وقال عز شأنه : وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ . (الرعد : ١١) .

لقد كانوا يعرفون صدق الرسالة ، وصدق الرسول ، وصدق المعجزات ، ولكنهم جحدوا الرسالة كما يجحد المودَع إليه الوديعة .

وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ . أي : ينكرون المعجزات والأدلة الدامغة التي هي حجة عليهم ، ويعصون الرسول .

١٦ - فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ .

أرسلنا عليهم ريحا مدوِّية مهلكة شديدة الحرارة ، أو شديدة البرودة ، في أيام مشئومات لأنهم عذبوا فيها ، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصه ، فيقال له يوم سعد بالنسبة لمن تناله النعماء ، ويقال له يوم نحس بالنظر لمن تصيبه الضرّاء .

قال السدّي : رِيحًا صَرْصَرًا . مصوِّتة ، من صرّ يصرُّ ، إذا صوت ، وروى أنها كانت تحمل العير بأثقالها وأحمالها فترميها بالبحر .

لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...

أردنا أن نذلّهم ونخزيهم بعذاب أليم لأجسامهم ، وهوان شديد لنفوسهم ، حيث قطعت الريح رءوسهم ، وتركتهم صرعى وهلكى ، كالنخلة التي قُطعت ساقها ، وترك جذرها عديم الفائدة .

قال تعالى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ - ٨) .

وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ .

وهناك عذاب فى الآخرة أشد خزيا وهوانا ، حيث لا يجدون أحداً ينصرهم من دون الله ، وذلك بسبب تجبّرهم وتكبّرهم بالباطل ، وعتوّهم وأنَفَتهم من سماع نصيحة رسولهم .

قال تعالى على لسان رسولهم هود عليه السلام : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . (الشعراء : ١٢٨ – ١٣١) .

١٧ – وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

أعطينا قبيلة ثمود العقول والإرادة والاختيار ، وأرسلنا إليهم رسول الله صالحًا ، ومعه ناقة تسقيهم، ومعها عدد من الآيات الدالة على صدق صالح ، فعقروا الناقة ، واختاروا الضلال والكفر ، والبعد عن رسولهم، وعن هدايته ، فأرسل الله عليهم قارعة صاعقة مدمرة محرقة ، هى الصيحة والرجفة والذلّ والهوان بسبب تكذيبهم صالحاً عليه السلام ، وعقرهم للناقة ، لقد كان العذاب مهلكا لأجسامهم ومذِلاً لنفوسهم ، بسبب عقر الناقة وتكذيب صالح وجحود الحقّ .

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا . (الشمس : ١١ – ١٥) .

١٨ – وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ .

لقد نجّى الله صالحا ومن آمن به ، وجعلهم فى نجوة ومكانة رفيعة لا ينالهم فيها هوان .

فى أعقاب الآيات

(أ) العبرة من رواية هذا القصص تأييد الرسول ﷺ ومن آمن به ، وتهديد المشركين فى مكة بأن يصيبهم مثل ذلك العذاب ، وقد أكرم الله رسوله محمداً ﷺ بأن حفظ أمته من مثل ذلك العذاب المهلك المخزى، حيث قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

(ب) ذكر بعضهم أن الأيام النحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد كانت فى أواخر شوال، وأن أوّلها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها أيضا كان فى يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشاءم من هذا اليوم ، والحق أن ما ذكروه فى هذا الشأن لا دليل عليه ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب قوم عاد إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم .

قال الشيخ الشنقيطي في تفسير أضواء البيان :

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها فالمراد بالنحس : شؤمه على أولئك الكفرة العصاة ، الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم . ا هـ .

(جـ) كثيرا ما يقرن القرآن بين ذكر عاد وثمود ، كما في سور : «براءة» و«إبراهيم» و«الفرقان» و«ص» و«ق» و«الذاريات» و«النجم» و«الفجر» .

(د) ورد في مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ مرّ بقرى ثمود وهو في طريقه إلى تبوك ، فأسرع براحلته ، وقنع رأسه ، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن نكون باكين ، فإن لم نبك فلنتباك ، خشية أن يصيبنا مثل ما أصابهم .

★ ★ ★

كيفية عقوبة الكفار في الآخرة ، وشهادة الجلود

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ ﴾

المفردات :

يوزعون : يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم .

جلودهم : جوارحهم ، أو شهادة الجلود بالملامسة للحرام ، وقيل : هو كناية عن الفروج .

تستترون : تستخفون .

أن يشهد عليكم سمعكم : عندما كنتم تتخفون حال المعصية لم يكن ذلك خوفا من أن تشهد عليكم جوارحكم .

ولكن ظننتم أن الله لا يعلم : ولكنكم تخفيتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيرا من خطاياكم ، مع أنه بكل شيء محيط .

أرداكم : أهلككم .

مثوى : إقامة دائمة .

وإن يستعتبوا : وإن يطلبوا الرضا عنهم ، أو قبول عذرهم .

فما هم من المعتبين : فما هم من المجابين إلى ما يسألون .

تمهيد :

تحدثت الآيات السابقة عن عقوبة قوم عاد وقوم ثمود فى الدنيا ، وكيف أصابهم الهلاك المدمّر ، وهنا تتحدث الآيات عن عقوبتهم فى الآخرة ، وتعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، حيث يختم الله على أفواه الجناة ، وتشهد عليهم جوارحهم بما اكتسبوا من سيئات ، وإنه لمشهد مخيف ، أن يكون جزءٌ من الإنسان شاهداً عليه معترفاً بجنايته ، وهنا يقول الإنسانُ لأجزاء جسمه : كيف تشهدون عليّ ؟ فتنطق الجوارح وتقول: أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء ، وبيد الله كل أمر من أمور الخلق والبعث ، فقد خلقكم فى الدنيا عند ولادتكم ، وإليه ترجعون عند الحساب والجزاء .

التفسير :

١٩ - وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ .

أى : اذكر أيها العاقل يوم الحساب والجزاء ، حين يُحشر الكافرون والظالمون الذين أعلنوا عداءهم لربهم وخالقهم ، فلم يطيعوا أمره ولم يجتنبوا نواهيه ، وهم جماعات كثيرة من أهل جهنم ، ولذلك يُحبس أولهم عن الحركة حتى يجتمع أولهم وآخرهم فى عرصات القيامة قبل دخول النار .

٢٠ - حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

حتى إذا وصل الكفار إلى جهنم أنكروا معاصيهم ، وأقسموا بالله أنهم لم يكونوا مشركين ، وهنا يختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم جوارحهم بارتكاب المعاصى والموبقات ، فتقول العين : أنا للحرام نظرت، وتقول الأذن : أنا لما لا يحل سمعت ، ويقول الفرج : أنا فعلت ، وتنطق الجلود بأنها لامست جلوداً لا تحل لها، وتنطق كل جارحة بما عملت .

قال تعالى : ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (يس : ٦٥) .

٢١ - وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

عند شهود الجوارح ، ونطق الأعضاء على الإنسان ، يحس بالخجل من نفسه ويتوقع العذاب فى جهنم ، فيقول للجوارح التى شهدت عليه : كيف تشهدون علىّ ، وأنا كنت أناضل عنكم فى الدنيا وأدافع عنكم ؟ وهنا تجيب الجوارح : نحن خاضعُون لقدرة الله اليوم ، فلا مهرب من عقاب ، ولا مفر من جزاء ، لقد خلقكم الله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، ثم أوجدكم فى الدنيا أول مرة ، بعد أن نفخ الروح فى أجسامكم ، وصرتم خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم أنشأ الله الإنسان طفلا ، ثم فتى ثم يافعاً ثم شابًا ثم شيخا ، وخلال حياته أرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، ويسّر له أسباب الهداية ، ثم كفر الإنسان واستكبر ، ثم يرجع إلى ربه للحساب والجزاء ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وفى صحيح مسلم ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : «هل تدرون ممَّ أضحك»؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال: «من مخاطبة العبد ربّه ، يقول: ألم تُجرْنى من الظُّلم ؟ قال : يقول : بلى، قال : فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منّى ، قال : يقول : كفى بنفسك اليوم شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعداً لكُنَّ وسُحقاً ، فعنكنّ كنت أناضل»(**) .

٢٢ - وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ .

هذه الآية من كلام الجوارح للكافرين والظالمين ، أو هى من كلام الله تعالى لهم .

ومعناها :

عندما كنتم تختفون عن الناس ما كان يخطر ببالكم أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم .

وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ .

أى : اعتقدتم أنكم إذا اختفيتم واستترتم لا يطلّع الله على ذنوبكم ، أو لا يعلم الكثير منها ما دامت مختفية .

٢٣ – وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

خدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم ، فوقعتم فى الردى والهلاك ، وقادكم هذا الظن إلى الخسران فى الدنيا والجحيم فى الآخرة .

فالله تعالى : بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . وهو سبحانه مطلع على كل شىء ، ورقيب على كل شىء .

قال تعالى : مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

وقال عز شأنه على لسان لقمان : يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ١٦) .

وقد أخرج البخارى، ومسلم، وغيرهما ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر علىّ : ثقفيان وقرشى، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ فقال الرجلان : إذا سمعنا أصواتنا سمع ، وإلاّ لم يسمع ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ... إلى آخر الآيتين[٦٦].

قيل : والظن قسمان : ظن حسن بالله تعالى ، وظن فاسد ، أما الظن الحسن فهو أن يظن به سبحانه الرحمة والفضل ، قال ﷺ حكاية عن الله عز وجل : «أنا عند ظنّ عبدى بى»[٦٧] ، وقال ﷺ : «لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله تعالى»[٦٨] .

والظن الفاسد هو أن يظنّ بالله أنه يعزُبُ ويغيب عن علمه بعض هذه الأحوال .

٢٤ – فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ .

أى : لا أمل فى الخلاص ، فقد أوصدت عليهم جهنم ، والصبر وعدم الصبر سواء ، فإن امتنعوا عن الشكوى ، ولاذوا بالصبر والصمت فالنار مقرهم الدائم ، ودار الثواء والإقامة الأبدية ، وإن طلبوا العتبى والرجاء فى الصفح والعفو وقبول أعذارهم ، لم يجدوا من يستجيب لهم .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم على لسانهم : سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ . (إبراهيم : ٢١)

قال ابن جرير :

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ . أي : يسألوا الرجعة إلى الدنيا ، فلا جواب لهم ، قال : وهذا كقوله تعالى إخبارًا عنهم : ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ ٱخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ . (المؤمنون : ١٠٦ – ١٠٨) .

★ ★ ★

ألوان من عناد الكافرين وسوء مصيرهم

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

المفردات :

قيضنا : يسرنا وبعثنا وهيأنا .

قرناء : رفقاء وأصدقاء وأصحاب ، من قرن الشيء بالشيء ، أي : وصلَه به ، وأصحبه إياه .

فزينوا لهم : فحسَّنوا لهم .

ما بين أيديهم : من قبائح أعمال الدنيا .

وما خلفهم : من أمور الآخرة ، مثل إنكار البعث والحشر ، حيث حسَّنوا لهم التكذيب بالآخرة .

وحق عليهم القول : وجب عليهم الوعيد بالعذاب .

خلت : مضت ، أي : في جملة أمم كافرة قد مضت من قبلهم .

خاسرين : حيث باعوا نعيم الآخرة ، واشتروا عذابها .

الذين كفروا : مشركو مكة .

لا تسمعوا : لا تأخذوا بهذا القرآن .

والغوا فيه : شوّشوا عليه بالصفير والتصفيق ، حتى يصير لغوا ، ولا يستفيد به أحد .

يجحدون : يكفرون وينكرون .

تمهيد :

يعرض القرآن جانبًا من أفعال الكافرين ، فهم لسوء جبلّتهم آثروا أصدقاء السوء ، الذين يزينون لهم القبائح والمعاصى ، ويزهّدونهم فى الآخرة ، ويهونون شأنها ، وبذلك يصبحون مع أمم سابقة كعاد وثمود وأشباههم ، إنهم خسروا نعيم الآخرة ، واستحقوا عذابها .

ومن رذائلهم الإعراض عن سماع القرآن ، وعدم الاستجابة لهديه ، بل والانشغال بالصّفير والتصفيق، حتى يصبح القرآن لغوًا غير واضح ولا مفهوم ، لقد استحقوا العذاب الشديد فى جهنم ، والعقوبة على أعمالهم السيئة ، والأسوأ من السيئة أنهم يقيمون فى جهنم خالدين فيها أبدا ، جزاء جحودهم وكفرهم ، وعند نهاية الدنيا ، وظهور الجزاء والحساب ، ودخول الكافرين النار ، تظهر عداوتهم لقرنائهم ، وأصدقائهم من الجن والإنس الذين زينوا لهم الكفر ، وزهّدوهم فى الإيمان ، ويتمنون أن يجعلوهم تحت أقدامهم ، ليكونوا من الأسفلين مكانة ومكانًا .

التفسير :

٢٥ - وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ .

إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا رزقه رفيقًا صالحًا يذكّره إذا غفل ، ويأمره بالخير ويحذّره من الشر ، وإذا أراد الله بعبد شرًا يسر له رفيق سوء ، لا يذكّره إذا غفل ، ولا يأمره بالخير ولا ينهاه عن الشرّ .

قال تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . (الزخرف : ٣٦ ، ٣٧) .

ومعنى الآية :

من سوء أعمالهم يسرنا لهم رفقاء سوء ، يحثّونهم على الشرّ ، ويزيّنون لهمْ المعاصى والكفر والفسوق فى الدنيا ، ونكران البعث والحشر والجزاء فى الآخرة ، فاستحقوا لعنة الله وعذاب النار مع أمم سابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وأشقياء من الجن والإنس باعوا ضمائرهم وآثروا العاجلة ، فخسروا نعيم الآخرة واستحقوا عذابها .

وفى أمثالهم يقول القرآن الكريم : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا . (الكهف : ١٠٣ – ١٠٦) .

٢٦ – وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ .

كان القرآن يأخذ سبيله إلى القلوب والعقول ، ونطق بعض الكفار بأن للقرآن حلاوة ، وله طلاوة ، وأعلاه مثمر ، وهو فوق طاقة البشر ، كل ذلك أرجف قلوب المشركين ، وجعلهم يتواصون بعدم الاستماع إلى القرآن ، وصَرْف الأتباع والصغار عن الاستماع إليه ، بل والانشغال بما يشوِّش على القرآن ، كالصفير والتصفيق ، وبذلك يتحوَّل القرآن من أصوات مسموعة وجُمل مفهومة إلى لغو غير مفهوم ، كل ذلك رغبة منهم فى غلبة القرآن وقهر الإسلام .

حتى قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول ، كل ذلك يدل على خوف قريش من القرآن ، ومن الرسول الأمين ، ولكن الله تعالى أتمّ دينه ، ونصر رسوله ، ويسر له الهجرة إلى المدينة ، والعودة إلى مكة فاتحًا منتصرًا ، وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (يوسف : ٢١) .

٢٧ – فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذابًا شديدًا لا يخفّ ولا ينقطع ، ولنجزينهم بشرِّ أعمالهم وسيئ فعالهم أسوأ وأقبح الجزاء .

قال الجمل فى حاشيته :

وفى هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه لكلام الله خاضعًا خاشعًا متفكرًا متدبرًا ، وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ ، ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد ، وتأمّل فى هذا التغليظ والتشديد ، واشهد لمن عظَّمه وأجلّ قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد – بالفوز العظيم . اهـ .

وفى المقابل نجد أن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالاستماع للقرآن والإنصات له .

قال تعالى : وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . (الأعراف : ٢٠٤) .

٢٨ – ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ .

أى : ذلك الجزاء لأقبح أعمال الكفار – وهو دخول النار – هو جزاء أعداء الله ، الذين كذبوا رسله واستكبروا عن عبادته .

لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ ... لهم فى جهنم دار الإقامة ، لا يخرجون منها أبدا ، جزاء وفاقًا على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الله البينات .

قال الفخر الرازى :

وسمّى لغوهم بالقرآن جحودًا ، لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حدّ الإعجاز ، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به ، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزًا ، إلا أنهم جحدوه حسدًا.

٢٩ – وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ .

رغب الكفار فى الانتقام ممن زين لهم الكفر والمعصية ، فقالوا : ربنا أرنا مَنْ أضلنا من فريقى شياطين الجن والإنس ، لكى ندوسهم بأقدامنا ، تشفيًا وانتقامًا منهم ، وليكون الفريقان من الأذلين المهانين فى الدرك الأسفل من النار ، وهى أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين .

وقد أفاد القرآن الكريم فى موضع آخر أن العذاب يضاعف للجميع : لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ .

(الأعراف : ٣٨)

وقال سبحانه : ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۞ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ . (الناس : ٥ ، ٦) .

★ ★ ★

ما وعد الله به أهل الاستقامة والحكمة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

المفردات :

استقاموا : ثبتوا على الإيمان والصراط المستقيم .

تتنزل عليهم الملائكة : بالبشارة والإلهام في حياتهم ، وعند موتهم وبعثهم بما يسرّهم .

أولياؤكم : نصراؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة .

ولكم فيها : في الدار الآخرة .

ما تدعون : ما تطلبونه وتتمنونه ، وهو افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

نُزلا : النُّزل ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف ، والمراد : رزق وضيافة مهيأة لكم.

ومن أحسن قولا : لا يوجد أحسن قولا ممن دعا إلى توحيد الله .

ولا تستوي الحسنة : في الجزاء مع السيئة .

ادفع بالتي هي أحسن : قابل السيئة بالتي هي أحسن في دفعها .

وليّ حميم : صديق مشفق .

وما يلقّاها : وما يتخلق بها .

وإمـــا يـنـــزغـــنك : النزغ والنخس والغرز بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة فى الجلد ، والمراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيده للإنسان .

فـاسـتـعـذ بـالـلـه : فالتجئ إلى حماه ، واستجر به من كيد الشيطان .

تمهيد :

من شأن القرآن أن يوازن ويقارن بين حال الكافرين وحال المؤمنين ، والآيات تعرض لوحة للمؤمنين الذين استقاموا على الإيمان والعمل الصالح ، فالملائكة تنزل عليهم فى الدنيا بالتوفيق والهداية والمعونة ، وتنزل عليهم عند الموت تبشرهم بالجنة وتطمئنهم على أولادهم وأهلهم ، وتذكر لهم أن الملائكة تتولى معونتهم فى الدنيا وبشارتهم فى الآخرة ، ولهم فى الجنة كلّ ما تشتهيه أنفسهم وكل ما يطلبونه ، وهذا كرم وفضل من الله الغفور الرحيم ، ثم تُبيِّن فضل الدعوة إلى الله مع العمل الصالح ، والانتساب بالقول والعمل لأمة الإسلام ، ثم تُبيِّن أن الحسنة والسيئة متفاوتتان ، فعلينا ألا نقابل السيئة بالسيئة ، بل نقابل الإساءة بالإحسان ، فيتحول العدوّ إلى صديق مخلص ، ولا يتحمّل ذلك إلا الصابر الموفق ، وإذا رغب الشيطان فى إغرائك بالشر أو حملك على المعصية ، فتحصّن بالله والجأ إليه لحمايتك من وسوسة الشيطان، إنه سبحانه سميع لكل دعاء ، عليم بجميع عباده .

التفسير :

٣٠ – إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

تصف الآيات منزلة المؤمنين الذين أعلنوا إيمانهم بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، واستقاموا على ذلك فلم يروغوا روغان الثعالب ، بل ثبتوا على الإيمان وعملوا بمقتضاه .

قال رجل : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً ، وأقلل فيه لعلى أعيه ، فقال له الرسول ﷺ : «قل آمنت بالله ثم استقم» ، فقال الرجل : يا رسول الله ، ما أكثر ما تخاف علىّ ؟ فأخذ الرسول ﷺ بلسان نفسه ثم قال : «هذا» ، أى : أخاف عليك لسانك[١٩] . (رواه الإمام أحمد ، ومسلم فى صحيحه ، والنسائى) .

فالمؤمن المستقيم على فعل الصالحات وترك المعاصى ، الثابت على الخير ، البعيد عن الشر ، الذى وطن نفسه على الهدى ، وفطمها عن الردى ، تنزل عليه الملائكة فى الدنيا – وإن لم يرها – تشرح صدره ، وتيسّر أمره ، وتمنحه المعونة والهدى والتوفيق ، وتنزل عليه عند الموت تبشّره برضوان الله ، وتنزل عليه فى القبر تؤنسه وتبشره بمنزلته فى الجنة ، وتنزل عليه عند البعث حيث ينزل عليه الملكان اللذان كانا يكتبان عليه الحسنات والسيئات ليصحباه إلى عرصات القيامة ، ونعيم الجنة ، ولا يمرّ المؤمن المستقيم

بأى كرب من كروب الآخرة إلا بشرته الملائكة بما أُعدّ له ، ويسرت له الحفظ من كل كرب ، وبشرته بالجنة التى كان يوعد بها فى الدنيا على ألسنة الرسل .

٣١ - نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ .

نحن نُصراؤكم على الخير ، وأعوانكم على الاستقامة فى الحياة الدنيا ، إذ نثبتكم على الطاعة ونمنحكم التوفيق والهداية ، ونحن نبشركم قرب رحيلكم إلى الآخرة بالجنة ونعيمها ، ولكم فى الجنة ، مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ... ما تطلبه نفوسكم .

قال ﷺ : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[٥٠] . انظر سنن الترمذى، وصحيح مسلم عن أبى هريرة ، كتاب الجنة ، وصفة نعيمها ، ولكم فى الجنة ما تطلبونه ، وما تدّعون ، وتقولون إنه لكم فهو لكم بحكم ربكم .

٣٢ - نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ .

النُّزُل هو ما يُهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

والمعنى : إن هذا النعيم فى الجنة جعله الله ثوابًا ونعيمًا لكم ، من غفور سابغ المغفرة ، رحيم واسع الرحمة .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات متعددة فى وصف نعيم الجنة ، وحورها وولدانها ، وثمارها وأشجارها ، وفاكهتها ، وأنهارها ، وعسلها ، ولبنها ، وظلالها ، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى سورة الواقعة : وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا * وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ.

(الواقعة : ١٠ - ٤٠)

٣٣ - وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

لا أحد أحسن قولا وأعظم منزلة ممن دعا غيره إلى طاعة الله تعالى ، وإلى المحافظة على أداء ما كلَّفه به ، وهو فى نفس الوقت يعلن عن إسلامه ، ويوافق ظاهره باطنه ، فلا يقول ذلك تباهيًا ولا رياء ، بل يقوله تعريفًا بنفسه وبفضل الله عليه حيث هداه إلى الإسلام .

وقيل : إن الآية نزلت فى المؤذنين ، والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ، كما ورد فى تفسير ابن كثير .

٣٤ - وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ .

الحسنة والسيئة متفاوتتان ، فحاول أن تردَّ على الإساءة بالإحسان ، وعلى الغلظة بالملاينة ، وعلى الفحش بالحلم والصبر ، أو تقول له : إن كنت صادقًا غفر الله لى ، وإن كنت كاذبًا غفر الله لك ، إلى غير ذلك من الحكمة فى مقابلة الناس ومعاملتهم ، فإذا فعلت ذلك تحوَّل العدوّ المشاقّ إلى صديق مشفق .

قال الشاعر :

إن العداوة تستحيل مودة ‌‌ ‌ بتدارك الهفوات بالحسنات

وقيل : إن الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان عدوًا مبينًا لرسول الله ﷺ ، وسقط فى الأسر قبيل الفتح ، فأحسن النبى ﷺ معاملته ، وقال : «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» ، فتحول إلى صديق معين .

وينبغى أن نبحث عن الحكمة فى تصرّفاتنا وأعمالنا ، فمن الناس من لا تصلح معهم الملاينة ، ولا يصلح معهم إلا المخاشنة ، وفى مثل هؤلاء قال القرآن الكريم : وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ... (الشورى : ٤٠) .

وقال تعالى : وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... (الشورى : ٤١ ، ٤٢) .

٣٥ - وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

وما يستطيع التخلّق بالأخلاق الكريمة ، والصبر والمصابرة ، واستخدام الحكمة والملاينة ، إلا الذين صبروا وتمتعوا بالصبر والحلم وكظم الغيظ ، وضبط النفس ، والانتصار على الغضب ، واعتبار الدنيا قليلة بالنسبة إلى ثواب الآخرة .

وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

وما يؤتاها إلا ذو حظ عظيم من خصال الخير ، وذو حظ عظيم من الثواب ، حيث فوّت الفرصة على خصمه واستطاع أن ينزع فتيل الشرّ ، وأن يقابل الإساءة بالإحسان ، حتى قيل : (عجبًا لمن يشترى العبيد بماله ، لم لا يشترى الأحرار بحسن فعاله) .

وقال ﷺ : «ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه ، وما نقص مال عبدٍ من صدقة ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ، فاعفوا يعزكم الله»[٥١]

٣٦ - وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

إذا حاول الشيطان استثارتك وهيّجك لتنتقم لنفسك ، أو حاول تحريك الغضب والحميّة فيك لتقابل الإساءة بمثلها ، ولتردّ على السيئة بالانتقام والكيد ، فالجأ إلى الله وتحصن به ، فهو سميع لدعائك ، عليم بالنفس البشرية وخفاياها وشئونها ، وهو سبحانه يجعلك عبدًا ربانيًا ، ترى بنور الله وهدايته وبصيرته ومعونته ، ويجعل لك فى الظلام نورًا ، وفى الشدة فرجًا .

قال تعالى : وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٢ ، ٣) .

★ ★ ★

من دلائل القدرة الإلهية

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

ومن آياته : ومن البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته .

الذى خلقهن : خلق الآيات الأربع وما سواها .

فالذين عند ربك : الملائكة .

بالليل والنهار : المقصود بهما الدوام ، أى : يصلُّون له دائما .

وهم لا يسأمون : لا يملّون .

خاشعة : جامدة يابسة لا نبات فيها ، وأصل الخشوع التذلل ، استعير لحال الأرض الجدبة اليابسة.

اهتزت : تحركت بالنبات .

ربت : انتفخت وعلت بالنَّبات .

إنه على كل شىء قدير : من الإحياء والإماتة .

تمهيد :

بعد بيان أحسن الأعمال والأقوال وهو الدعوة إلى الله تعالى ، تحدث عن دلائل القدرة الإلهية وآياتها فى الليل والنهار والشمس والقمر ، وخشوع الأرض ثم اهتزازها وانتفاخها بالنبات ، ومن أحيا الأرض بالمطر قادر على إحياء الإنسان بعد الموت .

التفسير :

٣٧- وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

ومن دلائل قدرة الله تعالى هذه المخلوقات ، فالليل ظلام وراحة وهدوء ونوم ، والنهار حركة ونشاط وعمل وسعى ، والشمس فى حركتها وسعيها من الشروق إلى الغروب ، ولها منازل متعددة يترتب عليها الفصول الأربعة : الشتاء ، والربيع ، والصيف ، والخريف . والقمر وأنواره الخافتة وتدرجه من الصغر إلى الكبر، ثم يعود صغيرا فى آخر الشهر ، ليعرف الناس عدد الشهور والحساب ، وقد عبد الناس الشمس والقمر تقربا لله الخالق ، فبيَّن القرآن أن العبادة لا تكون إلا لله وحده ؛ لأنه هو الخالق القاهر الباسط الرافع ، ولا يجوز أن يسجد الإنسان للمخلوق ويترك الخالق المستحق وحده للعبادة .

وفى سورة (النمل) نجد جانبا من قصة سليمان ، وعرضا لقصة الهدهد الذى أحاط بمملكة سبأ ، ورأى بلقيس ملكة سبأ تسجد هى وقومها للشمس من دون الله ، واعترض الهدهد على ذلك وتمنَّى أن يسجد هؤلاء جميعا لله الذى خلق الشمس ، وهو سبحانه الذى ينبت النبات ، ويعلم كل شىء فى هذا الكون .

قال تعالى على لسان الهدهد : **إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا**

يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . (النمل : ٢٣ – ٢٦) .

كما تحدث القرآن عن حركة الشمس والقمر فى سورة (يس) ، وأنهما يتحركان بتقدير الله ، ولكل منهما مجال لا يتعداه .

قال تعالى : وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٣٨ – ٤٠) .

من أجل بيان ذلك رأينا القرآن هنا يقول : لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

وفيه رد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب ، ورد على عبدة الشمس الذين زعموا أنهم يقصدون بالسجود للشمس أو للقمر السجود لله فنهوا عن ذلك ؛ أى : لا تسجدوا لهذه الأسباب الظاهرة مثل الشمس والقمر ، واسجدوا لله الخالق الذى خلق الشمس والقمر والليل والنهار ، وبيده وحده الخَلق والأمر ، إن كنتم تريدون العبادة الحقة فاتجهوا بها إلى الله وحده لا شريك له .

وهذه الآية موضع سجدة ، لكن بعض الفقهاء أوجب السجدة عند نهاية هذه الآية فى كلمة : تَعْبُدُونَ . وبعضهم أوجب السجدة عند نهاية الآية التى تليها فى قوله : وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ . لأن الكلام يتم عندها ، واختلف النقل عن الصحابة على هذا النحو ، وقال ابن العربى : والأمر قريب .

٣٨– فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ .

أى : إن استكبر المشركون عن عبادة الله وحده ، أو تكبَّر عبدة الكواكب والشمس والقمر عن طاعتك أيها الرسول ؛ فلا تأبه بهم فالله غنى عنهم ، فالملائكة المكرمون خاضعون لقدرة الله ، ملازمون لعبادته بالليل والنهار ، لا يملُّون ولا يسأمون من عبادة الله تعالى .

كما قال سبحانه وتعالى : فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ . (الأنعام : ٨٩) .

٣٩– وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

ومن دلائل قدرة الله تعالى أنك أيها المخاطب ترى الأرض هامدة خاشعة لا نبات بها ولا زرع ولا ماء، فإذا ساق الله إليها الماء وبثّ الزّارع فيها الزرع ، واختلط الزرع بالتراب والماء ، نبت الزرع ونما

واهتزت به الأرض وتحركت ، وزادت وربت ، ودبت فيها الحياة ، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها ، كذلك يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . فهو سبحانه قادر على البعث والنشر والحشر ، والحساب والجزاء .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وقال سبحانه وتعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

★ ★ ★

القرآن هدًى وشفاء

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

يلحدون فى اياتنا : يميلون عن الحق فيها ، والإلحاد : الميل والعدول ، ومنه اللحد فى القبر لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى .

آيـــاتـــنـــا : القرآن .

لا يخفون علينا : نحن نراهم ، ونعد لهم الجزاء المناسب .

اعملوا ما شئتم : جملة للتهديد والوعيد ، أى : اكفروا وألحدوا واتبعوا أهواءكم فأنا مطلع ومحاسب ، وسوف ترون عقوبة عملكم .

كفروا بالذكر : كفروا بالقرآن ، والقرآن فيه ذكر لله ، وفيه ذكر للتشريع والأخبار السابقة واللاحقة ، وهو شرف ورفعة للعرب .

كتاب عزيز : كريم على الله ، لا تتأتى معارضته .

لا يأتيه الباطل من بين يديه : لا يأتيه الباطل من جميع جهاته .

حكيم : يضع الشيء فى موضعه .

حميد : محمود على أفضاله وأفعاله .

أعجميا : بلغة العجم .

لولا فصلت آياته : هلا بُينت بلسان نفقهه .

أأعجمى وعربى : أيصح أن يأتينا كتاب أعجمى والمخاطَب به عربى ، والعرب يقولون عمن يخالف لغتهم: أعجمى.

فى آذانهم وقر : صمم فلا يسمعونه .

وهو عليهم عمى : فلا يبصرون هداه .

أولئك ينادون من مكان بعيد : هؤلاء كأنما ينادون من مكان بعيد فلا يسمعون لبعده ، فاختلف فيه بالتصديق والتكذيب.

لفى شك منه مريب : لفى شك يقتضى الاضطراب والقلق .

التفسير :

٤٠ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وقف الكفّار موقف المعارضة من القرآن والإسلام ، وقابلوا تلاوة القرآن بالصفير والتصفيق ، والقرآن هنا يتهددهم ويتوعدهم ، فهم تحت المجهر .

إنهم ملحدون يميلون بالقرآن عن ظاهره ، ويؤوِّلون القرآن تأويلا يناسب عقيدتهم الفاسدة ، وهم تحت عين الله وبصره معلومون، وستكون عاقبتهم فى جهنم ، وشتان بين كافر يلقى فى النار مثل أبى جهل، ومسلم يدخل الجنة مع الأمن والأمان ، مثل عمّار بن ياسر ، وأبيه ياسر وأمّه ، ذلك الرجل الذى اشتدّ به العذاب، فقال كلمة أرضى بها كفار مكة ؛ فقال المؤمنون : صبأ عمار ، فقال ﷺ : «إن عمارًا مليئ إيمانًا» [٥٢].

أخرج ابن المنذر ، عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية فى أبى جهل وعمار بن ياسر : أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ...

ثم توعد القرآن وتهدد الملحدين الطاعنين فى القرآن ، فقال : ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أى : قاوموا القرآن ، أو افعلوا أى سبيل يروق لكم فى معارضة القرآن ، فأنتم تحت سمعى وبصرى ، وستلقون جزاءكم عندما تُردُّون إلىّ ، وما أهول أن يكون العبد تحت سمع الله وبصره ، ثم هو يعارض القرآن ويصفِّق ويصفِّر عند تلاوته .

فكأن القرآن يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فالله مطلع على أعمالكم وسيوفيكم جزاءكم .

٤١ ، ٤٢ - إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ● لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

ما أعجب هذا القرآن ، اشتمل على الوحى والهداية وألوان البيان ، وأخبار الأمم السابقة ، وأخبار الرسل والأنبياء ، وأخبار القيامة والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، ومع اشتماله على هذه المعانى الجميلة فقد كفر به كفار مكة ، وقابلوه بالإعراض والكنود والرفض ، وقد جاء إليهم وهم مرتاحون فى بيوتهم ، يقدِّم لهم أفضل الطرق وأقومها .

قال تعالى : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا. (الإسراء : ٩) .

وخبر إن محذوف تقديره : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم خاسرون ، أو هالكون ، حيث قابلوا هداية القرآن بالكفر والتكذيب .

وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ .

مشتمل على أسباب العزة والمنعة ، لا تتأتَّى معارضته ، ولا يأتيه الباطل من جميع جهاته : لغةً ، وعقيدةً ، وتشريعًا ، وقصصا ، وانسجامًا ، وترتيلا ، فهو فى هذا قمة لا ترام ولا تنال .

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ...

لا يتطرق إليه الباطل ، أو ليس لأحد أن يبطله من أى جهة من جهاته ، أو جانب من جوانبه ، ولا يكذبه كتاب سابق قبله ، ولا لاحق بعده .

قال ابن كثير : أى : ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين . ا هـ .

لقد تكفل الله بحفظه من الزيادة والنقصان ، ومن كل باطل أو بهتان .

قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

أنزله إله بالغ الحكمة فى أقواله وأفعاله ، سابغ النعم والفضل على عباده ، حيث أنزل عليهم آخر كتبه مشتملا على التشريع والهداية ، وألوان الأدب والقصص والتاريخ ، وسنن الله فى الكون ، ومشاهد القيامة وما يتصل بها من بعث وحشر ، وحساب وجنة ونار ، وثواب وعقاب ، فلله الفضل والمنة ، والحمد والشكر، فهو الحكيم حكمة مطلقة ، والمحمود على سائر نعمه ، وإنزال كتبه وهداية خلقه ، ولله تعالى الفضل والمنة.

٤٣ - مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

تأتى هذه الآية فى مواساة الرسول ﷺ ، وتسليته ليصبر على أذى قومه ، لقد قال قومك عنك : إنك ساحر ، وقالوا : شاعر ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، وغير ذلك ، ومن قبلك قال الكافرون للرسل : لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ... (إبراهيم : ١٣) .

ووقف الكفار موقفا مشابها فى تكذيب الرُّسل ورَفْض دعوتهم ، وقذفهم بالتهم المختلفة المختلَقَة ، فاصبر ، والله ذو مغفرة واسعة للمؤمنين ، وذو عقاب أليم للكافرين ، فبيده سبحانه وتعالى الجزاء العادل ، والفضل الواسع لمن آمن ، والعقوبة الرادعة لمن كفر .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. (الذاريات : ٥٢)

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ... قال رسول الله ﷺ : «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدًا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد» .

٤٤ - وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

دخل القرآن على المشركين من كل باب ، وحاكمهم إلى الحسّ ، وقص عليهم القصص ، ولفت أنظارهم إلى الكون وجماله ، وشخّص القيامة وأهوالها كأنها حاضرة أمامهم ، ومع ذلك قالوا : قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا

تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ... (فصلت : ٥) . فنحن لا نفقة القرآن ولا نستمع إليه ، ولا ننظر فى أدلته .

وهنا يقول لهم القرآن : لو كان القرآن بلغة العجم – أى : ليس بلغة العرب – لقلتم : هلا فُسِّرت آياته، ووُضّحت كلماته بلغة عربية ، أيجوز أن ينزل قرآن أعجمى على رسول عربى ، والمرسل إليهم عرب ؟

والمقصود : لو كان أعجميًا لجاز أن تقولوا : قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ... (فصلت : ٥) ، أما والقرآن عربى مبين ، فالحجاب سببه انشغال قلوبكم بالدنيا ، وإعراضكم عن الهدى ، وانصرافكم عن الرسالة النافعة .

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ...

هو للمؤمنين مصدر هداية لأنفسهم ، وشفاء لأسقامهم ، حيث يأخذ بأيديهم إلى الإيمان ، ويزيدهم إيمانًا إلى إيمانهم ، ويقينًا بالله إلى يقينهم ، ويعلمهم ما ينفعهم ، ويزيدهم علمًا ومعرفة .

وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...

أما الكافر الذى أصمَّ أذنه عن سماع آيات الله ، فهو لذلك لا يسمع ، وإذا سمع لا ينصت ، وإذا أنصت ظاهرًا انصرف بقلبه باطنًا ، فكأنه سمع بأذنه ولم يهتد بقلبه ، لقد عميت قلوبهم عن هداية القرآن ، لذلك لم تبصر عيونهم جمال أسلوبه ، ولا فصاحة كلماته ، ولا رونقه وبيانه وهدايته ، كأنَّ القرآن يناديهم من مكان بعيد ، لا يسمعونه ولا يفقهونه ولا يتبينون مراده .

قال القرطبى :

قوله تعالى : أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ .

يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل ، وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادَى من بعيد ، أى : كأنه ينادَى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك :

ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم ، من مكان بعيد ، فيكون ذلك أشدّ لتوبيخهم وفضيحتهم . ا هـ .

ومن يتدبَّر هذه الآية الكريمة يشاهد مصداقها فى كل زمان ومكان ، فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وسماعًا وتطبيقًا ، وهناك من يستمع إلى هذا القرآن فلا يزيده السماع إلا إعراضًا وبعدًا وصمما وتشاغلا .

قال تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . (التوبة : ١٢٥) .

٤٥ - وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

تأتى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ على تكذيب قومه له ، كما قال سبحانه : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

والمعنى :

أعطينا موسى التوراة فآمن فريق بها وكذَّبها فريق ، كما فعل قومك مع القرآن ، ولولا أن الله جلّت حكمته قد قضى بأن يمهل الناس ويعطيهم فرصة كافية لاستخدام عقولهم ، وتسخير مواهبهم ، واستعادة تفكيرهم ، لعلّهم أن يتوبوا ويراجعوا ضمائرهم ، فيستغفروا ويتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ، وإلى الإيمان بكتبه المنزّلة ، لولا ذلك لقضى بينهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال .

قال تعالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا . (الكهف : ٥٨) .

وقال سبحانه : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... (فاطر : ٤٥)

وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

أى : إن قومك من كفار مكة فى شك وتوجُّس وخوف من هذا القرآن ، مُوقع لهم فى أشد الريبة والاضطراب ، حيث كان أغنياء مكة يستمتعون بالمال والخمر والغناء والقيان ، ويرون أنهم من جنس أفضل قدرًا، وأعلى منزلة من الفقراء والعبيد .

وكان القرآن يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويبيِّن أن الناس جميعا من آدم ، وهم يتفاضلون عند الله بالتقوى والأعمال الصالحة ، كم حرَّم القرآن الخمر والميسر والزنا والفواحش ، وحثَّ على الصدقة والإحسان وإكرام اليتيم ومساعدة الضُّعفاء والمحتاجين .

من أجل ذلك توجَّس الكفار شرًّا من هذا القرآن ، وخافوا من بلاغته وصولته ، وحاولوا أن يكتموا صوته ، وهذا الشك أوقعهم فى اتهام القرآن والخوف منه ، لذلك سمّاه الله شكا مريبا ، أى : شكا مركبا بالغ الاتهام .

جاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى :

وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . أى : وإن كفار قومك لفى شك من القرآن ، موقع فى الريبة والقلق ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوه ، غير متحققين لشيء كانوا فيه [٥٢] .

٤٦- مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ .

من عمل عملا صالحا فى هذه الدنيا فنفع ذلك يعود على نفسه ، حيث سيستوفى الجزاء فى الدنيا والآخرة ، فمن آمن بكتاب الله وأحسن تلاوته والانتفاع به ؛ هداه ذلك إلى حسن السلوك ، وفعل الخير ، وجنى الثواب النافع فى الدنيا والآخرة .

وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ... ومن كفر بالله ولم يستمع لكتاب الله ، ولا لرسالات السماء ، وجحد الحق ، فقد جنى على نفسه ، وعرّض نفسه لغضب الله فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة .

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

فالله تعالى عادل تمام العدل فى حكمه ، يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها أو يزيد ، ويكافئ على السيئة بمثلها أو يغفر لصاحبها إذا تاب ، وقد ورد فى القرآن والسنّة تكرير هذا المعنى، فالله عادل وكريم.

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وقال تعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ .
(النجم : ٣٩ - ٤١)

والآية - كما ترى - ميزان عادل ، ودعوة للخير ، وتحذير من الشرّ ، فالجزاء من جنس العمل ، فالمحسن يحسن إلى نفسه، والمسيء يسيء إلى نفسه، ولا يُعذّبُ الله أحدًا إلا بعد بيان الحجة له ، وإرسال الرسل لهدايته، وإنزال الكتب لشرح الرسالة وتوضيح الحقائق والبينات ، وتوضيح ألوان الهداية وسبل الرشاد ، فمن اهتدى وعمل صالحا فسيجنى ثوابا لنفسه ، ومن ضل وغوي فسيحصد عقابا عادلا بذنبه .

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ .

فحاشاه أن يظلم أحدا .

ذكر المفسرون هنا ما يأتي :

لفظة : ظلاَّم صيغة مبالغة ، ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم نفى أصل الفعل ، فقولك : زيد ليس بقتَّال للرجال ، معناها : أنه ليس بكثير القتل للرجال ، أى أنه ربما قتل بعض الرجال ، ومعلوم أن المراد بنفى المبالغة - وهى لفظ : ظلاَّم - فى هذه الآية وأمثالها ، المراد به نفى الظلم من أصله ، وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها :

أن نفى صيغة المبالغة هنا قد جاء فى آيات كثيرة ما يدل على أن المراد به نفى الظلم من أصله ، ومن ذلك قوله تعالى : وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ... (الكهف : ٤٩) .

وقوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ... (يونس : ٤٤).

وقوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... (النساء : ٤٠) .

ومنها أن المراد بالنفى فى الآية نفى نسبة الظلم إليه ؛ لأن صيغة (فعَّال) تستعمل مرادًا بها النسبة، فتغنى عن ياء النسب ، مثل قولهم : (لبَّان) أى : ذو لبن ، (تمَّار) أى : صاحب تمر ، ومثل (عطَّار) و(بخَّار) .

وفى الحديث القدسى ، يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الرابع والعشرين ، وكان الانتهاء منه ضحى يوم الأحد ٢٥ من المحرم سنة ١٤٢١هـ، الموافق ٣٠ من أبريل سنة ٢٠٠٠م ، بمدينة بورسعيد - جمهورية مصر العربية ، وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلاَّ بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود : ٨٨) .



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجزء الرابع والعشرون)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) تفسير النسفى الجزء الرابع ص ٥٩ .

(٢) إذا أوى أحدكم إلى فراشه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) وفى التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم يقول : باسمك رب وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» .

(٣) إن الله قبض أرواحكم :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٩٥) من حديث أبى قتادة قال : سرنا مع النبى ﷺ ليلة فقال بعض القوم : لو عرست بنا يارسول الله ، قال : «أخاف أن تناموا عن الصلاة» ، قال بلال : أنا أوقظكم ، فاضطجعوا وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام ، فاستيقظ النبى ﷺ وقد طلع حاجب الشمس فقال : «يا بلال أين ما قلت»؟ قال : ما ألقيت على نومة مثلها قط ، قال : «إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء ، يا بلال قم فأذن بالناس بالصلاة» ، فتوضأ فلما ارتفعت الشمس وابيضت قام فصلى .

(٤) اللهم رب جبرائيل وميكائيل :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٠) والنسائى فى قيام الليل (١٦٢٥) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٥٧) وأحمد (٢٤٦٩٩) من حديث عائشة ، وقال الترمذى: حسن غريب .

(٥) اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة :

رواه أحمد فى مسنده (٨٢) والترمذى فى الدعوات (٣٥٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ قال : فنظرت فإذا فيها : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : يارسول الله علمنى ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال : «يا أبا بكر قل : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٦) فيها ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٤) ، وفى التفسير (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، وفى التوحيد (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤)، والترمذى فى التفسير (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) ، وابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٨) ، وأحمد (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١)، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٧) أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا :

رواه البخارى فى التفسير (٤٨١٠) ومسلم فى الإيمان (١٢٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ ونزلت : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ .

(٨) ما أحب أن لي الدنيا :

رواه أحمد في مسنده (٢١٨٥٧) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ ، فقال رجل: يارسول الله فمن أشرك؟ ، فسكت النبى ﷺ ثم قال : «إلا من أشرك» ، ثلاث مرات .

(٩) كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) ومسلم في التوبة (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل فأتى راهبا فسأله ، فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله فجعل يسأل فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي ، وقال : قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له» .

(١٠) تفسير القرطبي مجلد ٦ ص ٥٨٨٧ ، دار الغد العربي ، العباسية ، القاهرة .

(١١) يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه :

رواه مسلم في صفة القيامة (٢٧٨٨) من حديث عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال : يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ويبسطها ، أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ .

(١٢) يقبض الله الأرض ويطوى :

رواه البخاري في التفسير(٤٨١٢) ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يقبض الله الأرض ويطوى السماوات بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض» .

(١٣) أورد ابن كثير في تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عن الحشر ، والنفخات الأولى والثانية والثالثة ، كما عُني مختصر تفسير ابن كثير للصابوني بتخريج هذه الأحاديث .

(١٤) انظر بصائر ذوي التمييز ٣٠٩/١ .

(١٥) من قرأ حم المؤمن :

رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٩) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح» . قال أبو عيسى: هذا حديث غريب .

(١٦) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاري في التفسير : باب قوله ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٤٠٩) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجة في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى

رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». قال: ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

(١٧) فى دبر كل صلاة حين يسلم :

رواه مسلم فى المساجد (٥٩٤) من حديث أبى الزبير قال : كان ابن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، وقال : كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة .

(١٨) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعًا .

(١٩) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثانى ص ٢٣٨ .

(٢٠) من تفسير ابن كثير ١٣٧/٧ ، تحقيق سامى بن محمد السلامة ، دار طيبة ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ط ١٩٩٧

(٢١) فوضع رداءه فى عنقه فخنقه به :

رواه البخارى فى المناقب (٣٦٧٨، ٣٨٥٦) وفى التفسير (٤٨١٥) وأحمد فى مسنده (٦٨٦٩) من حديث عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ، قال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى ﷺ وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم .

(٢٢) أشيروا علىّ أيها الناس :

ذكره البيهقى فى دلائل النبوة.

(٢٣) حاشية الجمل على الجلالين .

(٢٤) إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٧٩) وفى بدء الخلق (٣٢٤٠) وفى الرقاق (٦٥١٥) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٦) والترمذى فى الجنائز (١٠٧٢) وأحمد فى مسنده (٤٦٤٤) ومالك فى الموطأ كتاب الجنائز (٥٦٤) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» .

تنبيه: قوله: ثم قرأ ﷺ : ﴿النار يعرضون عليها ...﴾ . قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده ...» الحديث. ثم قال : زاد ابن مردويه ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ . فعُلِم من ذلك أن هذه الزيادة لم يذكرها الشيخان، فلينتبه.

(٢٥) والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٠٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٩) وابن ماجة فى الأدب (٣٨١٥) من حديث أبى هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» .

ورواه مسلم فى الذكر (٢٧٠٢) وأبو داود فى الصلاة (١٥١٥) من حديث الأغر المزنى وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال : «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة» .

(٢٦) تفسير القرطبى مجلد ٧ ص ٥٩٤٤ ، طبعة دار الغد العربى ، القاهرة .

(٢٧) بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا» . ومسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا» .

(٢٨) كان من أفكه الناس :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٦٨٦٥) من حديث أنس ، ونسبه لابن عساكر وقال: ضعيف .

قال المناوى فى «الفيض» : رواه الحسن بن سفيان فى مسنده من حديث أنس دون قوله : «مع نسائه» . ورواه البزار والطبرانى فى الصغير والأوسط فقالا : «مع صبى» . وفى إسناده ابن لهيعة .

(٢٩) يمزح ولا يقول إلا حقا:

رواه الترمذى فى البر (١٩٩٠) وأحمد فى مسنده (٨٢٧٦، ٨٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله ، إنك تداعبنا ، قال : «إنى لا أقول إلا حقا» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣٠) روحوا القلوب ساعة فساعة :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٤٨٤) بلفظ : «روحوا القلوب ساعة فساعة» .

(٣١) وإن لزوجك عليك حقا :

رواه البخارى فى الصوم (١٩٦٨) وفى الأدب (٦١٣٩) والترمذى فى الزهد (٢٤١٣) من حديث أبى جحيفة قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما ، فقال : كُلْ ، قال : فإنى صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال : فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال النبى ﷺ : «صدق سلمان» . ورواه البخارى فى الصوم (١٩٧٤، ١٩٧٥) وفى النكاح (٥١٩٩) وفى الأدب (٦١٣٤) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) والنسائى فى الصيام (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٦٨٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : دخل على رسول الله ﷺ .. فذكر الحديث يعنى : إن لزورك

عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا فقلت : وما صوم داود قال : «نصف الدهر» . ورواه أبو داود فى الصلاة (١٣٦٩) وأحمد فى مسنده (٢٥٧٧٦) من حديث عائشة أن النبى ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال : «ياعثمان أرغبت عن سنتى»؟ ، قال : لا والله يارسول الله ولكن سنتك أطلب ، قال : «فإنى أنام وأصلى ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله ياعثمان فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر وصل ونم» .

(٣٢) حبب إلىّ الطيب والنساء :

رواه النسائى (٣٩٤٠ ، ٣٩٣٩) وأحمد (١١٨٨٤، ١١٨٨٥، ١٢٦٤٤) من حديث أنس بن مالك. قال : قال رسول الله ﷺ: «حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة» . قال العراقى: رواه النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد، وضعفه العقيلى. قال المناوى فى «الفيض» : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وقال الحافظ العراقى: إسناده جيد ، وقال ابن حجر : حسن، واعلم أن المصنف جعل فى الخطبة حم رمزاً لأحمد فى مسنده فاقتضى ذلك أن أحمد روى هذا فى المسند وهو باطل فإنه لم يخرجه فيه وإنما خرجه فى كتاب الزهد فعزوه إلى المسند سبق ذهن أو قلم. قلت: وكلام المناوى فيه نظر فإن الحديث رواه أحمد فى مسنده كما تقدم من حديث أنس بن مالك وذكره فى ثلاثة مواضع ، فتأمل .

(٣٣) من رغب عن سنتى فليس منى :

رواه البخارى فى النكاح (٥٠٦٣) ومسلم فى النكاح (١٤٠١) ، والنسائى فى النكاح (٣٢١٧) ، وأحمد (١٣١٢٢، ١٣٣١٦، ١٣٦٣١). ورواه ابن ماجة فى النكاح (١٨٤٦) بلفظ: «النكاح من سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى...» الحديث . كلهم من حديث أنس، ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) عن مجاهد عن رجل من الأنصار. ورواه الدارمى فى النكاح (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبى وقاص .

(٣٤) مزمار الشيطان :

رواه البخارى فى الجمعة (٩٥٠، ٩٨٨) وفى الجهاد (٢٩٠٧) وفى المناقب (٣٥٣٠، ٣٩٣١) ومسلم فى صلاة العيدين (٨٩٢) من حديث عائشة ، أن أبا بكر دخل عليها والنبى ﷺ عندها يوم فطر أو أضحى ، وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعاث فقال أبو بكر : مزمار الشيطان ، مرتين فقال النبى ﷺ : «دعهما يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وإن عيدنا هذا اليوم» .

(٣٥) تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة :

رواه الترمذى (١٩٥٦) من حديث أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة» . وقال الترمذى: وفى الباب عن ابن مسعود وجابر وحذيفة وعائشة وأبى هريرة وقال: هذا حديث حسن غريب وأبو زميل اسمه سماك بن الوليد الحنفى. وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٢٣١) ونسبه للبخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن حبان فى صحيحه . قال المناوى فى «الفيض»: أورده فى الميزان فى ترجمة عكرمة عن عمار العجلى من حديثه وقال: قال أبو حاتم : ثقة ربما يهم . وقال أحمد : ضعيف ، وقال البخارى : لم يكن له كتاب فاضطرب حديثه. قال الهيثمى فى المجمع: وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إن تبسمك فى وجه أخيك يكتب لك به صدقة وإن افراغك من دلوك فى دلو أخيك

يكتب لك به صدقة وإماطتك الأذى عن الطريق يكتب لك به صدقة وإن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر يكتب لك به صدقة وإرشادك الضال يكتب لك به صدقة». رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن أبي عطاء وهو مجهول.

(٣٦) إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة :

رواه الترمذي في البر (٢٠١٨) من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» قالوا: يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : «المتكبرون» . وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ورواه أحمد في مسنده (١٧٢٧٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» . ورواه أحمد في مسنده (٨٦٠٤) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بشراركم» ؟ فقال : «هم الثرثارون المتشدقون ، ألا أنبئكم بخياركم ؟ أحاسنكم أخلاقا» .

(٣٧) يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك :

رواه ابن ماجة في الأدب (٣٧٩١) ، من حديث عبد الله بن عمر.

(٣٨) اللهم إني عبدك وابن عبدك :

رواه أحمد في مسنده (٣٧٠٤، ٤٣٠٦) من حديث عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا» ، قال : فقيل : يارسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها» .

(٣٩) كم المرسلون :

رواه أحمد في مسنده (٢١٠٣٦) من حديث أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : «يا أبا ذر هل صليت»؟ قلت : لا ، قال : «قم فصل ...» الحديث وفيه: قلت : يارسول الله ، أي الأنبياء كان أول ؟ قال : «آدم» ، قلت : يارسول الله ونبي كان ؟ قال : «نعم نبي مكلم» ، قال : قلت : يارسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : «ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا» وقال مرة : «خمسة عشر» قال : قلت : يارسول الله آدم أنبي كان ؟ قال : «نعم نبي مكلم» ، قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : «آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾» .

(٤٠) علّه يقصد دعاء موسى عليه السلام المذكور في القرآن الكريم : ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربّنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ (يونس : ٨٨ ، ٨٩) .

(٤١) أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي في شُعب الإيمان ، عن ابن عمر.

(٤٢) الميل إلى النساء .

(٤٣) قارن بسيرة ابن هشام ، وانظر تفسيرى القرطبى والمراغى .

(٤٤) اللهم رب السماوات السبع :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٢) من حديث بريدة قال : شكا خالد بن الوليد المخزومى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق فقال النبى ﷺ : «إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعا أن يفرط على أحد منهم أو أن يبغى عن جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك لا إله إلا أنت» . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث ، ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ مرسلا من غير هذا الوجه .

(٤٥) بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : «هل تدرون مم أضحك»؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : «من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ، قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه فيقال لأركانه : انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال: فيقول : بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل» .

(٤٦) تفسير ابن كثير .

(٤٧) أنا عند ظن عبدى بى :

رواه البخارى (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) والترمذى (٢٣٨٨ ، ٣٦٠٣) وابن ماجة (٣٨٢٢) وأحمد (١٠٣٠٦، ١٠٣٢٦ ، ١٠٤٠٣، ١٠٥٢٦، ٢٧٢٨٢، ٢٧٣٩٥، ٨٨٣٣، ٩٠٨٧، ٩٤٥٧) .

(٤٨) لا يموتن أحدكم :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٧) وابن ماجة فى الزهد (٤١٦٧) وأحمد فى مسنده (١٣٧١١) من حديث جابر قال : سمعت النبى ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن» .

(٤٩) قل آمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) والترمذى فى الزهد (٢٤١٠) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٢) وأحمد فى مسنده (١٤٩٩١، ١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣، ١٨٩٣٨) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى. وقال الترمذى: حسن صحيح .

(٥٠) فيها ما لا عين رأت :

سبق تخريجه ، انظر هامش (٦) .

(٥١) ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا بعفو :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨٨) ، والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٩) ، وأحمد (٧١٦٥، ٨٧٨٢)، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٦) من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح .

(٥٢) ملئ عمّار إيمانًا إلّى مشاشه :

رواه ابن ماجة فى المقدمة (١٤٧) من حديث على ، ورواه النسائى فى الإيمان (٥٠٠٧) من حديث رجل من أصحاب النبى ﷺ . قال المناوى فى «الفيض» : وفيه أحمد بن المقدام أورده الذهبى فى الضعفاء ، وقال : ثقة صاحب مزاح ، ورواه عنه أيضا أبو يعلى ، والديلمى ، وفى الباب عن عائشة .

(٥٣) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ، للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان، الجزء ٢٤ ص ٢٤٩

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الرابع والعشرين)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (الرابع والعشرون)

ويليه الجزء (الخامس والعشرون) بإذن الله تعالى




Bibliotheca Alexandrina
0461311